

سعيد الأفغاني

أسواق العرب

في الجاهلية والإسلام

## مقدمة الطبعة الرابعة

### بسم الله الرحمن الرحيم

كثيراً ما كنت أحرَج حين يتلطف فاضل ممن أجلُّ من العلماء فيشكو إلي إخفاقه في الحصول على نسخة من هذا الكتاب في السوق، وقد كانت طبعته الثالثة نفذت منذ أكثر من عشر سنوات، حتى في دمشق مظنة وجوده.

فلما أبلغني الأخ الأستاذ محمود الأرنؤوط رغبة (مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع) في الكويت الشقيق لصاحبها الأستاذ الدكتور خالد عبد الكريم جمعة في أن تقوم هي بالطبعة الرابعة للكتاب، بادرت بالموافقة، وعددت ذلك من حسن حظ الكتاب.

رجعت في إعداد هذه الطبعة الجديدة إلى ما تراكم لدي من زيادات وإضافات هامة تثري مادة الكتاب. وجعلتها بعد فهرس الموضوعات، مشيراً إلى موضع كل فقرة في سطرها من الصفحة، لتكون مادة البحث ملمومة في موضعها الواجب لها.

أطمح من عون الله في مزيد من الهداية والتيسير لبذل الجهد فيما يزيد النفع، وهو حسبي ونعم الوكيل.

رجب ١٤١٣هـ/كانون الثاني ١٩٩٣م

سعيد الأفغاني

صورة مقدمة الطبعة الرابعة بخط يد المؤلف

## مقدمة الطبعة الثانية<sup>(١)</sup>

### بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم الطبعة الثانية من كتابي (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) منقحة مزيداً فيها فوائد غزيرة غزيرة، آملاً أن يكون لي نصيب - ولو ضئيلاً - في سد فجوة من الفجوات في تاريخنا الحبيب. والحق أن الطبعة الأولى كأنها لم تكن إذ لم يطبع للبيع إلا ثلاث مئة نسخة استنفذت دمشق حينئذ كلها تقريباً.

وودت لو استطعت الإشراف على هذه الطبعة، ولا أظن الدار التي ستنتشر الكتاب إلا باذلة جهدها في أن تفضل هذه الطبعة سابقتها صحة وجمالاً.

ولا يسعني - في هذه المناسبة - إلا شكر العلماء والأدباء من العرب والمستشرقين الذين استقبلوا الطبعة الأولى من الكتاب استقبلاً ما كنت أطمع ببعضه، حامداً لهم عنايتهم ببحوثه وثناءهم على صحابه، مقدرراً حسن ظنهم واقتراحاتهم المشكورة أحسن تقدير؛ وأخص بالذكر صديقي العلامة المرحوم المستشرق سالم الكرنكوي (فريتز كرنكو) فقد لقيت من نبلة في خدمة العلم ما أتمنى أن نتحلى به جميعاً.

هذا وقد أبقيت المقدمة على حالها وإن رغب إليّ بعض المستشرقين في حذفها، لأنها تفتح العيون على حملة منظمة علينا، متعددة الميادين، ولهم هم أنفسهم دور ناجح في أحد ميادينها، أبقيتها لأنها تؤرخ نواحي اجتماعية واقتصادية وسياسية في حياة الشام في غمرة من الغمرات، وتشير إلى ظاهرة روحية قلقة سادت البلد إبان قيام (سوق دمشق ومعرضها عام ١٩٣٦)، ثم هي في الوقت نفسه تاريخ (لظروف) تأليف الكتاب.

والله أسأل أن يجعلنا أبدأ مفيدين مستفيدين، ويرزقنا الإخلاص والسداد.

دمشق ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م

سعيد الأفغاني

<sup>(١)</sup> وهي أيضاً مقدمة الطبعة الثالثة لأنها صورت عن الطبعة الثانية كما هي.

## مقدمة الطبعة الأولى

سبق لمدينة دمشق، أن أقامت سنة ١٩٢٧م معرضاً للثمار والفواكه افتتح يوم الإثنين ثاني عشر تشرين الثاني، دام خمسة أيام واشترك فيه (١٥٠٠) عارض من مختلف بقاع الشام (سورية)، وكان أثره في نهضة الزراعة وانتعاشها مباركاً محموداً: علم الزراع ما لم يكونوا يعلمون، وحمل إلى الناس ما تنتج أرض الوطن في مختلف البقاع من ثمار تتشابه في النوع وتتباين في الصفة، فأغنى الناس بعض الإغناء عن رحلة زراعية واسعة في البلاد السورية، ووفر عليهم زمناً ومشقة وأموالاً، وخطا في سبيل تعليم الجمهور خطوة ميمونة العاقبة. ورأى فيه الزارعون من يعنى بهم ويريد لهم الخير واطراد الرقي، وتسابق فيه العارضون وفاز المعنتي بثماره منهم بجوائز المعرض، وزاره من الرجال والنساء والأطفال ما يزيد عددهم على الأحد عشر ألفاً<sup>(١)</sup>.

ثم أقامت معرضاً ثانياً للصناعات الشرقية في المجمع العلمي العربي (المدرسة العادلية في باب البريد) افتتح يوم الثامن من آذار سنة ١٩٢٨م، فخصصت الردهة الكبرى للأثار الشرقية الحديثة، ولم يسعف الزمن القصير أن تشترك فيه مدن الشام فاقتصر على دمشق، وكان ما عرض فيه (٦٢٧) من القطع المنوعة من (السجاد والنحاس والأخشاب والأسلحة والمخطوطات والجلود والصور والأقمشة وكل ما هو من الفنون الجميلة). و((كان الإقبال على معرض الصناعات فوق ما كان يرجى وذلك لتعطش الجمهور لمثل هذه المظاهر الفنية والصناعية واهتمامه بالنهضة الاقتصادية. وقد زار المعرض نيف وأربعون ألفاً في خلال ثمانية الأيام (٨-١٥ حزيران) التي ظلت أبوابه مفتحة فيها، منهم ثلاثة عشر ألف سيدة)) و((كانت نتائج المعرض مرضية محسوسة، شعر بها من عرضوا مصنوعاتهم في القاعتين الخاصتين بالنفائس والأعلاق النفيسة))<sup>(٢)</sup>.

والمعرض الشامي الثالث كان للصناعات الوطنية، أقيم في صرح الجامعة السورية، في شهر آب سنة ١٩٢٩ وعرض فيه مصنوعات المناسج على اختلافها والمصابغ والمطابع والمطاحن والمزاييت والمصابين عدا النفائس الشامية من القطع الخشبية والنحاسية والمصوغات، هذا إلى ما اشتهرت به دمشق من عمل (الساكر) والمربيات والزجاج.. إلخ ومان الإقبال على هذا المعرض أكثر من سابقه لشموله أكثر صناعات الشام، واشترك مدن سورية الشمالية. وقد تجلت فيه مواهب العرب في سورية واستعدادهم للإسهام في الصناعات العالمية. وقوي الأمل في أحفاد من أقاموا بأيديهم وفكرهم وجهودهم، المجد الصناعي لقرطبة وبغداد ودمشق ومصر، يوم لم تكن صناعة إلا صناعتنا ولا حضارة إلا ما تنعم به الإنسانية على يدنا وبمسعانا.

وفي ربيع هذا العام (١٩٣٦م) قامت الاستعدادات على قدم وساق لإنشاء معرض عام يمثل ذكاء العربي وتقدمه في جميع المناحي. وقد وافق هذا التأهب كلباً من الزمان وحرباً من العدو، وقرأ عاماً ومصيبة شاملة، فكان الناس مشغولين بذوات

(١) انظر التقرير الذي رفعه رئيس لجنة إدارة المعرض إلى وزير الزراعة والتجارة يومئذ السيد نصوح البخاري.  
(٢) انظر التقرير الخامس بأعمال المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٨ ص ٣٨.

أنفسهم عما سواه، فالسماء شحيحة ما تبض بقطرة، والأرض مجدبة ما تهتز عن خضرة، والموارد ناضبة لا تسعف، وأجزاء البلاد يُزجى فيها السموم وتبث بينها العقارب، حتى خبطها فنتنة عمياء تنكر فيها الساحلي للداخلي، وتجهم العربي للعربي، رغم الدم الصارخ في عروقهما من الفرقة، الداعي لهما إلى الإلفة والاتحاد، وغذى هذا الشر أناس أقيموا ليهدوا الناس إلى الخير والإخوة والمحبة والسلام، فكانوا دعاة للشر وعمالاً على الإفساد والتفريق والشقاء. وجعلوا من الدين الذي أنزله الله ليزيد الأواصر قوة والوشائج لحمة، ويفيض على القربى والرحم محبة ورحمة، وتعاوناً وعطفاً... جعلوا من هذا الدين وسائل سافلة تستغل سداجة العامي الغفل، وتموه عليه السم بالدسم، ليسعى إلى حتفه بظلفه ويقتل نفسه وأخاه معاً.

بهذا اشتغل الناس يومئذ وحق لهم الشغل والتفكير في هذه القطيعة المجرمة، إذ متى عاش رأس بلا جسم؟ وهل استغنى قلب عن وريد وشريان؟ وأين شرع الله للجارين من جنس واحد أن يعملوا على شقائهما معاً، ويسعيا إلى التعس السعي الحثيث، ويزجا بأعقابهما وذراريهما من بعدهما في العذاب الأليم والانقراض المحتم. ثم يعملان في أبدانها سلاحاً دسه العدو في أيديهما، وهو يتربص بكليهما الشر ليسود دارهما وحده لا شريك له؟<sup>(١)</sup>.

في غمرة هذه النزوات الطائشة، وفي شدة مقاوة المقيد الذي شعر أنه إنما يساق إلى الموت وهو أشد ما يكون تعشقاً للحياة وتمسكاً بحبالها، قام ((معرض دمشق وسوقها)) وأعلن في أقطار الشرق موعد افتتاحه! فاعجب إن كنت عاجباً لهذه الأمة الكريمة التي تنبض عروقها قوة غريبة وحيوية عنيفة، إنها لم تشغلها مصيبة عن واجب: فما أهاب بها الداعي حتى هبت هبة واحدة تنظم معرضها وتمده بكل ما في بقاع الوطن من تحفة فريدة في بابها. وزحفت صناعات الشام تتمثل في المعرض للعالمين، وازدهى هذا المعرض بعبقرية الوطن تتجلى في الفكر الخصب واليد الصناع.

\* \* \*

افتتح المعرض مساء الأحد الحادي والثلاثين من حزيران سنة ١٩٣٦م، في مدرسة التجهيز الجديدة، حيث أجمل بقعة في دمشق وأنزهها وأحفلها بأثار العرب في القديم والحديث: فصروح الجامعة السورية الحديثة وبناء دار الآثار ونزل ((خوام)) عن يمين بردى إلى جانب القباب الأثرية والمآذن الشاهقة، تلك تفكك على نشاط العربي ابن العصر العشرين وهذه تذكرك بعنفوان مجده في القديم.

ومن غريب الاتفاق أن تقوم معارض دمشق الثلاثة، في المجمع العلمي العربي (كان)، والجامعة السورية ومدرسة التجهيز: أكبر المعاهد العلمية وأعودها بالخير على البلاد، لتثير في الناس أثرين مزدوجين، يرتبطان أشد الارتباط، ولا ينفكان مرتبطين أبداً أو يفنيا معاً: عبقرية الفكر وعبقرية اليد. لا تقوم حضارة على علم وحده ولا على صناعة وحدها، ولا بد من الاثنين معاً. وقد فهمنا هذه الظاهرة وأخذنا

<sup>(١)</sup> أما الآن في سنة ١٩٦٠ فقد أزال الله الأجنبي فزال بزواله أكثر ما بذر من أسباب القطيعة، وعاش الإخوان كل في داره جيراناً متحابين.

في العمل لتحقيقها، وقطعنا في هذا أشواطاً نسأل الله أن يرهاها بعنايته حتى نبليغ بها الغاية.

\* \* \*

وهناك اتفاق آخر فطن له كثيرون، وعجبوا له العجب كله، وهو افتتاح المعرض في ليلة ذكرى المولد النبوي، في الليلة التي يستعيد فيها المسلمون ذكرى ما قدموا للإنسانية من نظم وحضارة وعدل وسعادة، في الليلة التي ولد في مثلها قبل أربعة عشر قرناً، خير طفل حملته الأرض، وكان له يد ومئة على كل من نعم بسعادة، وشمل برحمة، وتمتع بعدل، واغتبط بعرفان.

افتتح معرض دمشق وسوقها في مساء الليلة التي يقول فيها المسلم والعربي غير المسلم: كان منا هادٍ أفاض الرحمة على الإنسان والحيوان والجماد... فتقابل الناس خيراً، وأيقنوا أنهم لأبد بادئون تاريخهم من جديد، وقد ولد ليلة المولد هذا المعرض، وهو فاتحة مباركة في تاريخ بعثنا الحديث إن شاء الله.

فإننا كما شرعنا نصل حلقات السلسلة التي انقطعت، بجهادنا للحرية والحق، والعدل والنور، افتتحنا ليلتنا هذه بوصل حلقة مجدنا الصناعي والتجاري. وإن الإنسانية لتنتظر على أحر من الجمر، ويفارغ الصبر، الشعب الذي نعمت في ظلاله ليتبوا مكانه من جديد، ويقوم برسالته في هذا العالم الذي ملئ اليوم رذيلة وعسفاً ومادية. وإن انتعاش الشعب العربي انتعاش للخير والإنسانية، ونصرته نصره للعدل والعمران، وما كانت الإنسانية لتنسى الذين كانت على عهدهم حقائق ملموسة فأصبحت اليوم طلاءً ودهاناً، بل الإنسانية اليوم - إذا دققنا في حقيقة أعمال من يدعون حمايتها - شقاء باسم السعادة، وظلم باسم الرحمة، ووحشية باسم الحضارة، ولصوصية باسم الحق، ودناءة وحطة وإماتة ضمير وخذلان خلق وبهمية... باسم التمدين..

\* \* \*

كنت في هذا الجو من الغبطة والذكرى والتأثر، لما عرضت في ذهني حلقات تاريخنا وأين انقطعت كل حلقة ومتى عهدنا بوصلها فكان أول ما جال في خاطري وأنا في معرض دمشق وسوقها: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، وكيف كانت تزخر بالناس من تجار وصناع، وأدباء وشعراء وخطباء، وساسة وأشراف..

عجبت لهذه الذكرى وقد أعاد هذا المعرض لنا أسواقنا - مع مراعاة الفرق بين الزمانين - وذكرت أن المجمع العلمي بدمشق - وكان إذ ذاك اسماً على مسمى - سيقوم بمهرجان للمنتبي في آخر أسبوع من تموز، وقد اختار لهذا المهرجان مكان المعرض وزمانه، لتتم لنا صورة عن أسواق العرب ومحافلهم فيها. فكملت بهذا أداة هذه السوق العربية الكبرى بما سيلقى فيها من أدب وشعر وعلم، وبمن سيؤمها من العلماء والأدباء من المشرق والمغرب: عرباً وأجانب ومستشرقين. وأصبح من كان يتمنى أن ينعم بمراى عكاظ في الجاهلية يستطيع أن يشهد عكاظ العرب في القرن العشرين، فينظر كيف انقلب الزمن وكم قطعت الحضارة بين العكاظين من أشواط.

ولعل القارئ أحسّ مما قدمت مقدار الحاجة إلى بحث يعرض لأسواق العرب وما كانت عليه في الجاهلية والإسلام، وما قامت به من عمل في خير العرب ولغتهم،

ليقف على شأنها في تاريخنا ويستطيع أن يفاضل بين رسالتها قديماً ورسالة المعارض حديثاً. وما زالت هذه الأسواق تفتقد الذروة من اهتمام الأمم مذ كان اليونان وأولمبياهم وأعيادهم. وقد رغب إلي من أَرْضَى رأيه أن أسد هذه الثلمة في المكتبة العربية فعكفت على أمّات المصادر - وهي في موضوعنا هذا جد شحيحة - أنقب فيها وأقليها، لأخلص منها بكل ما يفيدني في بحثي حتى تمت لي مادة هذا الكتاب الذي تنحصر بحوثه بين عهد الجاهلية والقرن الثاني للهجرة. ولعل الله ييسر لي في المستقبل أن أصل هذا البحث عصراً فعصراً في أمصار العرب حتى عصرنا الحاضر.

ومن مارس التقيب في مصادرنا العربية، القديمة منها خاصة، واطلع على ما تزخر به من كنوز مبعثرة هنا وهناك، لا تجمعها جامعة ما، عرف مقدار العنت والنصب اللذين يتعرض لهما الباحث، ولا سيما في موضوع كهذا لم يعالج بعد. وأنا أعفي القارئ من وصف ما لقيت من عناء فما أريد أن أمنّ عليه، وحسبي أن أكون في وجداني قد أبلغت نفسي عذرها.

وقد مهدت للكلام على الأسواق ببحوث رأيتها لازمة، وثيقة العلاقة بموضوعي كبيوع الجاهلية ورباها، وأسهب في الكلام على قریش لأنهم في الحقيقة هم عنوان الفريق التاجر من العرب، وحرصت كل الحرص أن أنقل القارئ إلى جو تلك الأسواق فيراها كما هي.

سيكون في هذه البحوث أدب جم وتاريخ كثير كما فيها صناعة وتجارة، وستعرض فيها عادات العرب في أسواقها ومجالسها الأدبية وبلاغتها النثرية والشعرية، حتى النحو سيكون له بعض النصيب لأن إحدى الأسواق كانت تقصد من أجل مادة يستعين بها النحو في تنظيم قواعده وتبويب فصوله.

وبعض هذه الحوادث والأخبار والأشعار التي سأعرضها - وإن كان مظنة أنه مصنوع - قد اجتهد صانعه أن يقلد فيحسن التقليد ويحاكي الأصل فيحكم الحكاية، فإن شكنا في نسبة الخبر لم نشك أبداً فيما يدل عليه أو يستخلص منه. وذكرت من هذه الأحداث هنات جوزت لنفسني نقلها في هذا الكتاب مع تصريحها بما يحتشم منه، لأنها لا تتم الصورة إلا بها، ولأنني أحرص على أن يتمثل القارئ حالة الأسواق تمثلاً صادقاً صحيحاً كاملاً على قدر الإمكان.

وقد عنيت بشرح ما يشكل من غريب أو معنى مغلق، لأكون قد بلغت جهدي، واستفرغت وسعي في الاجتهاد، لأن يكون هذا العمل أقرب من كمال وأبعد من نقص، وأنا أشكر لمن أطلعني على عيب أو نبهني لإصلاح، فما يزال الإنسان بحاجة إلى من ينبهه ويصلح عمله.

والله المستعان ومنه الرضا والمثوبة.

غرة ربيع الثاني سنة ١٣٥٥هـ/ ٢ حزيران سنة ١٩٣٦م

سعيد الأفغاني



## الباب الأول شؤون العرب التجارية بين الجاهلية والإسلام

### تمهيد

#### تجارة العرب

لبلاد العرب موقع جغرافي متوسط، بين بلاد أعظم الدول وأقدم الحضارات. فإلى شمالها الشرقي بلاد فارس، وإلى شمالها الغربي بلاد الروم ومصر، وإلى غربها الجنوبي وراء البحر بلاد الحبشة، وفي جنوبها البحر الهندي الذي يفصلها عن بلاد الهند.

ولا نكون إلى الغلو إذ قلنا: إن معظم تجارات العالم منذ القديم حتى القرن الوسطى هي بين هذه البلاد التي عدنا. فالدولتان العظيمتان اللتان تنازعتا النفوذ والسيادة في العالم، وهما فارس والروم، كانتا على علاقات تجارية وسياسية مع بلاد العرب في الشمال والجنوب. وقل نحواً من ذلك في علاقة الحبشة والهند مع اليمن وعمان والبحرين، وإن كانت علاقة أضيق حدوداً.

وكان للمواصلات التجارية في جزيرة العرب طريقان؛ أحدهما شرقي يصل عمان بالعراق، وينقل بضائع اليمن والهند وفارس براً ثم يجوز غرب العراق إلى البادية حتى ينتهي به المطاف في أسواق الشام، يمر التجار فيه على أسواق اليمن والعراق وتدمر وسورية ويبيعون في كل قطر ما لا يكون فيه، ويأخذون منه إلى غيره ما يروج فيه. والطريق الثاني وهو الأهم غربي يصل اليمن بالشام مجتازاً بلاد اليمن والحجاز ناقلاً أيضاً بضائع اليمن والحبشة والهند إلى الشام وبضائع الشام إلى اليمن حيث تصدر إلى الحبشة وإلى الهند في البحر.

أ- ((كان العرب يُعرفون لدى الشعوب القديمة بأنهم وسطاء التجارة وحفظة دروبها، جرياً على عادتهم في الحل والترحال وتمرسهم بالمفاوز، وارتياحهم ما فيها من مرعى ومسارب ومناهل وآبار، فوق صبرهم على شظفها ولأوائها، وكانت بلادهم بحكم موقعها الجغرافي حلقة الاتصال بين ممالك العالم القديم. ولقد قال (استرابون): ((إن العربي تاجر بفطرته...)).

ولما أجمعت فارس على شلّ التجارة الرومانية مع الهند والمشرق الأقصى.. كان تهاافتها شديداً على احتلال جنوبي الجزيرة لمنع بضائع المشرق من الوصول إلى أسواق الرومان.

ولقد كان معظم التجارة مع جنوب الجزيرة يمر من الحجاز ومصر على أيدي التجار من أبناء اليمن، وبعبارة أوضح السبئيين الذين كانت بيدهم عروض (حزرموت وظفار) وجميع ما يرد من سلعة إلى صنعاء من الهند، كانوا يؤمون بها

المحطة الكبرى العامة (تيماء) شمالي الحجاز إلى المراكز الشمالية في الطريق العربي، مروراً بـ(سلع) و(بُصرى) و(تدمر) و(دمشق).. الخ<sup>(١)</sup>.

ب- وله بعد ما تقدم رأي لا بأس في الإطلاع عليه، ذكره في ص ٤٩٨ من المصدر السابق: ((أما قريش فكانت في تلك الحلبة التجارية هي المجلية، فقد قبضت على مخنق العرب واحتجنت الأموال، واستأثرت بالمتاجر أو كادت. وإن اسمها في أذني ليوسوس إليّ بأنه تصغير تعظيم لكلمة (القرش) وهو دابة عظيمة تكون في البحر الملح، تخافها دواب البحر كلها لقوتها وبطشها، ولا تزال معروفة حتى اليوم بين العرب وفي الحجاز خاصة باسمها القديم أي (القرش)، ويوجس منها الناس الخوف الشديد... قال الشاعر:

وقريش هي التي تسكن البحـ  
ر بها سميت قريش قريشا  
تأكل الغث والسمين ولا تئـ  
رك فيه لذي جناحين ريشا  
هكذا في البلاد شأن قريش  
يأكلون البلاد أكلاً كميثاً<sup>(١)</sup>

وقد أطمع هذا الموقع الجغرافي لبلاد العرب كثيراً من الفاتحين فغزاها الإسكندر فارتد عنها في غير طائل، وطمع فيها قديماً ملوك الفرس وبابل ونيوى ومصر. والغريب أنها احتفظت بمكانتها هذه حتى العصر الأخير، إذ بسط الإنجليز سلطتهم شرقيّ الجزيرة وغربيها فملكوا ((عدن)) ميناء اليمن الطبيعي<sup>(١)</sup>، حيث ترسو السفن من الحبشة ومن الهند، وملكوا العقبة<sup>(٢)</sup> ((أيلة)) محط رحال القوافل العربية في القديم وأول الثغور الرومانية التي يحلها تجار العرب، ففازت إنجليز بمناطق نفوذ على هذين الخطين التجاريين ضماناً لطريق الهند وتجارتهما.

كان من المعقول أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالاً ونساء، وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من إحدى هاتين الطريقين، ومن لم يتاجر منهم أفاد من التجارة بالواسطة فعمل في هذه القوافل؛ إما دليلاً، وإما سائقاً، وإما منتظماً في جملة حماتها الذين يؤجرون أنفسهم وسلاحهم ودوابهم فيها.

ولم يبعد اسطرابون حين قال: ((العرب تجار وسماسرة)) و((قوم تجارة وبيع وشراء، ولذلك لم يكونوا أمة حرب لا بالبر ولا بالبحر))<sup>(١)</sup>.

وقد شغلت دول العرب القديمة كتدمر وسبأ والمعينيين، المراكز الممتازة في تجارة الشرق حتى ذكرتهم التوراة، ووصفت ثروتهم وتجارتهم. وحمل أهل تدمر في القديم إلى مصر وجنوب أوربة صادرات بلاد العرب والعراق والهند، وكانت النفائس التي يحملها التدمريون من بلاد الشرق أثمن ما يتغالى به الملوك القياصرة.

(١) من بحث للشيخ فؤاد الخطيب باشا في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ص ٤٩٣ من المجلد ١٧ بعنوان صلة الجاهلية بالعالم القديم.

(١) الكميث: السريع. انظر لسان العرب (كمش).

(١) وبه يسمى البحر، فيقال بحر عدن - انظر طبقات الأمم لصاعد: ص ٧١.

(٢) كان ذلك قبل أن يستقل شرق الأردن باسم المملكة الأردنية الهاشمية.

(١) انظر مجلة المجمع العلمي العراقي ٢/٢٦٤.

توسط تدمير بين الدولتين الفارسية والرومانية، بين العراق والشام وجزيرة العرب جعلها محطة القوافل جميعاً بين هذه الأقطار منذ أقدم العصور، فازدهرت تجارتها، وعظم غناها، واشتهرت أسواقها حتى أصبحت ((قبة التجار من الهند والفرس وجزيرة العرب) والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوربة.

وكانت روما التي خضع لنيرها أغلب العالم القديم تهاب قبائل تدمر، وتتودد إليها، وتقدم لها الهدايا، وتوفد إليها الوفود... وعرفت تدمر كيف تستثمر في ظروف كثيرة منافسة الدولة الفارسية والدولة الرومانية لمصلحتها التجارية))<sup>(١)</sup>.

ولما ازدهرت الدولة المعينية في اليمن تعاطى أهلها التجارة وساعدهم عليها امتداد نفوذهم حتى شواطئ البحر المتوسط ومواني خليج العجم.

أما سبأ فليس مكان غناها وتجارها بالمجهول فقد ذكرت التوراة أن ملكة سبأ ((قدمت إلى سليمان (١٢٠) وزنة ذهب وأطيباً كثيرة جداً وحجارة كريمة))<sup>(٢)</sup> وحسبك هذا دليلاً على وفرة مالها وخيراتها. والسبئيون قديماً أغنى العرب ثروة وأوسعهم تجارة، يحملون ما يأتيهم من بضائع الحبشة والهند إلى مصر والشام والعراق فبسطوا بذلك نفوذهم التجاري واستأثروا بالتجارة بين تلك الأقطار المذكورة.

جاء في تاريخ العرب الأدبي! (نيكلسون)<sup>(١)</sup>:

((قال مولر: قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه بين مواني بلاد العرب الشرقية والهند، محملة بالبضائع وكانت منتجاته الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة (كالقردة والطاويس) تنقل إلى ساحل عمان، ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم دراية بالخليج الفارسي حيث كانوا ييمون شطر مصر يبيعون فراعتها وأمرأها بضائعهم، وقد كانت صعوبة الملاحة في البحر الأحمر سبباً في تفضيل الطريق البري للتجارة بين اليمن وسورية، وكانت القوافل تقوم من (شبوت) في حضر موت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ، ثم تتجه شمالاً إلى مكربة (مكة فيما بعد) وتظل في طريقها من بترا حتى غزة المظلة على البحر الأبيض المتوسط، عبر البحر على طول شواطئ حضر موت وخلال مضيق باب المندب. وكانت نتيجة هذا التغيير - الذي يظهر أنه حدث في القرن الأول للميلاد - أن أخذت قوتهم تتضعض شيئاً فشيئاً)).

وحل محل هؤلاء، الحميريون الذين جعلوا عرب الحجاز تحت سيطرتهم فاستخدموهم في نقل تجارتهم إلى أن تخلص الحجازيون منهم وصاروا هم نقلة التجارة في الجزيرة قبيل البعثة.

قام اليمنيون في القديم إذن بنقل المتاجر بين بلاد العرب والبلاد المجاورة، وظل ذلك دأبهم على اختلاف دولهم في الأزمان التي تقدمت القرن السادس الميلادي، فاستأثروا بتجارة الجزيرة مع غيرها من الممالك، يحملون التمر والزبيب والأدم والبخور والحجارة الكريمة والمنسوجات من مواطنها، ثم يستبدلون بها بضائع

(١) انظر تاريخ اللغات السامية، لإسرائيل ولفنسون ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) انظر سفر الملوك الأول من العهد القديم: الإصحاح العاشر.

(٣) ترجمة حسن حبشي في العدد ١٧٥، من مجلة الرسالة.

أخرى، مع ما يصنعون هم أنفسهم من الأطياب والعطور التي يتخذونها في بلادهم ويبيعونها في أسواق العالم القديم: آسية وإفريقية وأوربة، فكانوا حيناً غير قصير مشرفين على تجارة العالم كله.

وقد نشأت مع الزمن وسط هذه الطريق التي كثيراً ما سلكوها قبل الميلاد، محطتان تجاريتان عظيمتان هما مكة والمدينة<sup>(١)</sup>. وعظم أمرهما وصار أهلها يشاركون في الاتجار قبائل اليمن. فلما كان القرن السادس انتقلت التجارة من أيدي اليمنيين بالتدريج، إلى قريش القبيلة المكية التي ارتفع أمرها، وقويت ونشطت، وبدأت تحل محل الأولين في الاستئثار بتجارة جزيرة العرب، ولاسيما عند اضطراب الأمن، وتعذر المرور على الأحباش والأنباط، وكان وقوع الحروب والأزمات والمنافسات بين فارس والروم من أعظم العوامل في نشأة التجارة المكية وازدهارها، إلا ما كان من تجارة فارس، فإنها بقيت في أيدي عرب الحيرة وهم يمانون.

كانت أقطار العرب غير متساوية في الخصائص والمرافق، فبيننا نجد نجدأ أرضاً قاحلة رملية لا زراعة لأهلها، نجد في اليمن مزارع خصيبة تفيض بالخير الواسع. ونجد بعض مدن الحجاز كمكة تشبه نجدأ في جذبها، وبعضاً آخر فيه مزارع ونخيل كالمدينة والطائف، وإن لم تكونا بدرجة اليمن، قال الألويسي: ((وأما أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجاراتهم كثيرة ومعاشهم وافرة، لما في بلادهم من الخصب والرخاء والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة وغير ذلك من أسباب الثروة والغنى، وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم في الثروة والتجارة لما أن الغالب على أرضهم الرمال، فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب في رفاهية العيش ورواج التجارة. ((على أن لطىئ ومنازلها أواسط نجد شهرة في الاتجار شمالي جزيرة العرب هذا عدا أخلاطاً من أم شتى تتسرب تجارهم إلى الجزيرة، وأكثر هؤلاء هم الأنباط فقد بقوا حتى بعد ظهور الإسلام يجلبون الزيت من الشام إلى المدينة.

ولابد لنا من التنبيه على حدة: إلى العنصرين التجاريين اللذين عملا في بلاد العرب؛ وهما الأنباط واليهود، فقد كان الأولون يختلفون بين بلاد الشام والحجاز والعراق في الجاهلية. وكان أكثر ما يحملون من بضائع على ما علمت الزيت والدرمك ((دقيق الحواري))<sup>(١)</sup>، يحملونها من الشام إلى الحجاز وإلى العراق ويرجعون من هذين القطرين بالأدم والتمر وغيرهما من الحاصلات، فكانوا يشاركون القوافل العربية في تجاراتها، ويقومون لأنفسهم أسواقاً في البلاد العربية ذاتها؛ فابن سعد يذكر أن هاشماً في بعض أسفاره إلى المدينة ((نزل بسوق النبط فصادف سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها))<sup>(٢)</sup>، ولما كانت الفتوحات والغزوات قام الأنباط التجار بمهمة نقل الأخبار بين الشام والحجاز<sup>(٣)</sup>.

(١) وقبل هذا الزمن ازدهرت تيماء وأيلة (العقبة) وبلغ شمالي الحجاز، فكانت محط القوافل الكبرى ومراكز ممتازة للتجارات وبيوت المال، منها يتسوق العالم الروماني واليوناني معظم ما يحتاج إليه.

(٢) الحواري: لباب الدقيق وكل ما حور أي بيض من طعام.

(٣) طبقات ابن سعد ٤٥/١، وانظر شرح المواهب ٢٣/٣.

(٤) ومن هؤلاء الأنباط التجار علم الرسول بتجمع الروم على الحدود، فاخذ أهبطه وأخفى جهته في الغزوة المشهورة غزوة تبوك - انظر شرح الزرقاني للمواهب ٦٣/٣.

وأما اليهود، فقد ((كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد؛ كأبي رافع الخيبري الذي أرسل بضاعته بوساطة القوافل إلى الشام، واستورد منها الأقمشة المختلفة. ويمكن أن يقول: إن تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال الحجاز))<sup>(١)</sup>.

لكن شأن اليهود فاق شأن الأنباط لاستيطانهم في جزيرة العرب، فاستفحل أمرهم، وزاحموا السكان الأصليين على مرافقهم وكانت لهم خبرة في الزراعة والتجارة وتنمية المال فاستغنوا وبنوا لأنفسهم القرى والمزارع والحصون، وأشهر مراكزهم العامة في المدينة وخبير.

ومما تجدر ملاحظته أنهم بعد أن شاركهم في مغانمهم التجارية أهل يثرب وخاف اليهود هذه المزاحمة وكانوا عاجزين عن التغلب على اليبثريين قوة وعنوة، لجؤوا إلى الإيقاع بين الحيين الأوس والخزرج، فلما وقعت العداوة واتصلت الحروب جعل اليهود يضرمون نارها كلما خمدت، فشغلوا بعضاً ببعض، وانصرفوا هم إلى تجاراتهم وإنماء ثرواتهم. فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وأسلم أهلها، بغى اليهود الغوائل لهم وصاروا يحرضون عليهم المشركين من قبائل العرب وينقضون عهودهم للنبي، ويطعنون المسلمين من خلفهم، إزاء ذلك رأى النبي ضرورة التخلص منهم فأجلى بني قينقاع ثم بني النضير فحطوا بأذرعات من أرض الشام، ثم تخلص من بني قريظة<sup>(١)</sup> أيضاً، فخلت المدينة وما حولها من جماعاتهم، وتحولت تجاراتها إلى أيدي أهلها من العرب.

لا بدع في أن تكون التجارة من أول أسباب المعاش للحجازيين، فعكفوا عليها، وتمادحوا بكسب المال، وأخذوا يضربون في الأرض يبتغون الرزق من هذه المهنة، فعرفوا قبل الإسلام بكثير، كثيراً من مدن الشام كبصرى وغزة وأيلة والمشارف، ومدن العراق واليمن وحتى مصر فقد روي أن نبرأ من بني مالك أجمعوا على الوفود إلى المقوقس وأهدوا له هدايا<sup>(١)</sup>، وذكروا أن ابن جدعان أتى مصر ببضاعة فباعها ورجع إلى عكاظ.

ولم يحاول انتزاع تجارتهم هذه منهم أحد، إلا ما ذكروا من أمر الحبشة التي أرادت الاستيلاء على مكة نفسها، المركز التجاري العظيم في جزيرة العرب. وقدّر بعضهم ما يشتريه العالم الروماني من طيوب بلاد العرب والفرس والصين بقيمة مئة مليون من الدراهم.. وكانت صيدون (صيدا) من أشهر الأسواق العطرية<sup>(٢)</sup>.

((ووصل المكيون قبيل الإسلام - عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه - إلى درجة عظيمة في التجارة، وكان على تجارة مكة اعتماد الروم في كثير من شؤونهم، حتى فيما يترفهون به - كالحريز - وحتى استظهر بعض مؤرخي الإفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٨.

(٢) انظر أسباب جلاء هذه القبائل اليهودية في كتب السيرة النبوية.

(٣) طبقات ابن سعد.

(٤) مجلة المشرق (السنة ٣٥ ص ٣٢٤).

والتجسس على أحوال العرب، كذلك كان فيها أحابيش ينظرون في مصالح قومهم (التجارية)<sup>(٣)</sup>.

واشتهر كل قطر بما يصنع أو يصدر من متاع، فالسيوف والبرود لليمن قال الأصمعي: ((أربعة قد ملأت الدنيا ولا تكون إلا في اليمن: الورد والكندر والخطر<sup>(١)</sup> والعقيق)) وقالوا ((برود اليمن وربط الشام وأردية مصر))<sup>(٢)</sup>.

ولعل ما ذكر الثعالبي من غنى الحجاز في الإسلام، صحيح إلى حد بعيد فيما كان عليه من قبل، قال<sup>(٣)</sup>: ((وكان يحمل من مكة والمدينة والحجاز كل عام إلى السلطان من العنبر<sup>(٤)</sup> ثمانون رطلاً، ومن المتاع أربعة آلاف ثوب، ومن الزبيب ثلاث مئة راحلة)) وكان من أعجب ما يأتي النجاشي من مكة الأدم<sup>(٥)</sup>.

ويذكر آخرون أن مكة أصبحت أكبر سوق للرقيق<sup>(١)</sup>:

هذا وهناك أيضاً بلدان اختصت بضرب من العروض أو الصناعة، فتقصد لما عرفت به كالتائف، فإنه يحمل إليها الأدم فيدبغ فيها، قال الهمداني: ((التائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدباغ، يدبغ بها الألب الطائفية المعروكة))<sup>(٢)</sup>. ثم يصدر عنها إلى الحبشة وغيرها، وكهجر والبحرين حيث التمر الجيد المنقطع النظير، وكالشام ومشارفها حيث يحمل الزيت والزبيب والخمر وغيرها.

ومما ضمن استمرار الحركة التجارية الداخلية والخارجية في جزيرة العرب، اختلاف أقطارها هذا الاختلاف في المحصول الصادر والوارد وما أحسن قول الهمداني في ذلك:

(٣) فجر الإسلام ص ١٥.

(١) الكندر: ضرب من العلك نافع لقطع البلغم جداً (القاموس) أما الخطر فنبات يختضب به.

(٢) ثمار القلوب ص ٤٢٤، هذا وقد يجد الباحث في مطاوي الأخبار كثيراً من الإشارات العارضة لصنوف البضائع والحاصلات التي عرف بها كل قطر من مثل قول ابن عساكر في ترجمة طلحة: ((روى ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما ارتحل إلى المدينة لقيه طلحة جاثياً في الشام في غير، فكسا رسول الله وأبا بكر من ثياب الشام، وخبره أن من بالمدينة من المسلمين استبطؤوه)).. إلخ، تهذيب ابن عساكر ٧٣/٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢٦.

(٤) مدح الأعشى سلامة ذافائش فأعطاه كرشاً مدبوغة مملوءة عنبراً، فباعها الأعشى بثلاث مئة ناقة حمراء، الأغاني ١٢٥/٩ طبعة دار الكتب.

(٥) سيرة ابن هشام ٣٠٣/١.

(١) مجلة المشرق: السنة ٣٥ ص ٨٣ فما بعد.

ذكر الشيخ فؤاد الخطيب في بحثه (صلة العرب في الجاهلية بالعالم القديم أنواع متاجر العرب قال: ((.. وأما أنواع تلك المتاجر فهي:

من الهند: الدر، والياقوت والمسك والكافور، والعود الرطب وأنواع العطر والفلل.

ومن الصين: الحرير والقصب، ومن اليمن نفسها: الذهب من معدن (عشم)، والجزع والعقيق من مخاليف اليمن الشرقية، ومن الشجر: النارجيل و...

ومن الأنحاء الأخرى: العبيد والبهار والأنسجة الفاخرة والوشى والنمارق والنعاج والعسل والصوف والحن والبورق والفجم والحنطة والحجارة الكريمة.. ويتاجرون بالخرفان والكباش والأعتدة وأقصر أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب.

وصفوة القول أن العرب يتاجرون مع سورية بالأرجوان والوشى والكتان والمرجان والياقوت، ومع فلسطين بالحنطة والحلاوة والزيت والعسل والبيلسان، ومع دمشق بالصوف الأبيض والخمر.

أما تجارة البدو الرانجة عند ذوي اليسار منهم فكانت فيما تنقروا إليه معاشهم كالوبر للبداد، والصوف للخباء، والشعر للفسطاط، والقطن للسرداق، والأديم للطرف، قال طرفة:

رأيت غبراء لا ينكرونني  
ولا أهل ذياك الطرف الممدد

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٧/٥٠٠.

(٢) الإكليل ٨/١٢٠.

((ولولا أن الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان، وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منعه غيرهم، لبطلت التجارات وذهبت الصناعات، ولما تغرب أحد ولا سافر رجل، ولتركوا التهادي، وذهب الشراء والبيع والأخذ والعطاء، إلا أن الله أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات ومنع الآخرين، ليسافر هذا إلى بلد هذا ويستمتع قوم بأمته قوم، ليعتدل القوم وينتظم التدبير. قال الله عز وجل: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا} [الزخرف: ٣٢/٤٣]، وقال الله تعالى: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} [فصلت: ١٠/٤١] أ.هـ<sup>(١)</sup>

\* \* \*

مما يجب أن يقف عليه النظر والتأمل إشارات عارضة في صدد جدل القرآن الكريم لمشركي مكة، فإن المتأمل ليجد فيها دلالات بعيدة على عظم ما شغلت أمور التجارة من أفكارهم وخواطرهم، وذلك عند مثل قول الله: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٨/٧]<sup>(٢)</sup>. فالمفسرون يذكرون في سبب نزول الآية أن المشركين قالوا: ((لم لا يوحى إليه ربه أثمان السلع فنشترها حين ترخص ونبيعها حين تغلو فتزداد أموالنا))..

هذا ولم يخفف الإسلام كثيراً من شغف العرب بالتجارة<sup>(١)</sup> فقد استمروا فيه على ما كانوا عليه في الجاهلية، وإذا استثنينا فترة الفتوح التي شغلتهم كانت أحداثهم التجارية في الإسلام امتداداً لأحداثهم في الجاهلية مع مراعاة الظروف التي تغيرت كل التغير وشغل القرشيون بالجهاد فكان منهم عمال، ومنهم قواد، ومنهم قضاة إلخ.. وخير ما يدلنا على بقاء ولوع القوم بالتجارة أية الجمعة:

كان المسلمون يجهزون العير إلى الشام - كما في الجاهلية - فتذهب بأموالهم ومتاعهم فنباع هناك ثم تحمل إلى الحجاز فتأتي المدينة، وكانوا يستقبلونها بالطبل والتصفيق فرحاً بها، فذكر المفسرون أن دحية بن خليفة الكلبي رجع مرة بتجارة زيت وطعام من الشام، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة على منبر مسجد المدينة، فاستقبلها الناس كعادتهم بالفرح والطبول والتصفيق، وخشي المصلون أن يسبقوا إلى العير فيفوتهم الربح، فتركوا الرسول يخطب، وبادروا إليها في البقيع، ولم يبق مع الرسول إلا اثنا عشر رجلاً فأنزل الله تعالى في ذلك:

{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [الجمعة: ١١/٦٢].

وفي القرآن الكريم إشارة إلى فاصل تاريخي في حياة مكة التجارية، وذلك حين نزل قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ

(١) كتاب البلدان (ليدين) ص ٢٥١.

(٢) انظر الكلام عليها في: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي وتفسير الخازن وغيرهما.

(٣) جاء في الفائق للزمخشري: ((قال فيس بن أبي غرزة: كنا نسمى السماسرة على عهد رسول الله ﷺ فأتانا ونحن بالبقيع، فسمانا باسم هو أحسن فقال: ((يا معشر التجار)) فاستمعنا إليه قال: ((إن هذا البيع يحضره الحلف والكذب فشرّبوه بالصدقة)) ١ هـ.

فلعل (السماسرة) كانت تطلق على صنف من مزاولي بعض أعمال التجارة الصغيرة كما تطلق لعهدنا هذا، ولكن الرسول كان من خلقه أن يخاطب الناس بما يحبون.

الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٢٨/٩].

فلما حرم دخول مكة على المشركين سنة تسع للهجرة خشي الناس الفقر بسبب انقطاع تجارة المشركين عنهم في المواسم، فوعدهم الله بغنى عن غير طريق التجارة، فكان العوض - على ما ذكر المفسرون في المغانم والفتوح العاجلة.

كان لا بد من أن تدخل أحوال العرب التجارية في طور جديد، فاهتم الإسلام بأمر تجارتها، وشرع لهم فيها ما يحتاجون إليه، وطفح الحديث الشريف بأحكام البيع والشراء والاحتكار والديون والربا إلخ.. وعني الخلفاء بعد الرسول عناية خاصة بالتجارة بعد أن هدأت مشاغل الفتوح أيام أبي بكر وعمر وعثمان، ولنالاحظ أن فترة الفتوح نفسها لم تكن لتخلو من الاتجار حتى من عمال الخليفة أنفسهم، وهذا خير ما يفسر لنا حرص القوم على حرفتهم، واشتد عمر على عماله فلم يقبل منهم الاشتغال بالتجارة أبداً، وصار يؤاخذ كل من فشا لهم غنى في قومهم، فيدقق عليهم فإن اعتدروا بتجارة تجروها فربحوا منها صادرهم ولم يلق لعذرهم بالأى، وكما يقول لهم: بعثتكم عمالاً ولم أبعثكم تجاراً.

ومن حسن الاتفاق أن الخلفاء الثلاثة الأولين كانوا تجاراً، فأبو بكر وعثمان كانا بزازين، وعمر تجر في الجاهلية واستغنى في غزة، وكان مبرطشاً [بكري للناس الإبل والحمير يأخذ عليه جعلاً]<sup>(١)</sup> أما علي فلم نعرف أنه تجر، وقد ظهر الإسلام وهو صبي ومع هذا فقد كان على علم من التجارة وأحوالها، لأنها مهنة قومه جميعاً، ولما ولي الخلافة لم يكن يجهل خطر التجارة وقيمتها. ومن الطريف حقاً أن ننقل بهذه المناسبة مرسوماً أصدره إلى عامله الأشتر في التجار والصناع، فإنه يدل على إحاطته بأسرار التجار وأخلاقهم، ويعلمنا من جهة ثانية منزلة هذه الطبقة بين بقية الطبقات، وما كان يعلق عليها من مهام، قال من كلام له للأشتر:

((ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها. فإنهم سلّم لا تخاف بانفته، وصلاح لا تخشى غائلته. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك، وأعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاية، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرةً بعد نهيك إياه فنكّل به وعاقبه من غير إسراف))<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

ولنا أن نستأنس بشيء آخر له خطرته في الدلالة على ما شغلت التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم، وذلك هو اللغة والأشعار والأمثال، فإنها تكشف لنا إلى حد بعيد ما كان عليه القوم من عادات وأحوال: وأول ما نلاحظ في هذا الباب غنى

(١) انظر مادة برطش في (تاج العروس).  
(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٣٩/٤.



اللغة بالألفاظ التي تتعلق بالأسفار وما إليها من حظ وترحال ونزول على الماء، ووصف لدواب السفر وضروب سيرها، ولسنا مبالغين إذا قلنا: إن أكثر القصائد في الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء والضيق والعطش والجوع، عدا ما هناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة الرابحة والخاسرة. ولما كانت الخلافة، لم يجد العرب لفظاً يدلون به على بذل الطاعة للخليفة غير المبايعة<sup>(١)</sup> فاشتقوا لهذه الحال المستجدة كلمة من كلمات التجارة التي كانت الشغل الشاغل لهم. ونظرة واحدة إلى مادة ((باع)) مثلاً في اللسان أو التاج توضح لنا المواضع التي استعيرت لهذه الكلمة لتشبه أحوالاً مختلفة بحال من حالات البيع والشراء فقالوا مثلاً:

((بايعه بالخلافة، وأخذ منه البيعة، وباعه من السلطان إذا سعى به إليه)).. إلخ.

وكذلك إذا نظرنا إلى ماديت ((سام)) و((سوق)) وأمثال قولهم: نفقت السوق إذا راحت، واتحمقت إذا كسدت. وبعته ناجزاً بناجز ويداً بيد عدا ألفاظ أخرى سيمر بعضها بك حين الكلام على بيوع الجاهلية.

وهذا القالي قد عقد في أمياله فضلاً في ((ما يقال في وصف الرجل لا يملك شيئاً))<sup>(١)</sup> من مثل قولهم: ماله سبَدُض ولا لَبْد، ومطلباً آخر فيما يقال ((لمن يصلح المال على يديه))<sup>(١)</sup> كقولهم: هو ترعية مال، محجن مال.. إلخ. وقرأ إن شئت الفصل الذي كتبه في (دعاء العرب)<sup>(٢)</sup> فستجد جملاً كثيرة في حرمان من يدعون عليه من ضروب المال.

أما الأمثال التي تتعلق بأموالهم التجارية وأحوالهم فيها فكثيرة، وإليك طائفة منها تمثل لنا شيئاً من تجاربهم، وأحوالهم في أسفارهم:

عند الصباح يحمد القوم السرى - لا تدرك الراحة إلا بالتعب - قتل أرضاً عالمها  
وقتل أرض جاهلها - أن ترد المال بماء أكيس - لا يرحل رحلك من ليس معك - إن يدم أظلك فقد نقب<sup>(٣)</sup> خُفي - إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى<sup>(٤)</sup>.. إلخ.

وأكثر من هذا ما أرسلوه في المال نفسه، وفي السعي للرزق، وفي الربح والخسارة والبيع والشراء، فإنهم يستعبرون ألفاظها لكثير من أحوالهم كما في هذه الأمثلة:

الحمد مغنم والذم مغرم - خير مالك ما نفعك - لم يضع من مالك ما وعظك - خير المال عين ساهرة لعين نائمة، من العجز نُتجت الفاقة - كلب طواف خير من أسد

(١) اتباعاً للقرآن الكريم حين عبر بهذه الكلمة التجارية عن معاهدة الصحابة رسول الله يوم الحديبية على الثبات وعدم الفرار بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح: ١٠/٤٨] وسميت البيعة ببيعة الرضوان، وهناك أيضاً ببيعة النساء: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبِيحَةٍ} [الممتحنة: ١٢/٦٠].

(١) ٩٠/١

(١) ٣٢٢/١

(٢) أمالي القالي - النوادر ص ٥٥، ٧٥.

(٣) الأطل: ما تحت منسم البعير، وأخفاقه قوائمه، والمعنى: أشكو من مثل ما تشكو.

(٤) الذي يجد في سيره حتى ينقطع أخيراً عن أصحابه في السفر، الظهر: الدابة.

رابط - حظ جزيل بين شذقي ضيغم. افتح صدرك تعلم عُجرك<sup>(١)</sup> - لا ترسل الساق  
إلا ممسكاً ساقاً - كمستبضع التمر إلى هجر - ما عنده خير ولا مير - سواء هو  
والعدم - البضاعة تيسر الحاجة ومن اشترى فقد اشتوى - إن الجواد عينه فراره -  
أعطاه اللقاء غير الوفاء - أحشفاً وسوء كيلة - أخسر صفقة من شيخ مهو<sup>(٢)</sup> - صفقة  
لم يشهدها حاطب إلخ<sup>(٣)</sup>.

أما الحث على السفر في طلب المال فقد استفاض في أشعارهم جاهليين  
وإسلاميين، ولست بحاجة إلى أن أشير إلى ما قالوا في فوائد المال من حكم، وما  
يصون المال من حسب، ويجلب من هيبة فأمره معروف، وما أكثر ما قالوا في هذا  
الموضوع من مثل قول عروة ابن الورد:

ذريني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير  
وقوله:

دعيني أطوف في البلاد لعلمي أفيد غنى في لذي الحق محمل  
وقول الآخرين:

سأعمل نص العيس حتى يكفني غنى المال يوماً أو غنى الحدثنان  
سأكسب مالاً أو أموت ببلدة يقل بها قطر الدموع على قبري  
ومن يك مثلي ذا عيال ومقترأ من المال يطرح نفسه كل مطرح  
فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذر  
إلخ.

ويذكر المشتغلون باللغات القديمة السامية وغيرها قضية الكلمات الأجنبية الأصل  
في اللغة العربية، وقد أدام بحثهم إلى أن اللغة الفارسية والحبشية والآرامية ((كانت  
لغات العلائق التجارية أيضاً فإن تجار مكة مثلاً كانوا يتجرون مع الآراميين في  
دمشق، ومع الفرس في الحيرة والمدائن، ومع سبأ وحمير في اليمن، وقوافل هذه  
الأقوام كانت تحتاز جزيرة العرب من جهة إلى أخرى))<sup>(١)</sup> ويعدد هؤلاء الباحثون  
هذه الكلمات فإذا في أولها كلمات تجارية وهي أسماء البضائع التي يجلبها التجار من  
بلاد الفرس من مثل: ((الصنج والصولجان والفيل والجاموس والمسك وخصوصاً  
أنواع النسائج كالديباج والإستبرق والإبريسم والطيلسان.. إلخ))<sup>(٢)</sup>.

ولا ريب في أن اختلاط القوافل والتجار العرب منذ الزمن الأقدم بعرب الشام  
وغيرهم سرب إلى اللغة العربية كثيراً من الكلمات اليونانية التجارية والحضارية،

(١) العجوة: العقدة وشبهها، والعُجْر: العيوب.

(٢) هو من عبد القيس اشترى عار الفسو من إيادي (وكانت إياد تعير به) ببردين فضرب بصفقته المثل، وسيأتيك  
خبرها في أحداث عكاظ.

(٣) حاطب بن أبي بلتعة كان حازماً فطناً في أمور البيع؛ فباع بعض أهله في غيبته بيعة عُين فيها، فضرب هذا المثل  
لكل أمر يُبرم دون حضور ماهر فيه - أنظر مجمع الأمثال للميداني ٢٦٦/١.

(١) ص ١٤٢ من سلسلة محاضرات (اللتطور النحوي للغة العربية) ألقاها سنة ١٩٢٩ بالجامعة المصرية الأستاذ  
(برجستراسر) أستاذ اللغات السامية بجامعة ميونخ بألمانية.

(١) المصدر السابق ص ١٤٣.

حتى أتى عهد الجاهلية وكانت هذه الكلمات قد تعربت وصقلها الاستعمال الطويل، وقد عد أحد الباحثين عشرات منها لا يظن لأول نظرة عجمتها مثل:

إقليد (مفتاح) وإقليم وإكسير وبرج وبيطار ويوص (حريز أبيض) وترف وجزية ودرهم ودكان ودمقس وزبرجد وزنار وسرق (شقة حريز) وسفود وسفين وسندس وسير (قدة جلد) وسيمياء وطاووس وفرصة وفص وفندق وقارب وقالب وقربوس وقرنفل وقصدير وقلس (حبل السفينة) وقمم وقميص وقنب وقنينة وكركي وكوب وكورة وكيس ولص ومرجان ومصطبة ومنجنيق ومنديل ونافورة وناموس ونقرس ونوتي وياقوت ويانسون (آسون)<sup>(١)</sup>.

بل مالنا لا نعد إلى القرآن الكريم نفسه، وفيه على ذلك أوضح الأدلة: يقرب لهم المعاني بما تفيض به حياتهم ويضرب لهم الأمثال على الضلالة والهدى والمؤمنين والكافرين من التجارة نفسها، فهو يقول في المؤمنين المطيعين الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة: إنهم {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ} [فاطر: ٢٩/٣٥] ويشبه الذين شغلهم الضلالة عن الهدى بالخاسر في تجارته فيقول:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتُ تِجَارَتُهُمْ} [البقرة: ١٦/٢]،  
{أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ} [البقرة: ٨٦/٢]، {بئس ما استرأوا به  
أنفسهم} [البقرة: ٩٠/٢].

ومدح آخرين سعوا في مرضاة الله فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ  
مَرْضَاةِ اللَّهِ} [البقرة: ٢٠٧/٢]، وقال: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ  
وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي  
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ  
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١/٩].

ولأن التجارة والبيع أهم ما يشغل العرب لم يذكر الله غيرهما من المشاغل حين  
أثنى على أناس لا يغفلون عن ذكره فقال: {رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ  
اللَّهِ} [النور: ٣٧/٢٤].

وقال في تأنيب الذين اشتغلوا بالتجارة عن الصلاة: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا  
انْفَضُّوا إِلَيْهَا} [الجمعة: ١١/٦٢].

ولما أراد تشويق قوم إلى الإيمان قال:

{هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الصف:  
١١-١٠/٦١].

وكثيراً ما تتكرر كلمات التجارة والربح والخسران في القرآن.

وأحسب أن هذا القدر كاف في بيان الحيز الذي شغلته التجارة من حياة العرب في  
جاهليتهم وإسلامهم حتى أن صعصعة بن صوحان لم يذكر للعرب من الحرف  
غيرها. جاء في أمالي القالي: ((قال معاوية لصعصعة بن صوحان: صف لي الناس،  
فقال: خلق الناس أخيفاً؛ فطائفة للعبادة، وطائفة للتجارة، وطائفة خطباء، وطائفة

(١) سرد هذه الكلمات بهذا الترتيب المعجمي بندلي جوزي، انظر بحثه بعنوان (بعض اصطلاحات يونانية في اللغة العربية) في مجلة مجمع اللغة العربية ٣٣٠/٣.

للباس والنجدة، ورجرجة بين ذلك يكدرون الماء ويغلون السعر ويضيقون الطريق<sup>(١)</sup>.

ولعلك تتساءل بعد هذا قائلاً: إن التجارة تستلزم إماماً بقيود وحسابات والعرب أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب فكيف كان ذلك؟ والجواب أن هذا الحكم على العرب حكم على مجموعهم لا على جميعهم<sup>(٢)</sup>:

فمنهم من كان يقرأ ويكتب ويحسب، وقد تعلم القرشيون الكتابة منذ القديم في الحيرة والأنبار، وكذلك فعل أهل الطائف. وسترى في أحداث عكاظ أن عمر بن الشريد دعا فيها بصحيفة وكتب وسجل على نفسه صكاً أشبه بسند التملك (طابو) الذين نألفه اليوم. كان هناك إذن صحف وكتاب وصكوك عند العرب وعند اليهود: بل إنا لنجد في آيات سورة البقرة الأخيرة ما يجعلنا نذهب إلى معرفة العرب بتقيد المعاملات التجارية، وليس من المعقول أن يخاطبهم الله بشيء لا يألفونه من الإملاء والكتابة بالعدل وإشهاد الشهود في قوله:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ} [البقرة: ٢/٢٨٢] إلخ.

### محطات التجار بين الحجاز والشام

ولما نزلت آية الاستئذان ذكروا المواطن التي كانوا يضطرون إلى دخولها في أسفارهم، وهي غير مسكونة، بادر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: ((يا رسول الله، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام، ولهم بيوت معلومة على الطريق، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان؟)) فنزلت الآية:

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [النور: ٢٤/٢٩]<sup>(١)</sup>.

وفوق هذا كله كان لهؤلاء العرب ذوي الملكة التجارية الراقية اهتمام بما حولهم من الأقطار التي يتاجرون فيها، ومراقبة لما يجري هناك من أحداث، دفعهم إلى ذلك

(١) ٢٥٧/١ والأخفاف الأخطاط، والرجرجة شرار الناس ورذالتهم.  
(٢) ومع هذا فقد كان العرب وتجارهم خاصة نقلة ثقافة تاريخية سياسية، جاء في طبقات الأمم لصاعد (ص ٦٩): قال أبو محمد الهمداني: ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم، وذلك أن من سكن بمكة من العمالق وجرهم وآل السميدع بن هونة وخزاعة أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب. وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس، وكذلك من سكن الحيرة وجاوروا الأعاجم من عهد أسعد أبي كرب وبختنصر حووا على الأعاجم وأخبارهم وأيام حمير ومسيرها في البلاد، وعندهم صار أكثر ما رواه عبيد بن شريه ومحمد بن السائب الكلبي والهيثم ابن عدي، وكذلك من وقع بالشام من مشايخ غسان خبير بأخبار الروم وبني إسرائيل واليونانيين، ومن وقع بالبحرين من تنوخ وإياد فعنه أنت أخبار طسم وجديس، ومن وقع من ولد نصر من الأردن يعمن فعنه أنت كثير من أخبار السند والهند وشيء من أخبار فارس. ومن وقع بجبلي طيبي فعنه أنت أخبار آل أدينة والجرامقة، ومن سكن باليمن فإنه علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان في دار مملكة حمير، وفي ظل الملوك السيادة إلى الشرق والغرب والجنوب والشمال. ولم يكن ملك منهم يغزو إلا عرف البلاد وأهلها)) أهـ.

وإذا تجاوزت عن جانب المبالغة في هذا الكلام بقي لك أن العرب لم تقتصر فاندتهم في ترحالهم على الاتجار، بل كانوا يستفيدون من رقي أهل الحضارات المجاورة ويحملون عنهم آثاراً من تقدمهم وثقافتهم.  
(١) كتاب لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي..

طبيعة التجارة وما تتطلب من درس وإلمام بالأسواق وأمنها وأحوال المسيطرين على شعوبها، وأنت تعرف ذلك من الحرب التي كانت بين الفرس والروم في مشارف الشام قبل الهجرة بست سنين، وكيف كان مشركو مكة فرحين بانتصار الفرس إذ كانوا مثلهم غير ذوي كتاب، وقد شتموا بهزيمة الروم إذ كانوا كالمسلمين أتباع كتاب سماوي، وقد سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة، ظاهرة اهتمام المكيين بما يجري حولهم من شؤون الفرس والروم في الآية الكريمة أول سورة الروم:

{ غَلَبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَعْلُونَ، فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } [الروم: ٣٠/٥-٥].

وأدنى الأرض: بصرى وأذرعات وهما سوقان من أسواق العرب.

والتجار منذ القديم نقلة ثقافة من حيث لا يشعرون<sup>(١)</sup> فيجب أن يحسب حسابهم فيما يكون بين الشعوب من تمازج وتفاعل، وليس العرب ببدع بين الشعوب، فقد أفادوا من اتجارهم واختلاطهم بالرومان والفرس وخضعوا لما يخضع له غيرهم من آثار الاختلاط وكثرة العلائق حتى إنا لنرى أسماء رومانية<sup>(٢)</sup> وفارسية تخللت لغتهم.

ولنا أن نعد انتشار النصرانية في الشام والمجوسية في العراق واليمن أثراً من آثار التجارة، فقد ذكروا أن ((تنصر العباد بالحيرة لكثرة ترددهم إلى بلاد الروم للتجارة))<sup>(٣)</sup>.

وستعلم بعد قليل أن العرب، وقريشاً خاصة، أحسنوا العلائق مع دولتي فارس والروم إذ كانت تجاراتهم إلى بلاد تحت سيطرة هاتين الدولتين أو نفوذهما، فالشام ومصر ولايتان رومانيتان، والحبشة على علائق خاصة بالرومان، والعراق واليمن تحت سيطرة الفرس، والعرب تتاجر صيفاً إلى مصر والشام والعراق وشتاء إلى اليمن والحبشة.

هذا مجمل ما أردت أن أعرض له من بيان اهتمام العرب في التجارة ولم أقصد إلى شيء من التطويل، لأن الكتاب ليس في تاريخ تجارة العرب، وإنما هو في أسواقها، والتجارة أهدأ من ضيع الأسواق، وحسبها هذه الإمامة الموجزة نمهد بها قبل الشروع في الموضوع لنتم لنا الصورة التي نريد أن يتمثلها القارئ مستوفاة من غير نقص ولا زيادة.

### أشراف العرب والصناعات

رأيت أن أختم هذا الفصل بنصين هاميين في موضوعنا أودعه هذه الحاشية: جاء في كتاب (المحاسن والأضداد) المنسوب للجاحظ:

((روي أن أبا طالب كان يعالج العطر والبخور، وأما أبو بكر وعمر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فكانوا بزازين، وكان سعد بن أبي وقاص يعذق النخل، وكان أخوه

(١) ذكروا: أن قصص لا فونتين نقلت إلى أوربة على السنة التجار والمسافرين، انظر (مجلة الرسالة: السنة الخامسة ص ١٠٣٥).

(٢) في كتاب (أمثال الضبي وأسرار الحكماء - طبع الجوائب) ما يفيد أن (دختنوس) من أسماء العرب انظر ص ٦.

(٣) تاريخ ملوك الحيرة للأعظمي ص ١٤٠.

عتبة نجاراً، وكان العاص بن هشام أخو أبي جهل بن هشام جزاراً، وكان الوليد بن المغيرة حداداً، وكان عقبة بن أبي معيط خماراً، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت (الكعبة) خياطاً، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والأدم، وكان أمية بن خلف يبيع البُرْم، وكان عبد الله بن جدعان نخاساً، وكان العاص بن وائل يعالج الخيل والإبل، وكان جرير بن عمرو وقيس أبو الضحاك بن قيس ومعمر بن عثمان وسيرين بن محمد بن سيرين كانوا كلهم حدادين وكان المسيب أبو سعيد زياتاً، وكان ميمون بن مهران بزازراً، وكان مالك بن دينار وراقاً، وكان أبو حنيفة صاحب الرأي خزازاً.. إلخ.

وهذا - إن صحت الرواية - محبط ما زعموا من احتقار العرب للصناعات. وكيف مارس كثيراً منها أشرافهم في الجاهلية والإسلام مع اشتغال جموع منهم بالتجارة.

بل كان الأثرياء منهم غير قليل. ((وحسبك أن عثمان بن عفان جهز جيش العسرة من ماله، وجاء أبو بكر بماله كله، وجاء عمر بنصف ماله، وحمل العباس وطلحة وسعد بن عبادة، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمئتي أوقية.. إلخ)).

وكل هؤلاء من قريش المشتغلين بالتجارات، ومرّ بك خبر الذي جاءته عيرٌ فأنهبها الناس في أحد المواسم))<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> شرح الزرقاني على (المواهب) للقسطلاني ٦٣/٣-٦٥، ط١، سنة ١٣٢٦ هـ بالمطبعة الأزهرية المصرية.

## بيوع الجاهلية

ألف العرب في جاهليتهم أنماطاً خاصة من البيع يتخذونها في أسواقهم، وهي في جملتها مما يثير استغرابنا ودهشتنا، لأن أكثرها مما يغيب فيه البائع أو المبتاع، وتصور لنا تلك البيوع ما كان عليه تفكير فريق منهم. ولا بد من التنبيه إلى أنها لم تكن تتخذ في جميع الأسواق، بل منها ما تمتاز به سوق من سوق وجماعة من جماعة، وإليك ما عثرت عليه من بيوعهم:

### ١- الرمي بالحصاة (أو إلقاء الحجارة):

ذكروا لهذا البيع صوراً كثيرة تجري في سوق دومة الجندل منها:

١- أن يقول أحد المتبايعين للآخر: ((ارم هذه الحصاة، فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم))<sup>(١)</sup>.

٢- أن يقول البائع: إذا رميت هذا الثوب بالحصاة فهو مبيع ((منك بكذا. فيجعل الرمي بالحصاة نفسه بيعاً))<sup>(٢)</sup>، أو يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول ((أي شاة أصابتها فهي لك بكذا)).

٣- أن يقول: ((بعتك من السلع ما تقع عليه حصاتك)) أو ((بعتك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك))<sup>(١)</sup>.

٤- أن يقبض المشتري على كف من حصى ويقول: ((لي بعدد ما خرج في القبضة من الشيء المبيع))<sup>(٢)</sup>.

٥- أن يبيعه سلعة ويقبض على كف من حصى ويقول: ((لي بكل حصاة درهم))<sup>(٢)</sup>.

٦- أن يقول للمشتري: ((بعتك على أنك بالخيار إلى أن أرمي بهذه الحصاة فإذا نبذتها وجب البيع))<sup>(٣)</sup>.

٧- ((أن يجتمع نفر منهم على السلعة يساومون بها صاحبها فأبهم رضي ألقى حجره.

وربما اتفق في السلعة الرهط فلا يجدون بدأ من أن يشتركوها وهم كارهون، وربما (اتفقوا)<sup>(٤)</sup> فألقوا الحجارة جمعياً (إذا كانوا عدداً على أمر بينهم)<sup>(٤)</sup> فيوكسون صاحب السلعة إذا تظاهروا عليه)).

(١) بلوغ الأرب للألوسي.

(٢) شرح مسلم ٣٥٥/٦.

(٣) لسان العرب وتاج العروس.

(٤) بلوغ الأرب.

(٥) المصدر السابق وشرح مسلم.

(٦) الزيادة عن كتاب المحبر لمحمد بن حبيب ص ٢٦٤ وقد طبع سنة ١٩٤٢ بعد صدور الطبعة الأولى لكتابنا هذا بست سنين. ولاشك أن المرزوقي قد نقل عبارته.

انفرد بهذه الصورة الأخيرة المرزوقي في كتابه (الأزمة والأمكنة) (٢: ١٦٢) نقلاً عن محمد بن حبيب فيما أظن، وسماه إلقاء الحجارة بدلاً من رمي الحصاة، ونص على شيوعها في سوق دومة الجندل.

أقرب هذه الصور إلى الرضا أن يكون رمي الحصاة إيذاناً بوجوب البيع وانقطاع الخيار. أما بقية الصور فهي من بيع الغرر وهي إلى القمار أقرب وبه أشبه، وقد عد الإسلام هذه البيوع فاسدة كلها لما فيها من الجهالة والضرر بالبائع أو المشتري.

## ٢- المنابذة:

ولهم في هذا النوع من البيوع ثلاث صور:

١- أن تقول: ((انبذ إلي الثوب أو أنبذه إليك وقد وجب البيع بكذا وكذا))<sup>(١)</sup> فيكون النبذ إيذاناً بالبيع وقطعاً للخيار.

٢- أن يرمي الرجل إلى الرجل بثوبه وينبذ الآخر إليه ثوبه، ولم ينظر واحد منهما إلى ثوب صاحبه، فيكون ذلك بيعهما عن غير نظر ولا تراض<sup>(٢)</sup>.

٣- نبذ الحصاة وقد تقدم.

يقال في هذا البيع ما قيل في رمي الحصاة وقد نهى الإسلام عنه وأبطله.

## ٣- الملامسة:

وهي على أوجه ثلاثة:

١- أن يأتي البائع بثوب مطوي، أو في ظلمة فيلمسه المستام فيقول له صاحب الثوب: ((بعتكه بكذا بشرط أن يقوم المسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيت))<sup>(١)</sup> فلا يقبل المشتري الثوب لا ليلاً ولا نهاراً.

٢- أن يجعل المتبايعان اللبس نفسه بيعاً بغير صيغة، كما تقدم في المنابذة ورمي الحصاة.

٣- أن يجعل اللبس شرطاً في قطع خيار المجلس وغيره.

وقد ألحق الإسلام هذه الصور بسابقتها وأبطلها ونهى عنها، فقد جاء في صحيح مسلم: ((نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين: الملامسة والمنابذة))<sup>(٢)</sup>.

وذكر الألويسي مع الملامسة الإيماء والهمهمة (وهي الكلام الخفي وكل كلام معه بحج) وعلل اتخاذهم لهما بخوف الحلف والكذب. وهو طريف في الأقوال غريب.

ثم اطلعنا في كتاب المحبر لمحمد بن حبيب على هذا النص في الكلام على سوق المشقر:

(١) القاموس المحيط: مادة (نبذ).

(٢) شرح مسلم ٣٥٦/٦.

(١) المصدر السابق.

(٢) وانظر أيضاً تيسير الوصول ١/٦٢، ٦٣.



((وكان بيعهم فيها الملامسة والهمهمة: أما الملامسة [فهي] الإيماء: يومئ بعضهم إلى بعض فيتبايعون ولا يتكلمون حتى يتراضوا إيماء، وأما الهمهمة فكيفلا يحلف أحدهم على كذب إن زعم المشتري أنه قد بدا له<sup>(١)</sup>).

#### ٤ - المعاومة:

أو بيع السنين وهو أن يبيع ثمر الشجر عامين أو ثلاثة أو أكثر، وقد أبطله الإسلام، لأنه من الغرر فهو بيع معدوم ومجهول وغير مقدور على تسليمه وغير مملوك<sup>(٢)</sup>.

#### ٥ - المزابنة:

وهي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر كيلاً. وكذا كل ثمر يبيع على شجر بثمر كيلاً، وقد روى صاحب القاموس: ((أنه كل جزافٍ لا يعلم كيلاه ولا عدده ولا وزنه يبيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود، أو يبيع معلوم بمجهول من جنسه، أو يبيع مجهول بمجهول من جنسه، أو يبيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن)) اهـ. والمزابنة المدافعة، وسمي هذا البيع مزابنة لأن أحد المتبايعين إذا ندم زين صاحبه عما عقد عليه. وسبيله في نهى الإسلام عنه سبيل ما تقدمه لما فيه من الغرر<sup>(١)</sup>.

#### ٦ - المحاقلة:

هي في الزرع على نحو المزابنة في التمر فبياع الزرع القائم بالحب كيلاً. وقد نهى الرسول عن المحاقلة كما نهى عن المزابنة<sup>(١)</sup>.

#### ٧ - المخابرة:

وهي - وإن كانت بالزراعة ألصق لأنها معاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها من الزرع كالثلت ونحوه من الأجزاء المعلومة - تتعلق بموضوعنا لأن أحد أعلام العربية فسرها تفسيراً يجعلها بهذا الباب أشبه. جاء في شرح مسلم للنووي: قيل: إن المخابرة مشتقة من الخُبرة وهي النصيب، وقال أبو عبيدة: هي النصيب من سمك أو لحم، يقال: تخبروا خُبرة إذا اشتروا شاة فذبحوها وتقاسموا لحمها. وقال ابن الأعرابي: هي مأخوذة من (خيبر) لأن أول هذه المعاملة كان فيها اهـ. والذي يظهر أن ابن الأعرابي يشير إلى المزارعة لا إلى الاشتراك بالشاة الذي فسر المخابرة به أبو عبيدة، لأن لأهل خيبر أرضين وعلماً بالزراعة.

#### ٨ - حبل الحيلة:

كان بيعاً يتبايعه أهل الجاهلية: كان الرجل منهم يبتاع الجزور إلى أن تُنتج الناقة، وأحياناً إلى أن تُنتج التي في بطنها فإذا نُتشتج حملها فالحبل الأول يراد به ما في بطن النوق من الحمل، والثاني حبل الذي في بطون النوق.

فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا البيع. ((وإنما نهى عنه لمعنيين: (أحدهما) أنه غرورٌ وبيع شيء لم يخلق بعد، وهو أن يبيع ما سوف يحمله الجنين

(١) المحبر ص ٢٦٥ (طبعة حيدر آباد ١٣٦١هـ/١٩٤٢).

(٢) شرح مسلم ٣٦٨/٦.

(١) وانظر تيسير الوصول ٥٨/١.

(١) وانظر تيسير الوصول ٥٨/١.

الذين في بطن الناقة على تقدير أن تكون أنثى فهو بيع نتاج النتاج. (والثاني): أن يبيعه إلى أجل ينتج فيه الحمل الذي في بطن الناقة وهو أجل مجهول ولا يصح<sup>(١)</sup> والحيلة بالتحريك جمع حابل.

#### ٩- التصرية:

كان من عادة بعض العرب إذا أراد بيع شاة أو ناقة امتنع من حلبها أياماً فيحتفل اللبن في ضرعها فيعظم. فإذا كان ذلك منها عرضها للبيع فيظن المشتري أن كثرة لبنها واحتفال ضرعها عادة مستمرة لها فلا يلبث أن يتبين خطأه بعد شرائها. والتصرية الجمع، يقال صرى الماء في الحوض إذا جمعه. جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لا تصروا الإبل والغنم، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، فإن رضيها أمسكها وإن سخطها ردّها وصاعاً من تمر))<sup>(١)</sup>.

#### ١٠- السرار:

لم أجد هذا الضرب من البيع في جميع المصادر التي بيدي، لم يذكره أحد غير محمد بن حبيب بقوله: ((وكان بيعهم بها (أي بعكاظ) السرار، فإذا وجب البيع وعند التاجر ألف رجل ممن يريد الشراء ولا يريد له الشركة في الربح))<sup>(١)</sup>.

وقد رجعت في هذه الكلمة إلى المعاجم التي في يدي وهي:

الصباح، تاج العروس (شرح القاموس)، لسان العرب، المجلد لابين فارس (نسخة مخطوطة كاملة في المكتبة الظاهرية) الجمهرة لابين دريد، الفائق، أساس البلاغة، النهاية لابن الأثير، المصباح، فلم أجد أحداً تعرض لهذا الضرب من البيوع ثم تحريرت في شروح الحديث وكتب الفقه مظنة أن أجد فيها تعرضاً له في صدد كلامهم على البيوع الفاسدة أو المنهي عنها فلم أظفر. إلا ما وجدت في كتاب (المغرب في ترتيب المعرب) للمطرزي، وعنه نقل صاحب محيط المحيط<sup>(١)</sup>.

قال المطرزي:

((وفي المنتقى: بيع السرار أن تقول: أخرج يدي ويدك، فإن أخرجت خاتمي قبلك فهو بيع بكذا، وإن أخرجت خاتمك قبلي فبكذا، فإن أخرجاً معاً أو لم يخرجاً جميعاً عادا في الإخراج!؟))<sup>(١)</sup>.

#### ١١- الناجز

(١) انظر شرح مسلم ٣٥٩/٦، والنهاية لابن الأثير: مادة (حبل).  
(١) شرح مسلم ٣٦٠/٦، البخاري (ليدين) ٣٤ كتاب البيوع رقم ٢٧.  
(١) انظر كتاب المحبر ص ٢٦٧. وقد عزوناه في الطبعة الأولى إلى المرزوقي، ولم يكن طبع كتاب المحبر، فلما طبع تبين أن المرزوقي نقل عبارته ولم يعزها.  
(١) لم أطلع في الطبعة الأولى إلا على محيط المحيط، والفضل في تنبيهي إلى كتاب المطرزي للأب (بوج) من بيروت فقد تفضل وكتب إلي به.  
(١) أرسل إلي الأستاذ كرنكو المستشرق المعروف عقب صدور الطبعة الأولى يقول: ولأرجع إلى بيع السرار في عكاظ وأظن أن أمر البيع والشراء كان سراً لاجتماع القبائل التي بينهم عدوات ودماء في هذه السوق. وعلى هذا تدل قصة طريف العنبري التي ذكرتموها، وقد كانوا يتلثمون عند حضور السوق مخافة أن يراهم عدوهم وهذا رأيي والله أعلم. اهـ. وما زال النص على صورة هذا النوع من البيع يعوزنا، أما التلثم الذي ألمع إليه المستشرق الفقيه فلا علاقة له بنوع هذا البيع.

وهو البيع العام المعروف لجميع الناس بادين وحاضرين، وذلك إذا كانت المبادلة يداً بيد، وقالوا: بيع السوق ناجزاً بناجز، أي حاضراً بحاضر.

## ١٢- الجس

نص عليه محمد بن حبيب في كتابه المحبر (ص ٢٦٦) فقال في الكلام على سوق صنعاء: ((وكان بيعهم بها الجس جس الأيدي)) ولعله نوع من بيع الملامسة المتقدم.

### نقود في الجاهلية والإسلام

جاء في مجلة (الهلال) المصرية في عدد تموز (يوليو) سنة ١٩٣٨م ص ١٠٨٦ ما يلي: ((كانت المقايضة أهم أساليب التجارة [يريد البيوع] في العصر الجاهلي، ومع هذا فقد عرف العرب النقود قبل الإسلام بعهد طويل.

في كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي) أن العرب في الجاهلية كانوا يتعاملون بنقود كسرى وقيصر، وهي الدراهم والدنانير، وكانت الدنانير من الذهب والدراهم من الفضة.

وكانت عندهم كذلك نقود نحاسية، منها الحبة والدانق.

ويقدّر الدينار اليوم [سنة ١٩٣٨م] بعشرة فرنكات، وربما زادت قيمته إلى ١٥ درهماً، وكان الدرهم يساوي عشرة قروش مصرية تقريباً.

وقد ظل العرب يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية حتى ظهر الإسلام وأسست الدولة الإسلامية، فأنشؤوا (السكة).

وقد جاء في المقرئزي: ((أول من ضرب المعاملة في الإسلام عمر في سنة ١٨هـ على نقش الكسروية، وزاد فيها: (الحمد لله محمد رسول الله)، وفي بعضها: (لا إله إلا الله) وعلى جزء منها اسم عمر.

وعبد الله بن الزبير ضرب بمكة دراهم مستديرة، وهو أول من ضرب هذه الدراهم، ونقش بدورها: (عبد الله)، وبأحد الوجهين: (محمد رسول الله) وبالأخر (أمر الله بالوفاء والعدل).

وهناك نقود منسوبة لخالد بن الوليد على رسم الدنانير الرومية، عليها: الصليب والتاج والصولجان، واسم خالد بالحروف اليونانية)) ١ هـ.

\* \* \*

جرى العرب في جاهليتهم على ما علمت من أنواع البيع التي تعرض أحد المتبايعين للغبين والضرر بلا مسوغ، فلما أكرمهم الله بالإسلام رفع عنهم ضيم الجاهلية ونهاهم عن بيع الغرر بجميع صورته وأشكاله، ليكون لكل من المتبايعين محض الاختيار، فلا يتم بيع إلا إذا كان واضحاً معلوماً للمتبايعين، وبالرضا الكامل. ولقد تتبع الإسلام معاملات الجاهليين فأبطل كل ما فيه غش وضرر كما في بيع حبل الحبله وفي التصرية. وشرع لهم في التجارة والبيوع ما ضمن خير الناس جميعاً بائعهم ومشتريهم، ورفع عنهم الحيف الذي كان يحق بهم مما اعتادوه في جاهليتهم.

لم يقتصر الجاهليون في تجارتهم على ما قدمنا من بيوع فاسدة وعادات ضارة. فلهم إلى ذلك مساوئ لا تقل قبلاً عما تقدمها: فمنها النجس وهو أن تواطئ رجلاً إذا أراد بيعاً أن تمدحه، أو أن يريد الإنسان أن يبيع بياعة فتساومه بها بثمن كثير لينظر إليك ناظر فيقع فيها، وكذلك في الأشياء كلها<sup>(١)</sup>.

ومن عاداتهم المكس وهي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في أسواق الجاهلية، ويقال للعشار أيضاً صاحب المكس. والمكس لغة النقص، والمماكسة في البيع انتقاص الثمن وانحطاطه<sup>(٢)</sup>.

ولعل ذلك يكون بعد الاتفاق على ثمن معين قال الشاعر:

أفي كل أسواق العراق إتاوةً      وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم  
وظاهر أن المقصود بالمكس أشبه بالضرائب التي تجبها حكومات اليوم على البضائع.

وقد امتد تحكم تجار العرب إلى القوت الضروري فكانوا يحتكرونه على الفقراء الركبان ويشترون منهم الطعام، وربما باعوه في مكانه قبل أن يبلغ السوق وقبل أن ينقلوه. ومنهم من كان يشتري ويبيع لحساب أهل البادية، فيلحق بهؤلاء الضرر البالغ لجهلهم أمور التجارة، ولأنهم في كل حال مغلوبون على أمرهم، بعيدون عما يباع ويشترى لهم، ولعلمهم إن حضروا البيع رفعوا عن أنفسهم بعض الحيف. فلما كان الإسلام نهى عن جميع هذه المفاصد جملةً، فقد جاء في صحيح البخاري<sup>(١)</sup>: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا تلقوا الركبان، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا، ولا يبيع حاضر لباد<sup>(٢)</sup>، ولا تُصروا الغنم. ومن اتباعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، إن رضيها أمسكها وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر)). وقد فسر ابن عباس قوله (لا يبيع حاضر لباد) بقوله: لا يكن له سمساراً.

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من اشترى طعاماً فلا يبيعه حتى يستوفيه ويقبضه)) قال ابن عمر: ((وكنا نشترى الطعام من الركبان جزافاً (أي بلا كيل ولا وزن ولا تقدير) فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نبيعه حتى ننقله من مكانه)).

ثم شرع لهم السهولة في المعاملة والتبيين في البيع كما في حديث:

((البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما)).

وهناك مبيعات خاصة لأهل الجاهلية حرمها الإسلام وحرم ثمنها، أهمها الخمر، فسيأتي أن الخمر من أهم ما كان يتجر به العرب، وقد اشتهرت مدن معينة في الجاهلية بخمرها الطيب اللذيذ، ولا مندوحة عن ذكر غزة وأدرعات وأندرين وهجر

(١) المخصص والقاموس.

(٢) المخصص والقاموس.

(١) طبع ليدن ٣٤ كتاب البيوع ٢٧.

(٢) للحديث زيادة من رواية جابر: دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض.

والحيرة.. وغيرهن من البلدان التي تحمل خمرها قوافل العرب التجارية وقد قال الشاعر:

إذا ذقت فاها قلت طعم مُدامة

مُعْتَقَةٌ مما يجيء به التَّجْرُ<sup>(١)</sup>

وهي مورد تجاري عظيم لم يكن يستغني عنه العرب؛ فلما حرم الله على المسلمين الخمرة حرم أيضاً ثمنها حسماً للداء، فلا يجوز بيعها ولا شراؤها كما ونهى عن ثمن بقية المحرمات ففي صحيح البخاري: ((نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن)).

و((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام<sup>(٢)</sup>)) وعن عائشة قالت: ((لما نزلت آخر البقرة قرأهن النبي في المسجد ثم حرم التجارة في الخمر)).

لكن التجارة الممقوتة جداً، التي يصم عارها بعض أهل الجاهلية هي البغاء: كانوا يؤجرون إماءهم للرجال ويأخذون هم ما يكتسب لهم جواربهم من هذا الكسب المردول. واستمرت هذه العادة حتى جاء الإسلام وكانت الهجرة. ذكر المفسرون أن لعبد الله بن أبي ابن سلول جاريتين يقال لهما مسيكة ومُعَاذَة، وكان يكرهما على الزنا لضرية يأخذها منهما (وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية). فلما جاء الإسلام قالت مُعَاذَة لمسيكة: ((إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين: فإن يك خيراً فقد استكثرتنا منه، وإن يك شراً فقد أن لنا أن ندعه)). لكن عبد الله هذا قال لهما: ((ارجعا فازنيا)). فقالتا: ((والله لا نفعل، قد جاء الإسلام وحرم الزنا)) فأنتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكنا إليه أمرهما فأنزل الله هذه الآية:

{وَلَا تُكْرَهُوا قَنَائِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَلِيَوكُمْ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٣٣/٢٤].

(١) التجار.  
(٢) كتاب البيوع.

## ربا الجاهلية

لست هنا بصدد بيان الربا وأنواعه ومضاره على التجارة والعمران والأخلاق، وما يعقب من خراب البيوت وتقويض الأسر وفقدان الثروة والشقاء والدمار، فذلك معروف أمره، مستوفى شرحه مظانه من كتب الحديث والتفسير؛ عدا ما يعاين الناس في حياتهم من شروره على المرابين أنفسهم قبل غيرهم، فحوادثه نشاهدها في كل يوم بالعشرات. وإنما أريد الإشارة إلى ما استفاض منه في الجاهلية حتى أتى الإسلام فاجتته من جذوره.

يرجح أن الذي أشاع الربا في جزيرة العرب هم اليهود الطارئون عليها، الذين اتخذوا من بعض قراها ومدنها مستعمرات عالجوا فيها الزراعة فأصابوا منها الغنى ولم يكن لعرب الحجاز فيها كبير نصيب. فكان العربي إذا أعوزه المال اقترض ورهن عند دائنه درعه أو ثيابه أو سلاحه، وأحياناً تشد به الحاجة ويشتط الدائن فيرهن ولده.

إلا أن الربا لم يقتصر على اليهود، بل مازال ينتشر في مكة والطائف وخيبر ووادي القرى ويثرب حتى أله الناس، وصاروا يأخذون به ويعطون.

اشتهرت الطائف برباها، ولعل هذه الشهرة كانت لمكان اليهود منها فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري (ص ٥٦) أنه ((كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية)).

ويذكر المفسرون ((أن أربعة أخوة من ثقيف كانوا يداينون بني المغيرة بن عبد الله بن عمير بن عوف الثقفي، وكانوا يرابون، فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم على الطائف أسلم هؤلاء الإخوة بنو عمرو الثقفي وطلبوا رباهم من بني المغيرة. فقال بنو المغيرة: ((والله ما نعطي الربا في الإسلام، وقد وضعه الله عن المؤمنين)). فاختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة فكتب إلى النبي بقضية الفريقين وكان ذلك مالاً عظيماً فأنزل الله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَدَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** [البقرة: ٢٧٨/٢].

هذا وقد كانت ثقيف صالحت النبي صلى الله عليه وسلم على أن مالهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع، وثقيف هم أهل الطائف.

ولم تقتصر علائق أهل مكة مع أهل الطائف على المراباة والتجارة بل كان لأهل مكة أملاك بالطائف يصلحونها ويستغلونها، فقد ((كان للعباس أرض بالطائف وكان الزبيب يحمل منها فينبد بالسقاية للحاج وكانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها.. وصارت أرض الطائف مخالفاً من مخاليف مكة))<sup>(١)</sup>.

وكان بالمدينة - وفيها كثير من اليهود - ربا منتشر، وعرف من مرابيها من أصبح ذا غنى فاحش:

(١) البلاذري ٥٦/١.

جاء في خزانة الأدب: ((كان أحيحة بن الجلاح كثير المال شحيحاً عليه، يبيع بيع الربا بالمدينة، حتى كاد يحيط بأموالهم؛ وكان له تسع وتسعون بئراً كلها ينضح عليها وكان له.. إلخ))<sup>(١)</sup>.

ومن مراجعة كتاب الصلح الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران نعلم أن غير اليهود لهم نصيب يحملونه من أمر الربا هذا، فقد شرط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ((ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة)). ولعل نصارى نجران كانوا قد بلغوا من التعامل به مبلغاً صعب عليهم فيه تنفيذ هذا الشرط، لما تأصل فيهم من اعتياده، حتى استنقل أمره فيهم أيام خلافة عمر بن الخطاب وشاعت لهم أموال أفادوها منه، وخاف عمر العاقبة فأجلاهم<sup>(٢)</sup>.

تسرب الربا إلى أهل مكة وتعاملوا به وعُرف رجال منهم من أهل الشرف والرئاسة بتعاطيه كالعباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد وعثمان بن عفان<sup>(٣)</sup> وغيرهم. ومتى انتشرت عادة قبيحة ستر فشوها قبحها فلم يترفع عنها أحد، وكانت الضرورة والحاجة شر معوان على تعاطيه، وبذلك انحصر الغنى في طائفة معينة وعم الفقر من عداهم.

بلغ اليهود في هذا الميدان شوطاً لم يلحقهم فيه لاحق قط، لما تركز فيهم من الثراء وما حذقوا من حسن التآتي في تدمير أموالهم، واستغلال الفقر والسذاجة في العرب، فاعتقدوا الأرضين، وبنوا الحصون، ثم دأبوا في جمع المال وتنميته وإدانته حتى كثرت الرهائن عندهم واشتطوا في طلبها واقتنوا في تنويعها افتتانه شائناً، فصاروا يرتهنون الأولاد ويطلبون النساء أيضاً ولا يرعون في سبيل المادة حلقاً ولا أصرة: جاء في سيرة ابن هشام (٢:٣٤١) أن أبا نائلة سلكان بن سلامة أتى أحد أشرف اليهود وأغنيائهم، كعب بن الأشرف وكان أخاه من الرضاعة فقال له: ((إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك)). فقال كعب: ((أترهنوني نساءكم؟!)) قال: ((كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم؟!)) قال كعب: ((أترهنوني أبناءكم؟!)) قال: ((لقد أردت أن تفضحنا، إن معمي أصحاباً لي على مثل رأيي، وقد أردت أن أتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه الوفاء)).

يريد أبو نائلة بقوله: ((على مثل رأيي)): تضايقتهم من مجيء الرسول والمسلمين ومزاحمتهم في بلادهم (المدينة) على العيش، فليُنظر امرؤ كيف لم يشفع شيء عند كعب في سبيل المادة، لا مشايعة القوم له (ظاهراً) في هواه وعداوته لرسول الله، ولا أخوة الرضاعة، لا شيء إلا المال والربح، المال وحده هو معبود اليهود منذ خلقوا إلى يوم يبعثون.

هذا الغلو من اليهود في الربا وتعاطيه منذ القديم هو السبب في تشنيع القرآن الكريم لفعاليتهم وتعنيفهم عليها حين يقول:

(١) خزانة الأدب ٣/٣٣٧ (المطبعة السلفية).

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ٦٦/١.

(٣) انظر تفسير الخازن عند قوله: وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا { من سورة البقرة.

{فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا، وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: ٤/١٦٠-١٦١].

أتى الإسلام وطعمة كثير من الجاهليين ومأكلهم من الربا، فامتنع قسم منهم من الاتجار، لأن الربح قد حصل لهم بأخف مؤونة وأيسر مشقة: فلا أسفار ولا تعرض لأخطار، ولا جهد ولا سعي. وكف أكثرهم بطبيعة الحال عن الإقراض بلا فائدة، واعتاد المدين إعطاء الربا راضياً، غير واجد فيه غبناً ولا شناعة، وقال كثير منهم: ((سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير)). هونوا بذلك على أنفسهم ورأوا البيع والربا سواء في الزيادة حتى أكذبهم الله وعنفهم أشد تعنيف بقوله: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [البقرة: ٢/٢٧٥].

ولما حرم الإسلام الربا جملة واحدة كان لابد من تشريع حاسم للعلاقات التي سبقت إسلام المتعاملين به، والتي كانت لا يخلو من الارتباط بها من كان يتعاطى التجارة وغيرها من شؤون الكسب، ووقف الناس إزاء مشكلة جديدة: هل يمضون عقودهم على ما عقدوا قبل الإسلام إذ حل الأجل أم يتقيدون بتعاليمه فيهملون ما كان منها فاسداً حسب هذه التعاليم؟ وإذا كان الأمر الثاني فلا بد حينئذ من غبن - في زعمهم - يلحق الدائن. وقد عرضت قضية من هذا الشكل فنزل الوحي بالحل القاطع:

ذكر الطبري في تفسيره: أن العباس ورجلاً من بني المغيرة (لعله خالد بن الوليد المصرح به في تفسير الخازن) كانا شريكين في الجاهلية، سلفاً في الربا إلى أناس من ثقيف وهم بنو عمرو بن عمير فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا. وذكر الخازن أن عثمان ابن عفان والعباس بن عبد المطلب كانا أسلفاً في التمر، فلما كان وقت الجذاذ قال صاحب التمر لهما: ((إن أنتما أخذتما حقكما لم يبق لي ما يكفي عيالي، فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما؟)) ففعلا، فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فناهما.

وسواء أكانت الحادثة الأولى أم الثانية سبباً في نزول الآية، إن من المعقول أن تتعدد الحوادث على هذا النسق لتفشي المعاملات فيما سبق على الربا، وحلول الأجل أجلاً بعد أجل، وتحير الدائن والمدين معاً بين إمضاء التعاقد السابق للتحريم، والإذعان والكف عما نهى الله عنه؛ أي كان فقد نزل قول الله فاصلاً في هذه المسائل وأشباهاها بهذا التشريع الحاسم الذي لا هوادة فيه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢/٢٧٨-٢٧٩].

فسمع العباس وخالد وعثمان وغيرهم وأطاعوا وأخذوا رؤوس أموالهم. وكتب رسول الله يجيب عتاباً عاملاً على مكة بهذه الآية وقال له في آخرها: ((إن رضوا وإلا فأذنهم بحرب))<sup>(١)</sup>.

(١) انظر تفسير الطبري.



هذا ما كان من الربا في الجاهلية عامة: يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى، فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء، زاده وأخر عنه. إلا أن هناك رباً خاصاً كان من أثقل الأعباء على المعسرين وهو ربا الأضعاف الذي أشار القرآن الكريم إليه بقوله: **{ لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً }** [آل عمران: ١٣٠/٣] وذلك أن الرجل منهم في الجاهلية يكون له على الرجل مال إلى أجل، فإذا حل الأجل وكان الذي عليه الدين ضائعاً لا يجد ما يؤدي به دينه قال صاحب المال: ((زدني في المال حتى أزيدك في الأجل)). فيقول الآخر: ((أخر عني دينك وأزيدك على مالك كذا)). فيفعلان ويكون الدين مئة فيصير إلى قابل مئتين مثلاً، وربما حل الأجل الثاني والذي عليه الدين في إعساره ذاك، لم يتخلص منه، فيؤجله الدائن أجلاً ثالثاً، ويزيد المال عليه، وربما فعلوا ذلك مراراً حتى تصير المئة بعد سنين مئات.

وذكر ابن حجر في الزواج ما يفيد أن ربا الجاهلية كان الإنساء فيه بالشهور، وعلى ذلك يسهل علينا إدراك هذا التضعيف فيه قال: ((وربا النسيئة الذي كان مشهوراً في الجاهلية، لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل، على أن يأخذ منه كل شهر قدرأ معيناً ورأس المال باق بحاله، فإذا حل الأجل طالب برأس ماله، فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل)).

ذلك تضعيفهم في العين (النقود)، وأما تضعيفهم في السن ففي الإبل وقد شرحوا ذلك بما يأتي:

((إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن: يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول: ((تقضيني أو تزديني) فإذا كان عنده شيء يقضيه قضي وإلا حوله إلى السن التي فوق ذلك: إن كانت ابنة مخاض (وهي التي دخلت في السنة الثانية) يجعلها ابنة لبون (وهي التي دخلت في الثالثة) في السنة التالية، ثم حقة (وهي التي أتت عليها الرابعة) ثم جذعة (وهي التي أتت عليها الخامسة) ثم رباعياً ثم هكذا.. إلى فوق)).

\* \* \*

بدأت العلائق التي نشأت عن تعامل الجاهلية تضمحل بقاياها مع الزمن، وقد تشدد الإسلام بما يرتبط منها بالربا تشدداً حازماً، وورد فيها من الوعيد والتهديد مالا مجال لبسطه هنا. وكان خاتمها ما جهر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، في خطبته البليغة المأثورة التي كانت فاصلة بين آثار الجاهلية وعهد جديد، والتي بين فيها أهم الأمور الجسام التي يريد من أمته التمسك بها، وكان في طليعتها دون شك، الربا فقال فيه:

((ألا وإن كل ربا الجاهلية موضوع كله، وأول ربا ابتدئ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب **{ فَلَکُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِکُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ }**<sup>(١)</sup>).

<sup>(١)</sup> تيسير الوصول ٦٩/١.

## المحلون والمحرمون والحرم

كان العرب يعظمون أمكنة خاصة وشهوراً معينة، لا يسفكون فيها دماً، ولا يتجاوز بعضهم على بعض حتى يزيلوا المكان الحرام، أو ينفضي الشهر الحرام.

وكان من بعد النظر أن جعلوا أكبر أسواقهم يقام في الأشهر الحرم، فكانت سوق حُباشة وسوق صُحار في رجب، وحضرموت في ذي القعدة، وعكاظ ومجنة وذو المجاز في ذي القعدة وذو الحجة، ومعلوم أن الأشهر الحرم أربعة: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، تضع فيهن العرب سلاحها فلو لقي المرء قاتل أبيه ماوسعه التعرض له بسوء، حتى إن تلقبيهم رجباً بالأصم، كان لأنه لا ينادى فيه: (ياصباحاه)<sup>(١)</sup> ولا (يالفلان)، فينقطع فيه صوت الأسلحة. وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام والبلد الحرام. ولهذا سميت حروب قريش وهوازن في عكاظ بحروب الفجار لفجورهم باقتتالهم في الشهر الحرام.

ولما ترصدت سرية عبد الله بن جحش عير قريش وكانت تحمل زيبياً وأدماً وتجارة من تجارتهم فيها عمرو بن الحضرمي، بنخلة بين مكة والطائف، وظفرت بالعيير وقتلت ابن الحضرمي بعد أن هاب قوم الإقدام على القتل، لأنهم كانوا في آخر يوم من رجب، وأقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعيير وبأسيرين، امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أخذ الخمس، وقال: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام<sup>(١)</sup>)). وسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا.

وأيقنت قريش أنها وقعت على ما تعيب به محمداً وأصحابه عند العرب عامة لما انتهكوا من حرمة الشهر فجعلت تشيع قولها:

((قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال)). وأكثروا من ذلك لما فيه من تهيج العرب وتغيير قلوبهم على صاحب الدعوة وتصويرها له في صورة المستحل الذي لا يرعى حرمة للشهر المحرم كما لم يرع من قبل حرمة آلهتهم. وتناست قريش ما كانت صنعت مع النبي وأصحابه من إيذاء وتعنيف حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة. ثم تناست ما عاملت به المستضعفين من المسلمين من إقامة في الهاجرة تصهرهم الشمس، ومن إلقاء الصخور عليهم، وتهافتهم على هؤلاء ضرباً وإيلاًماً حتى يفتنهم عن دينهم. ثم تنويعهم أساليب العذاب لهم ولأهلبيهم، فلما أشفق المسلمون من صنيع سرية عبد الله ابن جحش واستطالة السنة قريش فيهم أنزل الله هذه الآية:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧/٢].

وقال عبد الله بن جحش يرد على قريش:

(١) انظر القاموس.  
(١) سيرة ابن هشام ١٩٤/٢.

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة  
صدودكم عما يقول محمد  
وإخراجكم من مسجد الله أهله  
فإننا وإن غيرتمونا بقتله  
سقيناً من ابن الحضرمي رماحنا  
دماً وابن عبد الله عثمان بيننا  
وأعظم منه لو يرى الرشد راشد  
وكفر به، والله راءٍ وشاهد  
لئلا يرى الله في البيت ساجد  
وأرجف بالإسلام باغ وحاسد  
بنخلة لما أوقد الحرب واقد  
ينازعه غل من القد عاند<sup>(١)</sup>

قال المرزوقي: ((كانت هذه الأسواق منها ما يقوم في الأشهر الحرام ولا يقوم في غيرها، ومنها ما لا يقوم في الأشهر الحرم ويقوم في غيرها، لكنه لا يصل إليها أحد إلا بخفير ولا يرجع إلا بخفير)).

ولا يخفى أن الأمن من أوكد الأسباب في انتظام أمور التجارة، فلولا ما أخرج بائع بضاعة، ولا تظاهر مشتر بملك نقود. ومن هنا كان لقريش تلك الزعامة التجارية، لأنها تسكن الحرم حيث الأمن والسلم، وحيث لا تحدث أهداً نفسه بالبغي والعدوان. فكانت تجارات العرب أروج ما تكون حيث يستتب الأمن وتعم الثقة.

رعاية هذه الحرم على ما تقدم ليست مطردة على إطلاقها، بل هي كذلك في الأعم الأغلب، إذ إن هناك قبائل معدودة لا تعرف لهذه المحرمات حقاً، فكانت تسفك الدم ولو في الشهر الحرام أو البلد الحرام. علمت قريش أمر هذه القبائل فكانت تسلك في طريقها على القبائل التي تحفظ لها حرمتها، فإذا وردت على من لا يرعاها تخفرت بخفير.

ونحن مدينون للمرزوقي الذي له الفضل بإطلاعنا على ما لقريش من منزلة سامية في نفوس قبائل العرب، وخاصة الذين يكونون على طريقها، كما علمنا منه القبائل التي لا تجاز بها قريش إلا متخفرة. كانت قريش في خروجها من مكة قاصدة دومة الجندل إذا ((أخذت على الحزن لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع. وذلك أن مضر عامتهم لا تتعرض لتجار قريش، ولا يتهمهم حليف لمضري، مع تعظيمهم لقريش ومكانهم من البيت. وكانت مضر تقول: قد قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا أبونا إسماعيل من الدين، وكانوا إذا خرجوا من الحزن أو على الحزن. وردوا مياه كلب، وكانت كلب حلفاء بني تميم. فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد. حتى يخرجوا على طيئ فتعطيهم وتدلهم على ما أرادوا لأن طيئاً حلفاء بني أسد. فإذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فيجيز لهم ذلك ربيعة كلها)).

هذا هو نظر أغلب العرب إلى قريش: تعظيم لهم واحترام، لمكانهم من البيت، ولأنهم سدنته والقائمون بأمر الحاج أيام الحج. أذعنت لهم بذلك العرب وعرفوا لهم

<sup>(١)</sup> ذكر ابن هشام أنها تنسب أيضاً لأبي بكر، ومهما يقل في نسبتها فإن فيها الجواب الطبيعي الذي لا يعقل إلا أنهم أجابوا به قريشاً.  
واقد: هو ابن عبد الله التميمي الذي رمى ابن الحضرمي فقتله، وعثمان ابن عبد الله: أحد الأسيرين؛ والغل: ما يشد على العنق. والقد: السير من جلد.

حقوقهم، لأنهم قوام الدين الذي دان به العرب قبل الإسلام وهم لهم تبع. وقد استغل القرشيون هذه المكانة القدسية، فضربوا في جزيرة العرب شمالاً وجنوباً متاجرين لا يعرض لهم ولا لأموالهم أحد.

وكانوا بطبيعة الأمر مسيطرين على الأسواق الثلاث الكبرى التي تقوم قريباً من مكة وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز. وفيها يجتمع أكبر رحل من بلاد العرب من جميع أطرافها لوقوع هذه الأسواق في أيام الحج وقريباً من أمكنته.

ويظهر أن قريشاً لم تكن بمالها من نفوذ في قبائل العرب بل أرادت أن تصبغ نفسها صبغة تمتاز بها منهم في الدين نفسه، كأنهم طبقة خاصة تتمتع بحقوق ليس لغيرهم أن يتمتع بها، ورمت من وراء ذلك إلى أن تمكن هيبتها في نفوس الأعراب الغفل، أقصد بذلك ما يعرف في كتب السير بحديث (الحُمس):

مادة (حمس) في اللغة تفيد الشدة والصلابة في الدين والقتال، تُلقت قريش بالحمس هي وأحلافها من كنانة، وخزاعة، وجديلة، وكلاب وكعب وعامر بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة<sup>(١)</sup>. ومن تبعهم في الجاهلية، وخلاصة هذا الحديث في بدعتهم تلك أنهم قالوا فيما بينهم:

((نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاية البيت وقطان مكة، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا. فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بحرمتمكم وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم. فأجمعوا على هذا الرأي وتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها كما يفعل سائر العرب. وهم مع إقرارهم أن الوقوف بعرفة من مشاعر الحج ودين إبراهيم، ومع أنهم يأمرون العرب عامة بالوقوف والإفاضة، ابتدعوا لأنفسهم البقاء في الحرم واعتذروا لذلك بقولهم: ((نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس)) فر((لا نفيض إلا من الحرم، نحن قطين الله فلا نخرج من حرمة))<sup>(١)</sup> وجعلوا لأنفسهم حق تمييز غيرهم بما ميزوا به أنفسهم. ثم ترقوا في الامتياز فحرموا على أنفسهم انتقاط الأقط وسلء<sup>(٢)</sup> السمن ماداموا حُرماً، كما حرموا الاستظلال بغير بيوت الأدم محرمين، وكما حرموا على أنفسهم أن يدخلوا بيتاً ماداموا محرمين. ثم حظروا على غيرهم الأكل من غير طعام الحرم، فمن جاء بطعام من غير الحرم، وكان حاجاً أو معتمراً حرم عليه الأكل منه، ولم يقتصر تحكهم بغيرهم على هذا، بل تعداه إلى الثياب فحجروا على كل إنسان من غيرهم الطواف بالبيت أول ما يقدمون إلا بثياب الحمس، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا عراة ومن طاف في غير ثياب الحمس حرمت عليه بعد الطواف فألقاها ولم يُنتفع بها قط<sup>(٣)</sup>.

وكانت العرب إذا أحرمت لم تدخل البيوت من أبوابها وإنما تنقب في ظهورها نقباً فتدخل منه وتخرج ويزعمون أن ذلك من البر، إلا الحمس فإنهم امتازوا من سائر

(١) العمدة ١٨٨/٢. ولأبي عبيدة: (كتاب الحمس في قريش) الفهرست لابن النديم ص ٨٠، وانظر تعدادهم أيضاً في (المحبر) لمحمد بن حبيب ص ١٧٨.

(٢) تيسير الوصول ٣٠٥/١، والقطين: الجيران.

(٣) سأل السمن طبخة وعالجه، والأقط: شيء يتخذ من المخيض الغنمي وأقط الطعام: عمله به (القاموس).

(٤) انظر تفصيلاً أو في من هذا في (المحبر) لمحمد بن حبيب ص ١٨٠.

العرب بدخول البيوت من أبوابها وهم محرمون، وجروا على ذلك حتى في الإسلام وكانوا يستنكرون من غير الحمس أن يدخل أحد بيته محرماً من بابه، فيذكرون أنه ((بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري فقالوا: يا رسول الله إن قطبة رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب!!)) فقال له: ((ما حملك على ما فعلت؟)) قال: ((رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت)) قال: ((إني رجل أحمسي)) قال له: ((فإن ديني دينك))<sup>(١)</sup> ورووا مثل هذا الحادث لصحابي اسمه رفاعة فلما خرج مع النبي من الباب قالوا ((يارسول الله نافع رفاعة))<sup>(٢)</sup>.

استغلوا سذاجة من حولهم من الأعراب لينفردوا بالحرمة والتقدیس فيأمنوا بعدها على تجارتهم ويستفيدوا من هذا التمويه ثراء وبسطة عيش. فلما جاء الإسلام دكت الامتيازات كلها جملة واحدة ونزل قول الله لقريش:

{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [البقرة: ١٩٩/٢] كما نزل قوله تعالى في نسخ إتيان البيوت من ظهورها: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آتَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [البقرة: ١٨٩/٢] فشعائر الدين بعد هذه الآية يذعن لها الناس جميعاً بلا تمييز.

واستوى في الحج القرشي وغيره بعد أن كانت قريش تنفرد دون جميع الحجاج إذا خرجوا من مكة يوم التروية وترووا من الماء، فنزل الحمس أطراف الحرم من نمرة يوم عرفة، وتنزل الحلة عرفة. وقد أجمع أصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف مع الناس بعرفة في سنته التي دعا فيها قبل الهجرة ولم يقف مع الحمس في طرف الحرم. فكان هذا مما جلب نظر الناس، وروى ابن هشام عن جبير<sup>(٣)</sup> بن مطعم أنه قال: ((ضللت بغيراً في يوم عرفة، فخرجت أقصه وأتبعه بعرفة إذ أبصرت محمداً بعرفة! فقلت: هذا من الحمس، فما يقفه هاهنا؟! فعجبت له))<sup>(١)</sup>.

تزيد قريش في دينها أو في ابتداعها على الأصح، علم بعض الاحتيال، وما زال الدين - كما عليه الوطنية في أيامنا - مبتلى بمكر المرتكبين والمحتالين ورواد المنافع. فكان إذا أحدث أحد العرب حدثاً وخاف على نفسه وجد في حرمة الشهر وحرمة الحرم خير معاذ يعتصم به من أن يناله القصاص. والظاهر أن أمثال هذه الحوادث تكررت حتى حلت من حياة العرب الاجتماعية محل العادات المستحكمة فقد ذكر الأزرقى أنه كان ((من سننهم أن الرجل يحدث الحدث: يقتل الرجل أو يطمه أو يضربه فيربط لحاء من لحاء<sup>(٢)</sup> الحرم قلادة في رقبته ويقول: ((أنا ضرورة)). فيقال: ((دعوا الضرورة بجهله وإن رمى بجعره<sup>(٣)</sup> في رحله)). فلا يعرض له أحد.

(١) انظر لباب النقول في أسباب النزول.

(٢) كان جبير هذا من أصحاب التجارات المشهورين، ولما انقضت بيعة العقبة وعرفت قريش أمرها وأرسلت تتعقب اليثريين، ووقع في قبضتها سعد ابن عباد، أجاره جبير بن مطعم والحارث بن أمية، إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما التجارية كما مرّت بالمدينة.

(٣) انظر ١٩٤/٢.

(٢) اللحاء ما على العود من قشر، بالمد والقصر لغة.

(٣) الجعر ما يبس من العذرة.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم (( لا ضرورة في الإسلام، وإنه من أحدث حدثاً أخذ بحدثه ))<sup>(١)</sup> اهـ.

إذا أضفت هذه التزييدات إلى ما في نفوس العرب من نفرة للخضوع حتى للدين، استطعت أن تستسيغ وجود قبائل تستهين بالحرمان وتتجاهل مكان قريش فتراها كغيرها من سائر العرب دماء وأموالاً، بل تذهب أبعد من ذلك فلا ترعى حرمة شهر ولا أيام حج. ومن هنا تخوف الناس بعض التخوف من ورود الأسواق عُزلاً، ولو كانت مواسمها في الأشهر الحرم. فإن كنت علمت أن عكاظ ومجنة وذا المجاز، الأسواق الكبرى للعرب تقام في الأشهر الحرم فاعلم أن الأمن فيها هو أكثر حالها والأغلب من أيامها وأن ما وقع فيها من أحداث استحلّت فيها حرمتها، صادر ممن لا يرى لها حرمة وهم أقلية قلما يقيم المؤرخون لها حساباً.

انقسم العرب إزاء حرمة هذه الأسواق أقساماً ثلاثة:

١- فأما قسم فقد استحلوا المظالم فيها في أشهر الحج، ففعلوا المناكر وأحلوا الحرام وفتكوا وسرقوا ولم يحفظوا للمكان، ولا للشهر ولا لقريش حرمة ما، فسموا [المحلين] لما استحلوا من الحرم وهم قبائل من أسد وطيب وبكر بن عبد مناة وقوم من بني عامر بن صعصعة<sup>(١)</sup> وأناس من خثعم وقضاعة. وغير هؤلاء أيضاً: ذؤبان وصعاليك وخلعاء، ممن نفاهم قومهم وتبرؤوا منهم.

٢- وأما القسم الثاني فأقوام حفظت للمكان قدسه وللشهر حرمة وللقوم على البيت منزلتهم، فكفت عن الفتك والسرقة وسائر المظالم وأنكرت على المحلين استخفافهم، ونصبت أنفسها لنصرة المظلوم وحقن الدماء ومنع الأذى فسموا بـ[الذادة المحرمين] وهم أغلب العرب.

٣- والقسم الثالث ((أهل هوى شرعه لهم صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم، فإنه أحل قتال المحلين))<sup>(٢)</sup> فيلبسون سلاحهم ليدفعوا عن الناس أذى المحلين من الفريق الأول. وكان في هؤلاء أيضاً قبائل من طيء وخثعم، وناس من بني أسد بن خزيمة.

أما سائر العرب ممن لم نعد، فهم في صف المحرمين: يضعون أسلحتهم في الأشهر الحرم و((كان الرجل إذا خرج من بيته حاجاً أو داجاً (والداج التاجر في الأشهر الحرم) أهدى وأحرم ثم قلد وأشعر<sup>(١)</sup> فيكون ذلك أماناً له في المحلين. وكان الحاج إذا انفرد وخشي على نفسه ولم يجد هدياً، قلد نفسه بقلادة من شعر أو وبر، وأشعر نفسه بصوقة فيأمن بها. وإذا صدر من مكة تقليد من لحاء شجر الحرم. وكان الداج وغيره إذا أم البيت وليس له علم بذلك ولا هو في سيماء المحرم أخذ المحلون

(١) أخبار مكة ص ١٣٢.

(٢) انظر كتاب الأزمنة والأمكنة ١٦٦/٢.

(٣) الأزمنة والأمكنة ١٦٦/٢.

(٤) أهدى: ساق الهدى؛ وهو ما يهدى إلى الحرم من النعم. وأحرم: دخل بالحج. وقلد: من تقليد الهدى وهو أن يعلق بعنق البعير قطعة من جلد ليعلم أنه هدي فيكف الناس عنه. وأشعر البدنة (الناقة) إشعاراً حز سنامها حتى يسيل منه الدم فيعلم أنها هدي.

ما معه. وكانت العرب جميعاً تنزع أسننها في الأشهر الحرم، غير المحليين والذين يقاتلونهم، فإنهم كانوا يقاتلونهم حتى في الأشهر الحرم<sup>(٢)</sup>.

خير تلك الطوائف الطائفة الثالثة التي نعتها المرزوقي بأنها أهل هوى: إذ لا يكفي أن يكون الإنسان محرماً يرعى ذمام الشهر والمكان، كافاً أذاه عن غيره وهو ينظر إلى المحليين يسفكون الدم الحرام وينهبون المال الحرام. ليس من البر أن يترك هؤلاء وانتهاكهم بل البر كل البر أن يكون المرء محرماً ثم مدافعاً عن المحرمين شضر هؤلاء المعتدين. وبذلك تستأصل شافتهم ويحسم ضرهم. أما كف اليد والاقتصار عليه بينما العين تنظر مكان المستبيحين ومدى أذاهم في الآمنين البريين، فإنه إن لم يكن إثماً لم يكن براً وإن دان به أكثر العرب، ولعل خير ما يمثل هؤلاء كلمة الزبير بن عبد المطلب أحد الحمس وكان شاعراً خطيباً سيداً جواداً:

ولولا الحمس لم يلبس رجال	ثياب أعزة حتى يموتوا
ثيابهم شمال أو عباء	بها دنس كما دنس الحميت <sup>(١)</sup>
ولكنا خلقنا إذا خلقنا	لنا الحبرات والمسك الفتيت
وبقطع نخوة المختال عنا	رُقاق الحد ضربته صموت
بكف مجرب لا عيب فيه	إذا لقي الكريهة يستميت <sup>(١)</sup>

بقي أمر، وهو أي الحرمتين العرب أكثر رعاية لها: الشهر أم الحرم؟ فإن المرء ليحب أن يعرف الواقع ليستطيع أن يتم فكرته عن مفاضلتهم بين الحرمتين. ومن ينتبغ ما وراء الحوادث يعرف أن العرب أرعى لحرمة الحرم منها لحرمة الشهر، ولنا على ذلك أدلة:

١- منها أن حرمة الحرم لا تكلفهم إلا رعاية مكان محدود مدة إقامتهم فيه فهي ميسورة لهم وقل أن حفظ التاريخ انتهاكاً لحرمة الحرم. وليس كذلك حرمة الشهر فإن أمد رعايتها طويل جداً وهو ثلث السنة فيجب عليهم أن يكفوا عن الاعتداء مدة أربعة أشهر في أي بقعة كانوا، وهو قيد صعب على طبيعة العربي النفور من القيود.

٢- كثير من القبائل انتهكت حرمة الشهر ولم تجرؤ على انتهاك حرمة الحرم على حين أن ثأرها وشرفها - وأنت تعلم قيمتها عندهم - كانا يتقاضيانها غض النظر عن حرمة الحرم. كان من هؤلاء القبائل قريش نفسها. فسيمر بك في حرب الفجار التي كانت بين قريش وأحلافها من جهة وهوازن وقيس وأحلافهما من جهة أخرى، أن القوم اقتتلوا بعكاز في الشهر الحرام فاستووا جميعاً في انتهاك حرمة مع أن قريشاً هي القيمة على دين العرب بحكم مكانها من البيت.

إلا أن قريشاً لما انسلت من عكاز حين أتاها نبأ اعتداء أحد أحلافها على هوازني، خوفاً من هوازن التي كانت متكاثرة في السوق، علمت هوازن بالأمر فاتبعت قريشاً فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلت قريش الحرم فأمسكت عنهم هوازن رعاية لحرمة، فمهم جميعاً يرون للحرم من الرعاية ما لا يرون للشهر.

<sup>(٢)</sup> الأزمنة والأمكنة ١٦٦/٢.  
<sup>(١)</sup> رسائل الجاحظ ص ٧٢، (جمع السندوبي)، الحميت: الزق الصغير، وعاء السمن مئن بالرُب - القاموس.

٣- للعرب أساطير تقص العقاب الشديد الذي نزل بمن لم يبال حق الحرم، وليس لهم في قوتها أساطير تعاقب من انتهك حرمة الشهر. وقرأ إن شئت حديث إساف ونائلة<sup>(١)</sup> اللذين مسخا صنمين لأنهما لم يحفظا للبيت حرمة، وقرأ إن شئت الأحداث التي ترويها سيرة ابن هشام (١٨:١ فما بعد) في ذلك والأشعار، وكلها متضافرة في بيان تعظيم حرمة البيت والعقاب الشديد الذي حل بمن أراد انتهاكها.

٤- أمر النسيء وهو تلاعب محض بالتقاليد التي تخص الشهر، ولم يؤثر لهم مثله ولا قريب منه فيما يخص الحرم. جاء في أمالي القالي: [أنهم كانوا إذا صدروا عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة فقال: ((أنا الذي لا أعاب ولا يرد لي قضاء)). فيقولون له: ((أنسنا شهراً)) أي أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر. وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم) لا تمكنهم الإغارة فيها. لأن معاشهم كان من الإغارة: فيحل لهم (نعيم بن ثعلبة) المحرم ويحرم عليهم (بدلاً منه) صفرًا؛ فإذا كان في السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفرًا، فقال الله عز وجل: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيَحْرِمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ} [التوبة: ٣٧/٩].

وقال الشاعر:

ألسنا الناسئين على معد  
شهور الحل نجعلها حراماً<sup>(١)</sup>

هذا وقد وقر في نفوس العرب ((أن مكة لا تقر فيها بغياً ولا ظلماً، لا يبغي فيها أحد إلا أخرجته، ولا يريد لها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه<sup>(٢)</sup>)). وذهب الزرقاني إلى أنها سميت (بكة) لأنها تبك (تدق) أعناق الجبابرة.

فللحرم في صدورهم رهبة لا يدانيه فيها غيره.

رأيت أن اسم الحرم الذي تضاف إليه قريش، كان خير حارس لتجارنتها وعيرها. تسير بفضلها آمنه مطمئنة، تتمتع بالرعاية والحرمة إلى اليمن وإلى العراق وإلى الشام.

وقد ذكر النيسابوري في تفسيره (عند الكلام على الإيلاف) أن أشراف مكة لما كانوا يرتحلون للتجارة في الشتاء والصيف كانوا ((يأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب. وإن ملوك النواحي كانوا يعظمونهم ويقولون: هؤلاء جيران بيت الله وقطان حرمة؛ فلا يجترئ عليهم أحد)). وظاهر أن المقصود بملوك النواحي أمراء العرب في اليمن والعراق والشام. فإن هؤلاء هم الذين يعظمون البيت؛ لا قيصر وكسرى.

(١) في كتاب الأصنام للكلبى: أن إساف رجل من جرهم يقال له إساف ابن يعلى، ونائلة بنت زيد من جرهم وكان يتعشقها في أرض اليمن، فحجا فدخل الكعبة، فوجدوا غفلة من الناس وخلوة من البيت، ففجر بها فيه، فمسخا. فأصبحوا فوجدوهما ممسوخين فوضعهما ليتعظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبداً معها. ثم صارت قريش تنحر عندهما النسائك.

(١) ٤: ١ طبع دار الكتب المصرية وانظر مروج الذهب للمسعودي ٣٦٧/١.

(٢) شرح المواهب (للزرقاني) ٩٢/١.



هذا مكان قريش من العرب في الأعم الأغلب، ولا حكم للنادر، ولو لم يكن ذلك مستتباً لقريش ما كان هناك من معنى لسعي هاشم في طرق أبواب الأسواق الخارجية يفتحها لقبيلة، بينما تجارته المحلية غير آمنة. فهو وإخوته ما شرعوا بمفاوضاتهم التجارية مع دول الرومان والفرس واليمن والحبشة إلا وقد فرغوا من الاطمئنان إلى الطرق الموصلة إلى هذه الممالك.

## الباب الثاني

### أحداث قريش التجارية

- أ- قريش النجار
- ب- إيلاف قريش
- ج - حرب الفجار
- د- حلف الفضول

## أ- قريش التجار

- ١ -

في سبب تسمية هذه القبيلة قريشاً أقوال ماثورة في كتب السيرة والأدب تبلغ العشرين عدداً. أما القرش في اللغة فهو الجمع وإليك زبدة هذه الأقوال:

١- سموا قريشاً لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرقهم في البلاد وذلك حين غلب على مكة<sup>(١)</sup> قصي بن كلاب الذي سمي مجمعاً لذلك، وقال فيه الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً  
به جمع الله القبائل من فهر

٢- أو أنهم كانوا أهل تجارة وتكسب وضرب في البلاد ابتغاء الرزق، يتقرشون البياعات فيشترونها، ولم يكونوا أهل زرع وضرع: من قولهم فلان يتقرش المال أي يجمعه.

٣- أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدون خلتها: فمن كان محتاجاً أغنوه ومن كان عارياً كسوه، ومن كان معدماً واسوه، ومن كان طريداً آووه، ومن كان خائفاً حموه، ومن كان ضالاً هدوه إلخ..

٤- أو لأن أباهم النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا: تقرش.

٥- أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا: كأنه جمل قريش، أي شديد.

٦- أو لأن قُصياً كان يقال له: القرشي.

٧- أو سميت القبيلة بمصغر القرش وهي دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها<sup>(١)</sup>.

٨- أو سميت بقريش بن يخلد بن غالب بن فهر، وكان صاحب عيرهم أو دليلها، فكانوا يقولون: قدمت عير قريش خرجت عير قريش<sup>(١)</sup>.

فهذه ثمانية وجوه في هذا الاسم. وكل وجه منها معه شفيح من معنى أو مناسبة، ينفذ به إلى القبول.

(١) أكبر محطة تجارية داخل جزيرة العرب قبل الإسلام، لوقوعها وسط إحدى الطريقتين التجاريين الكبيرين للجزيرة كما مر بك أول هذا الكتاب، ثم لاتصالها بنجد والعراق ثم الفرس بطرق القوافل، ومينائها جدة يصلها بالبحر الأحمر، وإن كانت رحلات قريش البحرية هي إلى الحبشة فقط عن طريق اليمن.

(١) نسبوا هذا القول إلى ابن عباس، جاء في خزنة الأدب ١/١٨٩ (السلفية): ((سأل عمرو بن العاص عبد الله بن عباس: بم سميت قريش؟ قال: بدابة في البحر تسمى قريشاً، لا تدع دابة إلا أكلتها، فدواب البحر كلها تخافها)).

قال المشمرخ بن عمرو الحميري:

وقريش هي التي تسكن البحـ  
بها سميت قريش قريشاً)) اهـ

وكان هذا البيت تعريف لغوي منظوم كما تنظم المتون، وزاد آخرون من بعده: قال المشمرخ بن عمرو الحميري:  
تأكل الغث والسمين ولا تترك فيه لذي جناحين ريشاً

هكذا في البلاد شأن قريش  
يأكلون البلاد أكلاً كميثاً

انظر حواشي الكشاف للزمخشري عند الكلام على سورة (إيلاف قريش).  
(١) انظر مادة قريش في القاموس وشرحه تاج العروس، وفي لسان العرب وخزنة الأدب ١/١٨٩ (السلفية).

إلا أن منها جميعاً قولين يظفران على التمهيص، أما الأول فهو أنه أطلق على النضر بن كنانة، فكل من كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. وهناك مذهب آخر له شأنه من حيث رواته الثقات، يرمي إلى أن هذا اللقب أطلق على حفيده (فهر بن مالك ابن النضر) نقله صاحب المصباح عن السهيلي وشارح القاموس عن ابن الكلبي وقال: ((إنه مرجع في هذا الشأن)) وذكر أيضاً في سيرة ابن هشام. ونحن إذا دققنا في صيغة الرواية عند ابن هشام وصاحب المصباح وجدناها مبنية للمجهول: ((ويقال..)) وبهذا نعلم أن الراويين ضعفاها فكيفيانا بذلك المؤونة<sup>(٢)</sup>. وقال الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً      به جمع الله القبائل من فهر<sup>(١)</sup>

المتقدم الذكر لا يمنع أن يكون ولد النضر جميعاً من قريش والنص على فهر لا يخرج إخوته وأولاد عمه من القرشية.

ولابد من التنبيه هنا على حجة قوية ولعلها قاطعة، جاءت في سيرة ابن هشام وهي كفيلة بالفوز بطمأنينة الباحث، فقد ذكر بيتاً لجرير في مدح هشام بن عبد الملك يعني فيه برة بنت مر أخت تميم بن مر وهي أم النضر هذا، وذلك قوله:

فما الأم التي ولدت قريشاً      بمقرفة النجار ولا عقيم

وما قرم بأنجب من أبيكم      وما خال بأكرم من تميم<sup>(٢)</sup>

وجرير من تميم.

وأما الثاني ففي بيان السبب في هذه التسمية وأي التفاسير هو الأرجح:

يستبعد الذهن أن تكون دابة البحر هي التي أوحى هذا الاسم ولو روي هذا القول عن ابن عباس: لبعد العرب حول مكة عن البحر وجهلهم حيوانه. ففي هذا الشرح تكلف ظاهر كالذي في اشتقاقه من الجمل القريش. والذي لا يجد المرء غيره مذهباً يرتضيه هو أن تكون (قريش) من القرش بمعنى الجمع، لما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع<sup>(١)</sup> المال إذ كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة. ذكر ابن هشام أن القرش: التجارة والاكتساب، وأن القروش (أيضاً) التجارة والاكتساب وأتى على ذلك بشاهد من كلام العرب. لكن الجاحظ أزال اللبس في ذلك وأحسن الإيضاح حين قال في صدد كلامه عنهم:

<sup>(٢)</sup> ومع ذلك فقد قال في العقد الفريد (٢٠٣/٢): ((وإنما جمع قصي إلى مكة بني فهر بن مالك، فجد قريش كلها فهر بن مالك، فما دونه قريش وما فوقه عرب)).  
وجاء في خزنة الأدب ١٩٠/١: ((قال عبد الملك بن مروان: سمعت أن قصياً كان يقال له القرشي، لم يسم قرشي قبله)).

<sup>(١)</sup> البيت لحذافة بن غانم العدوي انظر طبعة لجنة التأليف للعقد الفريد ٣١٢/٣.  
<sup>(٢)</sup> سيرة ابن هشام ٩٠/١، والإقراف: أن تكون الأم عربية والأب غير عربي، والقرم: السيد والفحل.  
<sup>(٣)</sup> انظر مروج الذهب للمسعودي ٣٦٩/١ حيث يقول: ((وأخذت قريش الإبلان من الملوك... وتقرشت، والتقرش: الجمع، ومنه قول ابن حازم البكري: إخوة قرشوا الذنوب علينا في حديث من دهرنا وقديم)).

((وبالتجارة كانوا يعرفون، ولذلك قالت كاهنة اليمن: ((الله در الديار، لقريش  
التجار)) وليس فوقهم قرشي، كقولهم هاشمي وزهري وتميمي، لأنه لم يكن لهم أب  
يسمى قريشاً فينتسبون إليه، ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش))<sup>(١)</sup>.

وقد تقدم الدليل آنفاً أن النضر هو قريش ولا داعي لتسميته بذلك إلا معنى التجارة  
والكسب.

وقريش في الأصل طبقتان: قريش البطاح وقريش الظواهر<sup>(٢)</sup>.

أما قريش البطاح فهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها وهم سادة القرشيين، فيهم  
بنو هاشم وبنو أمية ومنازلهم الشعب بين أخشبي مكة<sup>(١)</sup> وهم صُبابة قريش وصميمها  
وساداتها وأغنياؤها، اختطفوا منازلهم في البطحاء ونزلوها.

وأما قريش الظواهر فهم الذين لم تسعهم الأباطح فنزلوا أعلى مكة خارج الشعب،  
فانتشروا حولها في ظواهرها وهم دون أولئك شرفاً وغنى وشأناً. قال في لسان  
العرب: ((وقريش البطاح أكرم وأشرف من قريش الظواهر)). واستشهد لذلك بقول  
الشاعر<sup>(٢)</sup>:

فلو شهدتني من قريش عصابة

قريش البطاح لا قريش الظواهر

ويقول الفرزدق في مباحاته جريراً:

لنا، والجبال والراسيات

تنح عن البطحاء إن قديمها

وقول الكميت:

ح وحلّ غيرك بالظواهر<sup>(١)</sup>

فحللت معتلج البطا

وهناك قرشيون استوطنوا الطائف وغيرها، حيث اتخذوا الأموال والمزارع فلم  
ينسبوا إلى ظواهر ولا إلى بطاح. وروى صاحب تاج العروس أن ((في قريش من  
ليس بأبطحية ولا ظاهرية)).

\* \* \*

(١) رسائل الجاحظ ص ١٥٦.

(٢) عدّ المسعودي في قريش البطاح: بني عبد مناف وبني عبد الدار وبني عبد العزى، وبني زهرة وبني مخزوم وبني  
تيم بن مرة وبني جمح وبني سهم وبني عدي وبني عتيك بن عامر بن لؤي.

وعد في قريش الظواهر: بني محارب والحارث بن فهر، وبني الأدرم بن غالب بن فهر وبني هصيص بن عامر بن  
لؤي، الصفحة السابقة، والعمدة ١٨٤/٢ والمحرر ١٦٧.

(١) أخشبا مكة جبلاها: أبو قبيس والذي يقابله.

(٢) هو ذكوان مولى عبد الدار يقوله للضحاك بن قيس الفهري. انظر مروج الذهب للمسعودي ٣٦٩/١.

(٣) شرح شواهد المغني ص ٣.

(٤) انظر لسان العرب وتاج العروس مادتي: بطح، ظهر.  
والكميت يخاطب هنا هشام بن عبد الملك، وقبل هذا البيت:

يا بن العقائل للعقا

ئل والجحاجة الأخير

إن الخلافة والإلا

ف برغم ذي حسد وواغر

دلغا من الشرف التليد

د إليك بالرغد المواقر

فحللت.....

أول بان لمجد قريش وموطد لنفوذها هو قُصي بن كلاب، إذ استنقذ أمر مكة وولاية البيت من جرهم وخزاعة بعد حرب شديدة، وجمع أشتات قومه، فأنزلهم حول الحرم وملك أمرهم ((فكان أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه. فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله، وقطع مكة رباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها... فسمته قريش مُجمعاً لما جمع من أمرها وتيمنت بأمره فما تتكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش، ولا يتشاورون في أمر نزل بهم، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره إلخ))<sup>(١)</sup>.

فأنت ترى أن قصياً مكن دعائم قريش، ونظم أمورهم ثم جعل من داره التي اتخذها لنفسه وجعل بابها إلى الكعبة مجلس شورى لقريش ودار حكومة معاً وسماها دار الندوة. وكانت قريش بعده لا تقضي أمراً إلا فيها، فيها ينظمون غيرهم إلى الشام أو اليمن، فلا تخرج غير إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها، ويتفاوضون في أمر تجارتهم وحربهم وسلمهم. وفيها كان معظم المؤامرات التي ائتمروا بالنبي وأصحابه في بدء الدعوة، وكانت لهم محكمة يلجأ إليها المتخاصمون، ويقضي فيها شيوخهم المقدمون. ولا ريب أن أمور التجارة القرشية بعد الذي صنع قصي لهم اطردها تقدمها وازدهارها فاتسعت ونمت.

وأراد قصي تثبيت هيبة قريش في نفوس العرب ففرض عليهم خرجاً يخرجونه في كل موسم من أموالهم، فإذا كان الحج قال قصي:

((يا معشر قريش: إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وأهله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم)).

فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس أيام منى فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد<sup>(١)</sup> من الحجاج وأهل مكة. وهذه هي الرفادة.

امتدت أيام قصي حتى كبر فعهد إلى ولده عبد الدار باللواء والسقاية والرفادة، لأنه لم يشرف في حياته وكان بكره؛ فقد بطأ به عمله عن أن يلحق بأخيه عبد مناف الذي بلغ في الشرف والسيادة شأواً بعيداً، فخص قصي عبد الدار بذلك جبراً له حتى يلحق بأخيه. ثم تنازع على الشرف بنو عبد الدار وبنو عبد مناف وتحزب لكل من الفريقين أقوام وأفضى النزاع إلى الاستعداد للحرب، وتعاهد عند الكعبة بنو عبد الدار وحلفاءهم على النصر فسموا الأحلاف، وتعاهد بنو عبد مناف وغمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيباً فسموا المطيبين، ثم كان سعي بين الفريقين انفرج عن صلح بينهما على أن يكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة وأن يكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار. فتحاجز الناس على ذلك حتى أتى الإسلام وهم عليه.

ازدهر مجد قريش التجاري وبلغ أوجه في الحقيقة، بهاشم بن عبد مناف، لأن تجارة قريش قبله لم تكن تعدو مكة ((وإنما كان يقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها

(١) سيرة ابن هشام ١/١١٨.

(١) سيرة ابن هشام ١/١٢٢.

منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب))<sup>(١)</sup>. حتى جاء هاشم ففتح في وجوههم ما فتح.

كانت لهاشم دون إخوته الرفادة والسقاية، فقام بأمرهما إذ كان أخوه عبد شمس رجلاً سفاراً مقلداً ذا عيال. وهاشم موسر طماح بعيد النظر، وقد ضرب القرشيون على عهده في الأرض فأكثرُوا الأسفار التجارية. ومن الغريب أن أولاد عبد مناف كلهم حليفو أسفار طوحتهم الغربية فمات كلُّ بناحية: أما هاشم فمات بغزة من أرض الشام فسميت به غزة هاشم، وأما أخوه المطلب فقد مات بردمان من أرض اليمن، وأما أخوه نوفل فمات بسلمان من أرض العراق، وعبد شمس مات بمكة.

اضطلع هاشم بأعباء الأمور وأكثر من الأسفار وهو أول من عقد المعاهدات التجارية لقريش (كما سيأتي قريباً عند الكلام على الإيلاف) فثمر الأموال وارتفع له ذكر نابه بين قومه واستفاضت له مكارم سار بها الركبان<sup>(١)</sup> قال ابن سعد:

((كان اسم هاشم عمراً فأصابته قريشاً سنوات ذهبين بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له فحمله في الغرائر<sup>(٢)</sup> على الإبل حتى وافى مكة فهشم ذلك الخبز يعني كسره وثرده ونحر تلك الإبل ثم أمر الطهاة فطبخوا. ثم كفاً القدور على الجفان فأشبع أهل مكة. فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التي أصابتهم فسمي بذلك هاشماً، وقال ابن الزبيري في ذلك:

ورجال مكة مستنون عجاف

عمرو العلى هشم الثريد لقومه

وقال وهب بن عبد قصي في ذلك:

وأعيا أن يقوم به ابن بيض

تحمل هاشم ما ضاق عنه

من أرض الشام بالبر النقيض

أتاهم بالغرائر متآفات

وشاب الخبز باللحم الغريض

فأوسع أهل مكة من هشيم

من الشيزاء حائرها يفيض<sup>(٣)</sup> اهـ

فظل القوم بين مكلمات

والظاهر أن هاشماً لقي مجداً وعزاً ومكانة لم يحظ ببعضها أحد، فآثار بذلك حسد الأقران له لما انقطعوا دون بلوغ شأوه وأورثوا هذا الحسد أبناءهم من بعدهم، ولم يشفع لهاشم ما قدم لقومه من خير وما رفع لهم من ذكر وما وطد لهم من تجارات؛ فإن ابن سعد يروي لنا بعد ما تقدم من صنع هاشم، أول ما زرع الشر بين بني أمية وبني هاشم قال: ((فحسد هاشماً أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان ذا مال فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمت به ناس من قريش فغضب، ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، فلم تدعه قريش وأحفظوه.

(١) الأملالي ١٩٩/٣.

(٢) الطبقات لابن سعد ٤٣/١ طبعة ليدن.

(٣) الطبقات ٤٤/١، الغرائر جمع غرارة وهي: الجوالق (العدل). متآفات: ممتلئات. الغريض: الطري. والشيزاء ممدود شيزي: وهو الخشب الأسود يعمل منه القصاع. والحائر: الودك (الدهن).

(٣) الطبقات ٤٤/١، الغرائر جمع غرارة وهي: الجوالق (العدل). متآفات: ممتلئات. الغريض: الطري. والشيزاء ممدود شيزي: وهو الخشب الأسود يعمل منه القصاع. والحائر: الودك (الدهن).

فقال لأمية: فإنني أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين؛ فرضي أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، فنفر هاشماً عليه، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية<sup>(١)</sup>.

جرى بنو قصي على سنة أبيهم في إطعام الحاج إلا أن هاشماً امتاز منهم جميعاً فسار بهذه السنة إلى شوط بعيد لم يبلغه أحد قبله ولا بعده، ولا غرو فقد كان من الغنى بالمكان المشهور وأسعفه في التجارة حظ قلماً أتيج لغيره، وعلى يده وأيدي إخوته فتحت لقريش أسواق في بلاد الروم وفارس والحبشة، فصنع للحاج ما لم يصنعه أحد. ونحن عارضون لك من ذلك ما وصفه ابن أبي الحديد، ومنبهوك خاصة على شرف هاشم وكمال مروءته في حرصه على ألا يطعم الحاج إلا ما حل كسبه.

كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشاً فيقول: ((يا معشر قريش أنتم سادة العرب، أحسنها وجوهاً وأعظمها أحلاماً وأوسطها أنساباً وأقربها أرحاماً، يا معشر قريش أنتم جيران بيت الله أكرمكم بولايته وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ منكم جاراً من جاره، فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد: فرب هذه البنية، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه، ألا وإني مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام فواضعه، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل. وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً، لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يغتصب، فكانت قريش تخرج من صفو أموالها ما تحتمله أحوالها، وتأتي به إلى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاج<sup>(١)</sup> اهـ.

والمرء - وإن حدثته نفسه فيما روى ابن أبي الحديد - موقن أن هاشماً في الغاية من النبل والشرف وتحري الطيب من المكاسب. كان إذا جمع الأموال من قريش يأمر بحياض<sup>(٢)</sup> من آدم فتجعل في موضع زمزم ثم يستقى فيها الماء من آبار مكة فيشربه الحاج وكان يطعمهم أول ما يطعم، قبل التروية بيوم، بمكة وبمنى وجمع<sup>(٣)</sup> وعرفة. وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر، ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى - والماء يومئذ قليل - في حياض من الأدم إلى أن يصدروا من منى فتقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم.

لم تكن أمور قريش وخدمة الحجيج لتصرف هاشماً عن تجارته وأسفاره، بل كان بين هذا وذاك يقود قوافل قريش إلى الشام وقد تزوج قبيل وفاته في إحدى هذه الرحلات. والفضل لابن سعد في وقوفنا على بعض تفاصيل للغير التي خرج بها هاشم، كما له الفضل في معرفتنا ممارسة المرأة العربية للتجارة ومشاركة الرجال في الجاهلية بالخروج إلى الأسواق والاتجار فيها قال:

(١) الطبقات ٤٤/١.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤٥٤/٣.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٤٥/١.

(٣) المزدلفة.



((خرج هاشم في عير لقريش، فيها تجارات. وكان طريقهم على المدينة، فنزلوا بسوق النبط فصادفوا سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها. فباعوا واشتروا ونظروا إلى امرأة على موضع مشرف من السوق، فرأى امرأة تأمر بما يشتري ويبيع لها، فرأى امرأة حازمة جلدة، مع جمال. فسأل هاشم عنها: أيم هي أم ذات زوج؟ فقيل له: ((أيم كانت تحت أحيحة بن الجلاح فولدت له عمراً ومعبداً، ثم فارقتها)). وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، فإذا كرهت رجلاً فارقت، وهي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خدّاش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار. فخطبها هاشم فعرفت شرفه ونسبه، فزوجته نفسها ودخل بها وصنع طعاماً ودعا من هناك من أصحاب العير الذين كانوا معه وكانوا أربعين رجلاً من قريش فيهم رجال من بني عبد مناف ومخزوم وسهم، ودعا من الخزرج رجالاً وأقام بأصحابه أياماً. وعلقت [منه] سلمى بعبد المطلب فولدته وفي رأسه شبيبة فسمي شبيبة. وخرج هاشم في أصحابه إلى الشام حتى بلغ غزة فاشتكى فأقاموا عليه حتى مات فدفنوه بغزة ورجعوا بتركته إلى ولده))<sup>(١)</sup>.

ذكر ياقوت أن قبر هاشم بغزة حيث مات، وأنها لذلك يقال لها غزة هاشم، وروى لمطروود الخزاعي في رثائه:

مات الندى في الشام لما أن فيه بغزة هاشم لا يبعد

قال ياقوت: ((مات هاشم بغزة وعمره خمس وعشرون سنة وذلك الثابت، وقيل عشرون)). وفي النفس من هذا التقدير شيء لأن ما حفلت به حياة هاشم وما تم لقومه على يديه ينذر أن يكمل لابن خمس وعشرين.

قام بأمر قريش بعد هاشم أخوه الأصغر المطلب بن عبد مناف وكان ذا شرف في قومه وفضل وكانت قريش إنما تسميه الفيض لسماحته<sup>(٢)</sup> وفضله، وقد ضم إليه ابن أخيه شبيبة بن هاشم في أحد أسفاره فدخل به مكة مردفاً إياه على بعيه، فظنت قريش أنه غلامه فقالوا: عبد المطلب، فقال المطلب: ويحكم إنه شبيبة ابن أخي هاشم قدمت به من المدينة. ولما خرج المطلب في رحلة له إلى اليمن مات بردما، وكان آخر من مات من بني عبد مناف: نوفل الذي تقدم أنه مات بسلمان من أرض العراق، فذكرهم مطروود بن كعب الخزاعي في رثائه فقال:

أربعة كلهم سيد أبناء سادات لسادات

ميت بردمان وميت بسـ مان وميت بين غزات<sup>(١)</sup>

...الخ.

(١) الطبقات ٤٥/١.

(٢) ابن هشام ١٢٨/١.

(٣) ومن الغريب الطريف أنه اصاب أولاد العباس بن عبد المطلب ما أصاب إخوة هاشم هؤلاء حتى قالوا: أبعد قبور إخوة على الأرض قبور أولاد العباس: فعبد الله بن عباس الحبر دفن في الطائف، والفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ مات في طاعون عمواس بالشام أيام عمر، وعبيد الله بن عباس الجواد مات بالمدينة، وقثم بن عباس شبيبة النبي ﷺ مات بسمرقند زمن معاوية، وعبد الرحمن بن عباس قتل بإفريقية زمن عمر اهد ملخصاً عن النوادر للقاللي ص ١٩٧.

ثم انتهت السقاية والرفادة من بعده إلى عبد المطلب بن هاشم فأدار أمور قومه، وأهم ما صنع لهم حفر بئر زمزم. وقد كان في قريش ذاهبية ومكانة.

وفي أيامه هددت مكة وتعرضت مكانتها التجارية للهبوط، إذ قصدتها أبرهة ((يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح تجارتها<sup>(١)</sup>)) فاعتصمت قريش في شغف الجبال وفي الشعاب تخوفاً من معرة الجيش، وأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة مع نفر من قريش يستعدي رب البيت على الأحباش بما لا غرض لنا بذكره هنا، إلا أننا لا نرى مندوحة عن التعرض للتقدمة التي قدم بها أنيس (سائس فيل أبرهة)، عبد المطلب إلى أبرهة إذ قال له: ((أيها الملك! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال))<sup>(١)</sup>. وكان أبرهة أخذ لعبد المطلب منتي بغير أصابها خارج مكة فأناه يستردها. وإذا كان مننتا بغير مما يملك مثل عبد المطلب وأضفت إلى ذلك ما يذكر الرواة من أن عبد المطلب أمهر امرأته، فاطمة بنت عمرو مئة ناقة ومئة رطل من الذهب<sup>(٢)</sup>، وهو لم يشتهر بكثرة الأسفار كما اشتهر غيره من القرشيين، أمكنك أن تتصور الغنى الذي تمتع به هذا البطن من العرب.

وعبد المطلب هذا هو الذي رأس وفد قريش الذي ذهب إلى سيف بن ذي يزن ليهنئه بالملك والظفر. وقد لقي الوفد ورئيسه خاصة من إجلال الملك وإكرامه ما تجد تفصيله في العقد الفريد (١٧٥/١) فارجع إليه ثمة، وكان قبيل ذلك قد وفد إلى معد يكرب حين ملك على اليمن<sup>(١)</sup>. وينسب إلى عبد المطلب هذه الأبيات يذكر فيها حرمة البيت ويعرض لجيش أبرهة:

نحن آل الله في ذمته  
إن للبيت لرباً مانعاً  
لم نزل لله فينا حرمة  
من يرد فيه بإثم يُخترم  
يدفع الله بها عنا النقم<sup>(٢)</sup>

ثم أفضى الأمر من بعده إلى أصغر أولاده العباس بن عبد المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ابن ثماني سنين. وبقي الأمر في يده حتى جاء الإسلام.

ومن تمام الوصوف أن نختصر هنا عن العقد الفريد توزيع (الوظائف الرسمية) على بطون قريش، في هذه الجمهورية التجارية في مكة، التي شبهها ((لامنس)) بجمهورية البنديقية وقرطاجة، لسيطرة الماليين من أرباب التجارة وأصحاب رؤوس الأموال<sup>(٣)</sup>.

(١) تاريخ العرب الأدبي للأستاذ رينولد نيكلسون ترجمة محمد حسن حبشي في الرسالة عدد ١٨٩، ٦٤.  
(٢) المصدر السابق. هذا وقد كان أبرهة بنى بيتاً مقدساً باليمن ليصرف الناس عن قصد الكعبة والحج إليها، فلما رأى اليمنيين وسائر العرب لا تتصرف عن الحج إلى مكة والطواف بكعبتها غاظه ذلك وعزم على هدمها. والحافظ له على ذلك - فيما أرى - تجاري قبل كل شيء. إذ في إقامة الحج في اليمن ونقل أسواق العرب الكبرى إليها ما يجلب الحياة والانتعاش والنشاط للحركة الاقتصادية باليمن، وذلك بالطبع يستتبع عمرانها وتقدمها وغناها.

(٣) إنسان العيون ٤٨/١.

(١) مروج الذهب ١٠/٢.

(٢) هذا وقد جاء في فهرست ابن النديم ص ٧ ((أنه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد آدم، فيه ذكر حق عبد المطلب ابن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل؟ صنعاء، عليه ألف درهم كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه، شهد الله والمكان)).

(٣) مجلة المشرق سنة ١٩٣٦ ص ٥٣٩.

قال ابن عبد ربه<sup>(١)</sup>:

((من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن، وهم هاشم وأمّية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجُمح وسهم:

١- فكان من هاشم: العباس بن عبد المطلب: يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الإسلام.

٢- ومن بني أمّية: أبو سفيان بن حرب: كانت عنده العُقَاب راية قريش، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العُقَاب، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه.

٣- ومن بني نوفل: الحارث بن عامر وكانت إليه الرفاعة.

٤- ومن بني عبد الدار: عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة والندوة.

٥- ومن بني أسد: يزيد بن زمعة بن الأسود، وكانت إليه المشورة. وذلك أن قريشاً لا تجتمع على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافقه والاهم عليه، وإلا تخير وكانوا له أعواناً.

٦- ومن بني تميم: أبو بكر الصديق. وكانت إليه في الجاهلية الأشناق وهي الديات والمغرم. فكان إذا احتمل شيئاً من الدماء فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه.

٧- ومن بني مخزوم: خالد بن الوليد، وكانت إليه القبة والأعنة، فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب.

٨- ومن بني عدي: عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به.

٩- ومن بني جُمح: صفوان بن أمّية وكانت إليه الأيسار وهي الأزلام يستقسم لهم بها إذا أرادوا أمراً من أمورهم العامة.

١٠- ومن بني سهم: الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لألّتهم.

فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية وهي السقاية والعمارة<sup>(١)</sup> والأشناق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجرة، إلى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على حال ما كانت في أوليتهم، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر.

(١) العقد الفريد ٣/٣١٣ فما بعد (مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٢هـ).  
(١) سيشرحها ابن عبد ربه بعد أسطر.

وجاء الإسلام فوصل لهم ذلك، فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر في بني هاشم. والعمارة هي ألا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجر ولا رفت ولا يرفع صوته، فكان العباس ينهاهم عن ذلك. وأما حلوان النفر: فإن العرب لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحداً فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً، فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهم العباس، وهو صغير فأجلسوه على المجن)).

\* \* \*

- ٢ -

هذا أمر سراة قريش ورؤسائهم فأما عامتهم فقد أخذوا يشغلون مركزاً ممتازاً بين قبائل العرب ساعدتهم على بلوغه مقامهم في مكة حيث البيت والحرم، إذ كانوا يقومون بصدانة البيت وما يحتاج إليه من خدمة وعناية، فكانت العرب تعرف لقريش شرفها ومكانتها وغناها كما تعرف لها زعامتها الدينية وسيطرتها على مكة وإدارتها، ((ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها: أهل الله))<sup>(١)</sup>، وأبلغ تعبير عما بلغته قريش في نفوس العرب من منزلة في الجملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد: ((الناس تبع لقريش في الخير والشر))<sup>(٢)</sup>.

والقرشيون من بين عامة سكان الحجاز أغنياء مهرة في أمور التجارة لا يكاد يعرف لكثير منهم عمل غير الاتجار ((ومن لم يكن من قريش تاجراً فليس بشيء))، فكانوا ينظمون غيرهم في الشتاء إلى اليمن حيث يتبايعون سلع الهند والحبشة المستقضية هناك فيحملونها إلى الحجاز، وعيراً في الصيف إذ يرحلون بما حملوا من الحبشة والهند وما عندهم أيضاً من محصول بلادهم كالتمر والأدم، إلى الشام فيفرغون في أسواقها: غزة وبصرى وغيرهما، ما في أحمالهم ويأخذون بدلاً منها ما في الشام مما لا يكون بالهند ولا بالحبشة.

وكانوا يسيرون قوافل عظيمة معها حامياتها وأدواتها ومعهم الأدلاء يسيرون بين أيديهم. أما الحاميات فأكثر ما تكون من بني غفار ومن إليهم، مما يتقاضون على مرافقة العير وحمايتها جُعلاً من قريش، هذا عدا عبدان قريش ومواليها وأحلافها.

اختلاط القرشيين بالروم والفرس والحبشان بسبب التجارة جعلهم يتميزون من سائر العرب بميزات أفادوها من هذا الاختلاط، فتعلم فريق منهم الكتابة من الحيرة ونشروها لما رجعوا إلى بلادهم فكان في مكة والطائف عدد يسيرون يحسنون الكتابة<sup>(١)</sup> ويذكرون أنه كان لبشر أخي أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل صحبة بحرب بن أمية التاجر القرشي الكبير ((لتجارته عندهم في بلاد العراق فتعلم حرب منه الكتابة، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب، فتعلم منه جماعة من أهل مكة فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبل الإسلام. ولذلك قال رجل كندي من أهل دومة الجندل يمن على قريش بذلك:

(١) الصاحبى ص ٢٣.

(٢) تيسير الوصول ٣/٣٠٤.

(٣) انظر بلوغ الأرب ٣/٣٦٨ وما بعدها. ولما دون عمر الديوان أمر عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان الجند، فلولا التجارة ما كان لقريش هؤلاء الكتاب المخضرمون.

لا تجحدوا نعماء (بشر) عليكم  
 أتاكم بخط الجرم حتى حفظتم  
 وأتقنتم ما كان بالمال مهملأ  
 فأجريت الأقالم عوداً وبدأة  
 وأغنيتم عن مسند الحي حمير  
 فقد كان ميمون النقيبة أزهر  
 من المال ما قد كان شتى مبعثراً  
 وطامنتم ما كان منه منقراً  
 وضاهيتم كتاب كسرى وقيصراً  
 وما زبرت في الصحف أقيال حميرا<sup>(٢)</sup>

ومهما يكن فقد كان أكثر كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم، ومن هنا كان القرشيون أقرب العرب من علم وثقافة وتهذيب، لمخالطتهم هؤلاء الأجانب المتحضرين وقبسهم شيئاً من تعاملهم في بيوعهم وأنظمتهم في تجارتهم حسبما كانوا يرون في الأسواق التي كانوا يحطون رحالهم فيها. وهذه الأسواق وإن لم تكن في الدرجة الأولى بين أسواق الرومان، ولا كان أهلها سابقين في مضمار الحضارة كثيراً لم تخل من آثار بعيدة في التحضر استفاد منها تجار مكة شيئاً يعتد به في السياسة والاقتصاد.

بل لقد تأثروا برحلاتهم هذه ببعض المعتقدات أيضاً، فقد ذكروا أن عبادة الأصنام طارئة على أهل مكة من الشام، وأن عمرو بن لحي - فيما زعموا - أول من نشر عبادة الأصنام حول الكعبة حين حمل معه صنماً من أصنام وجدها في جنوب الشام فنصب في الكعبة<sup>(١)</sup>.

وفشت في جماعة من قريش زندقة حتى قال صاعد: ((كانت الزندقة في قريش أخذوها عن أهل الحيرة))<sup>(٢)</sup>.

فأنت ترى أن هذه الرحلات أثرت حتى في معتقدات العرب ومن القريب المؤلف أن يحمل الرحالون من البلاد التي ينزلونها شيئاً من طرائقها في العادات والدين والأخلاق والعروض والأزياء يتحدثون عنه إذ ردتهم أسفارهم إلى بلادهم، فيعجبون منه ذويهم وجيرتهم ممن لم يكن له بتلك البلاد عهد، وما أكثر ما يحاول الإنسان تقليد من يملأ عينه.

أفادت قريش من هذه الرحلات وهذا الاختلاط بالأمم التي سبقتهم، كثيراً من اللباقة والكياسة إلى ما عرفت به من الفصاحة المشهود لهم بها، حتى إن العرب كانت تعرض شعرها على قريش. وعرض علقمة الفحل عليهم شعره فوصفوه بسمط الدهر<sup>(١)</sup>، وتفتت ألواناً من الدهاء والاحتيال، لا يحسنها إلا من رسخت قدمه في التجارة وأسبابها وضروب تعاطيها، حتى إذا دار الزمان وقضى للعرب أن تكون لهم دولة ذات سياسة داخلية وخارجية، كان أقطاب هذه الدولة وأركانها أولئك التجار الذين يعرفون كيف يتأتون للأمور ويتلطفون لمواجهة الصعاب، وتذليل العقبات، وحل المشكلات من أمثال: أبي بكر وعمر وعثمان وأبي سفيان ومعاوية وعمرو بن

(٢) انظر المزهر للسيوطي (النوع الثاني والأربعون ٣٤٦/٢ طبعة عيسى الحلبي) الأولى.

(١) انظر مثلاً: مروج الذهب للمسعودي ٣٦٧/١.

(٢) طبقات الأمم لصاعد ص ٦٧،

(١) الأغاني ١١٢/٢١.

العاصم وزبيد والمغيرة، وتلك الطبقة الممتازة من أكابر التجار<sup>(٢)</sup> في الجاهلية وكبار أهل الحل والعقد في الإسلام.

ومتى رميت برجل ذي ذكاء ومواهب، في قطر تجاري كالشام أو العراق (قبل الإسلام) فاختلط بالتجار، وقاسى محيطاً غير محيطه، تفتحت تلك المواهب، وانجلت عن نبوغ كبير ما كان لينكشف لو جمد صاحبه في محيطه الضيق، بين شعاب مكة وبطاحها. إن شئت فانظر إلى هذا الاحتيال المضاعف الذي أتاه المغيرة بن شعبة وضحك به على كل خمّار في الحيرة (إن كان ليعجز عن أقل منه اقطاب فضائح ((ستافسكي)) رغم ما يجهزهم به العصر العشرون من وسائل وعداد). ولعل في هذه القصة التي سأوردها لك بياناً شافياً لهذا الدهاء التجاري الذي تمرست به قريش وامتازت به من العرب قاطبة، قال المغيرة بن شعبة:

((أول ما عرفني به العرب من الدهاء والحزم، أني كنت في ركب من قومي، في طريق لنا إلى الحيرة فقالوا لي: ((قد اشتهينا الشراب وما معنا إلا درهم زائف)). فقلت: ((هاتوه وهلموا زقين)). فقالوا: ((وما يكفيك لدرهم زائف زق واحدا!)) قلت: ((أعطوني ما طلبت وخلاكم ذم)) ففعلوا يهزؤون من قولي.

فصبيت في أحد الزقين شيئاً من ماء ثم جئت إلى خمّار فقلت له: ((كل لي ملء هذا الزق)). فملأه. فأخرجت الدرهم الزائف فأعطيته إياه. فقال: ((إن ثمن هذا الزق عشرون درهماً جياداً، وهذا درهم زائف!)) فقلت: ((أنا رجل بدوي وظننت أن هذا يصلح كما ترى، فإن صلح وإلا فخذ شرابك)). فاكتال مني ما كاله وبقي في زقي من الشراب بقدر ما كان فيه من الماء، فأفرغته في الزق الآخر وحملتها على ظهري وخرجت، فصبيت في الزق الأول ماء ودخلت إلى خمّار آخر فقلت: ((إنني أريد ملء هذا الزق خمراً فانظر إلى ما معي منه، فإن كان عندك مثله فأعطني)). فنظر إليه (وإنما أردت ألا يستريب بي إذا رددت الخمر عليه) فلما رآه قال: ((عندي أجود منه)). قلت: ((هات)) فأخرج إليّ شراباً فاكتلته في الزق الذي فيه الماء ثم دفعت إليه الدرهم الزائف، فقال لي مثل قول صاحبه فقلت: ((خذ خمرك)) فأخذ ما كاله لي وهو يرى أني خلطته بالشراب الذي أريته إياه. وخرجت فجعلته مع الخمر الأول.

ثم لم أزل أفعل ذلك بكل خمّار في الحيرة حتى ملأت زقي الأول وبعض الآخر. ثم رجعت إلى أصحابي فوضعت الزقين بين أيديهم ورددت درهمهم.

فقالوا: ((ويحك! أي شيء صنعت؟)) فحدثتهم فجعلوا يعجبون وشاع لي الذكر في العرب بالدهاء حتى اليوم<sup>(١)</sup>.

هذا احتيال لا يخترعه إلا عقل تاجر ماهر، ملم بحرفته وأسرارها وبالغش وضروبه، أحسنته قريش وشركاؤها كما أحسنت ضرباً آخر من اللباقة وحسن التأني مع الدول المجاورة التي تاجروا في بلادها، فكانوا بهذه الكياسة، ينجون من عقاب المخالفات التي يرتكبونها وعواقب المغامرات التي يقتحمونها. ولما أرادت قريش أن تفتح لها أسواق فارس ولم تكن ترتادها كما ترتاد أسواق الشام، كان لابد في سبيل

<sup>(٢)</sup> من المهم أن نلاحظ هنا أن أكثر تجار قريش أمويون، وقد طال ترددهم وليبتهم في الشام، فاطلعوا على أصول السياسة والحكم، وكان نجاحهم فيما بعد من ثمة.  
<sup>(١)</sup> الأغاني ١٣٥/١٤.

الوصول إلى ذلك من مغامرات ومخاطرة وتعرض للأذى، وكانت الحاجة تخلق لها مغامرين أذكيا منها أو من شركائها يصلون برفقهم ودهائهم إلى ما يريدون مع السلامة والغنيمة. ونحن ذاكرون لك هنا شاهداً، مهما يكن حظ التزويد فيه فإن ما يخلص منه بعد الامتحان صالح لأن يعطيك صورة صحيحة عن فطنة القوم في أمور التجارة والاحتيايل:

ذكر الرواة أن أبا سفيان خرج في جماعة من قريش يريدون العراق بتجارة، فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال لهم: ((إننا من مسيرنا هذا لعلنا نخطر، ما قدومنا على ملك جبار لم يأذن لنا في القدوم عليه، وليست بلاده لنا بمتجر؟ ولكن أياكم يذهب بالغير فإن أصيب فنحن براء من دمه وإن غنم فله نصف الربح؟)).

فقال غيلان بن سلمة: ((دعوني إذن فأنا لها)) فدخل الوادي فجعل يطوفه ويضرب فروع الشجر ويقول:

ولو رأني أبو غيلان إذ حسرت  
عني الأمور إلى أمر له طبق  
لقال رعب ورهب يجمعان معاً  
حب الحياة وهول النفس والشفق  
إما بقيت على مجد ومكرمة  
أو أسوة لك فيمن يهلك الورق

ثم خرج في العير، وكان أبيض طويلاً جعداً ضخماً فلما قدم بلاد كسرى تخلق ولبس ثوبين أصفرين وشهر أمره وجلس بباب كسرى حتى أذن له، فدخل عليه فخرج إليه الترجمان وقال له: ((يقول لك الملك: ما أدخلك بلادتي بغير إذني؟)) فقال: ((قل له: لست من أهل عداوة لك، ولا أتيتك جاسوساً لصد من أصدادك، إنما جئت بتجارة تستمتع بها، فإن أردتها فهي لك، وإن لم تردّها وأذنت لي بذلك رددتها)) فتكلم كسرى فلما سمع صوته غيلان سجد، فقال الترجمان: ((يقول لك الملك لم سجدت؟)) فقال: ((سمعت صوتاً عالياً حيث لا ينبغي لأحد أن يعلو صوته إجلالاً للملك، فعلمت أنه لم يقدم على رفع الصوت هناك غير الملك فسجدت إعظماً له)). فاستحسن كسرى ما فعل وأمر له بمرفقة توضع تحته، فلما أتى بها رأى عليها صورة الملك فوضعها على رأسه، فاستجهله كسرى واستحمله وقال الترجمان: ((قل له إنما بعثنا بهذه لتجلس عليها)). قال: ((قد علمت، ولكني لما أتيت بها رأيت عليها صورة الملك، فلم يكن حق صورته على مثلي أن يجلس عليها، ولكن كان حقها التعظيم، فوضعتها على رأسي لأنه أشرف أعضائي وأكرمها علي)). فاستحسن فعله جداً ثم قال له: ((ألك ولد؟)) قال: ((نعم)) قال: ((فأيهم أحب إليك؟)) قال: ((الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يؤوب)) فقال كسرى: ((زه، ما أدخلك عليّ وذلك على هذا القول والفعل إلا حظك، فهذا فعل الحكماء وكلامهم، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم، فما غداؤك؟)) قال: ((خبز البر)) قال: ((هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر)). ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وكساه [وبعث معه من الفرس من بنى له أطماً بالطائف فكان أول أطم بني بها<sup>(١)</sup>]. فهذا نمط مما بلغ إليه القوم.

(١) انظر الأغاني ٤٦/١٢ وغيلان هذا شأن في العرب، فمحمد بن حبيب في (المحبر ص ١٣٥) وتبعه المرزوقي في الأزمنة والأمكنة [٢٧٤/٢] عده من حكام قيس، وذكر أن له ثلاثة أيام: يوم ينشد الناس بشعره، ويوم يحكم بين الناس، ويوم يقعد للناس فيه فيزار وينظر إلى سرره وجماله. فلا تعجب بعد هذا إن حدثتك نفسك بتزيد أضيف إلى أخباره.

حتى الأجيال التي انقطعت عن التجارة من القرشيين كانت ألفاظ التجارة وحساباتها أسرع إلى أفكارهم وعلى ألسنتهم حين التعبير، فهذا إسماعيل بن علي بن العباس يقول لطلحة بن عمر بن عبد الله: ((أنت أتجر الناس!)) فيقول طلحة: ((والله ما عالجت تجارة قط!)) فيجيبه ((بلى حين تزوجت فاطمة بنت القاسم بأربعين ألفاً، فولدت لك إبراهيم ورملة، فزوجت رملة بمئة ألف دينار فربحت ستين ألفاً وإبراهيم)) في خبر طريف<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

مكانة قريش من العرب وقيامها على الدين كلفاها مغارم كانت تؤديها عن طيب نفس، ويتعاون أفراد هذا الحي على الإنفاق في كل ما يعود على مكة والبيت وأهله بالفخر والتكرمة، ولنا على ذلك دليلان مشهوران هما خير ما يمثل لنا تضامن هذا الحي في المكارم، وما يتكلف من بذل وخدمة في سبيل تقوية منزلته من نفوس العرب، وفي سبيل تعظيم حرمة البيت وأهله وحفظ قدسيته في قلوب القبائل كافة:

أما الأول فالرفادة التي كانت من مناقب قريش خاصة، مما تفاخر به أحياء العرب قاطبة وهي - كما ذكرنا في موضع آخر - ((شيء تترافد به قريش في الجاهلية تخرج فيما بينها مالا تشتري به للحاج طعاماً وزبيياً)) ولعل في هذا الأمر شيئاً وراء إكرام حجاج البيت الحرام، وما إلى ذلك من أمور تتصل بشعائر وعقائد تمت إلى الدين، وهذا الشيء هو إغراء العرب بحج تلك الأسواق التجارية والإقبال عليها حتى تغص بالبائعين والشاريين، فتأمن قريش على أرباحها وتكفل من ذلك رواج تجارتها التي هي قوام أمورها في الحياة. فالغرض الحقيقي - فيما يبدو لي - تجاري أكثر منه دينياً. ولا يفسر ذلك أحسن تفسير إلا الحوادث التي رافقت البعثة، وما لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أمره من الألاقي والأذى. وما كانت قريش - وهي ماهي حصافة عقول - لتعمى عن نور الإسلام لولا أنها خافت على زعامتها التجارية والدينية أن يدكها الإسلام ويذهب ريحها، وإنما تسلطت قريش على نفوس العرب السذج بتلك الخرافات التي جعلت من أصنام الكعبة آلهة مقدسة لُقِّق حولها بأباطيل وقصص اتخذت مع الزمن شكل العقائد، وجعلت من قريش قواماً على هذا الدين الذي دانته العرب في الجاهلية.

وأما الأمر الثاني فما كانت تتشارك فيه من كسوة الكعبة جاء في (أخبار مكة للأزرقي ص ١٧٤):

((إن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسى شتى، كانت البدنة تُجلل الحبرة والبرود والأكسية، وغير ذلك من عصب اليمن، وكان هذا يهدى للكعبة سوى جلال البدن، هدايا من كسى شتى خز حبرة وأنماط تعلق فتكسى فيه الكعبة ويجعل ما بقي في خزانة الكعبة. فإذا يلي منها شيء أخلف عليها مكانة ثوب آخر، ولا ينزع مما عليها شيء من ذلك، وكان يهدى إليها خلوق ومجمر، وكانت تطيب بذلك في بطنها ومن خارجها)).

<sup>(١)</sup> انظره في كتاب (أخبار النساء) لابن قيم الجوزية ص ٧٣ [مطبعة التقديم العلمية بمصر سنة ١٣١٩هـ].



ويظهر أن الحرص على شرف هذه الكسوة كان بالغاً، وكان مما تباهي به قريش سائر العرب حتى كان في الأفراد من اشترأ للاستئثار بهذه المكرمة وحده بلا شريك، ففي ص ١٧٥ من الكتاب المذكور:

كانت قريش في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصي بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة ابن المغيرة ابن عمرو ابن عبد الله ابن مخزوم، وكان يختلف إلى اليمن بتجر بها، فأثرى في المال فقال لقريش:

((أنا أكسو وحدي الكعبة سنة، وجميع قريش سنة، فكان يفعل ذلك حتى مات: يأتي بالحبرة الجيدة من الجند (إحدى قرى اليمن ومن أسواق العرب) فيكسوها الكعبة فسمته قريش (العدل) لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها، فسموه إلى اليوم العدل ويقال لولده بنو العدل)).

والحق أن الأمر لم يقتصر على هذه (المكارم الرسمية) من الرفادة وكسوة الكعبة وما إليهما، بل كان ذلك من أخلاق قريش الملازمة لهم في حلهم وترحالهم فر ((لم يكن أحد يتزود مع قريش في سفر، وكانوا يطعمون كل من يصحبهم)) وعرف ثلاثة نفر منهم لمبالغتهم في هذه الخصلة بـ(أزواد الركب) وهم مسافر بن أبي عمرو بن أمية وزمعة بن الأسود، وأبو أمية بن المغيرة<sup>(١)</sup>.

لم تنتج قريش من ألسنة العرب، ولم تخل ممن نفس عليها مكانها أو حقد عليها استئثارها بالغني من أفناء العرب الذين يقدمون مكة فيعانون من تجارتها عنناً وإرهاقاً، عدا ما يسامون من الهزء أحياناً ومن أداء الربا المضاعف لهؤلاء. وكان اشتغال التجار بتجارتهم وانكبابهم على شؤونهم قد صرفهم بعض الصرف عن معالجة شؤون الحرب كما يعالجها أمثالهم من غير التجار. ولاحظ ابن سلام أن الذي قلل شعر قريش عدم اشتغالها بالحروب ((فلم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا، وذلك الذي قلل شعر عُمان وأهل الطائف<sup>(٢)</sup>)) (وعمان والطائف أيضاً بلدان تجاريان. ولما أرادت أن تباهي الأنصار ولم يكن لها أيام ولا أشعار جعلت ((تزيد في أشعارها))<sup>(٣)</sup>. عرف بعض العرب ذلك من أمرها والبدو يحقرون التجارة بطبعهم ككل الأمم التي تعيش من الغزو والسلب، فصاروا يعيرونهم بها، وطارت لهم أشعار في ذلك، منها ما يحقر التجارة نفسها، ومنها ما يقصد إلى قريش مباشرة، وانظر إن شئت قول القائل يريد مكة:

ولا مرتع للعين أو متقّص  
ولكن تجراً والتجارة تحقر

وقول ابن الزبيري:

ألهى قصياً عن المجد الأساطير

وقولها: رحلت عير أنت عير

(١) الأغاني ٤٩/٩ (طبعة دار الكتب)، وانظر في هذه الصفحة الحاشية المنقولة عن كتاب (ما يعول عليه في المضاف إليه).

(٢) طبقات الشعراء ص ١٠٢.

(٣) ص ٩٨ المصدر نفسه.

ومن هنا كانت استهانة بعض العرب بقريش وعدم الهيبة منها لانكبابها على التجارة وشغلها عن الحروب من دون سائر العرب، عرف ذلك من أمرهم القاصي والداني، جاء في تاريخ الطبري عند كلامه على فتوح سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الإسلامية في العراق ما يأتي:

((سأل النعمان بن قبيصة الطائي)) وكان على مرابطة كسرى عن سعد بن أبي وقاص فقيل له: ((رجل من قريش)) فقال: ((أما إذا كان قرشياً فليس بشيء، والله لأجاهدنه القتال، إنما قريش عبيد من غلب، والله ما يمنعون خفيراً ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير))<sup>(١)</sup> إلا أنه لما عانى من شدة بأسهم ما عاناه علم أن في جلود أولئك التجار مغاوير حرب ومذاويد حق<sup>(٢)</sup>.

كان لهؤلاء القرشيين معارف في بلدان الشام واليمن وفارس وكانت قريش تنظم وفوداً تفد على ملوك النواحي، ونحن نعلم أن عمرو بن العاص كان يعرف مصر وغزة والشام تمام المعرفة ويعزى نجاحه في فتح مصر إلى عوامل منها إجادة معرفته بها. ولما كان أمام غزة دخل على حاكمها بصفة موفد وعرفه الحاكم وأمر حاجبه سراً بقتله لولا أن نبهه عربي نصراني كان يعرف عمراً في الجاهلية حين كان يتاجر والقصة مشهورة.

وعرف من القرشيين تجار كبار ذوو أسفار بعيدة كثيرة، فأبو سفيان كان ((تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى أرض العجم))<sup>(١)</sup> ولعل أول غير طرقت بلاد فارس العير التي كان هو صاحبها، والتي دخل بها غيلان مخاطراً كما تقدم. ثم كانت له عودات إلى فارس، ودخل وافداً مرة على كسرى وأهدى إليه ((خيلاً وأدماً فقبل الخيل ورد الأدم)) قال أبو سفيان: ((أدخلت على كسرى فكان وجهه وجهان من عظمه، فألقى إلي مخدة كانت عنده فقلت: واجوعاه! هذه حظي من كسرى بن هرمز؟)) فخرجت من عنده فما أمر على أحد من حشمه إلا أعظمها حتى دفعتها إلى خازن له فأخذها وأعطاني ثمانين مئة إناء من فضة وذهب))<sup>(٢)</sup>.

وكان يخرج إلى اليمن أيضاً ويتصل بطبقات أهلها وأخبار يهودها كما يتصل غيره فيعلمون من الأخبار والسياسة ما لا يعلمه غيرهم، وأقرأ في الأغاني كيف يشرح لك الحرب بين هرقل وفارس، وكيف انتصر هرقل، وكيف خرج من حمص ليصلي ببيت المقدس شكراً لله، وهو حديث طويل مستوفى في كتب السيرة هو والحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان في شأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا بأس في أن نقل هنا أول هذا الحديث لعلاقته بموضوعنا قال أبو سفيان:

((كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا. فلما كانت الهدنة [هدنة الحديبية] بيننا وبين رسول الله

(١) تاريخ الطبري ٢٣٥٠/١ (طبع ليدن).

(٢) ليس غريباً أن يحقر بعض العرب حينذاك التجارة، وإنما الغريب أن تستمر هذه النغمة في النفوس حتى القرن الرابع الهجري وقد تبدلت الأرض غير الأرض فيقول شاعر مثل المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة: يكون وداعها نفص النعال ولا من في جنازتها تجار

(١) الأغاني ٣٤٣/٦ دار الكتب.

(٢) العقد الفريد ١٧٤/١.

صلى الله عليه وسلم ، خرجت في نفر من قريش إلى الشام، وكان وجه متجرنا منه غزة، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس.. إلخ))<sup>(١)</sup>.

واقراً أيضاً ما كان بينه وبين العباس وحبر من أحبار اليهود في متجرهم باليمن (الأغاني ٣٤٩/٦) فستعرف من كل ذلك أن هؤلاء التجار كانوا على اتصال بما كان يجري في زمنهم من أحداث سياسية، شديداً الاهتمام بذلك لما يعود على علائقهم بالبلدان وعلى تجارتهم. وكانوا ينقلون إلى بلادهم بعض ما يجدون في متاجرهم الخارجية من طرائف وغرائب، ولعلمهم استفادوا من بعض الأنظمة الاجتماعية التي وجدوا عليها الروم أو فارس، بل ما يدرينا أن دار الندوة نفسها اقتباس مغير مصغر، عن مجامع الروم الدينية والمدنية فقد كان مجلساً منظماً ((لتشاور قريش وعقد الألوية في حروبهم. ولا ينكح رجل من قريش إلا فيها، ولا يعقد لواء الحرب لهم ولا لغيرهم إلا فيها، ولا يعذر غلام إلا فيها<sup>(٢)</sup>) ولا تدرع جارية من قريش إلا فيها يشق عليها درعها ثم تدرع وينطلق بها إلى أهلها ولا تخرج عير من قريش إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها)). وهذا عبد الله ابن جدعان أتى العرب بطعام لا عهد لهم به: وفد على كسرى فأطعمه الفالودج فسأل عن صنعه وحمل معه غلاماً يحسن له عمله، فصار يطعم أهل مكة منه. وهو من سراة مكة وأجوادهم وأحد أغنيائهم الكبار ((وضع الموائد بالأبطح إلى باب المسجد ثم نادى مناديه: ألا من أراد الفالودج فليحضر، فحضر الناس))<sup>(٣)</sup> وقال فيه أمية بن أبي الصلت يصف طعامه هذا:

له داع بمكة مشمعلٌ وآخر فوق دارته ينادي

إلى رُدْح من الشيزي ملاء لبابُ البر يُلبك بالشهاد<sup>(٤)</sup>

وممن كان يواصل أسفاره في التجارة أبو طالب والعباس عما النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أخرج أبو طالب ابن أخيه محمداً مرتين إلى الشام في تجارة: مرة وهو فتى لا تتجاوز سنة الخامسة عشرة ومرة وهو شاب في سن الخامسة والعشرين.

وقد تجر أبو بكر إلى الشام وتجر عمر إلى غزة، وفيها استغنى في الجاهلية على ما قال ابن حوقل<sup>(٥)</sup>، واستمر عمر مشتغلاً بالتجارة في الإسلام، وأسف على اشتغاله هذا إذ حرم من علم كثير، وجهل في خلافته مسألة في الاستئذان فلما رويت له عبر

(١) الأغاني ٣٤٥/٦ [دار الكتب].

(٢) مدنية العرب في الجاهلية والإسلام - محمد رشدي: ص ٥٨ ويعذر غلام: يختن.

(٣) الأغاني ٣٣٠/٨ اشمعلُ القوم في الطلب إذ بادروا فيه وتفرقوا، ورُدْح جمع رداح وهي الجفنة العظيمة. والشيزي: خشب أسود تتخذ منه القساء.

جاء في الأمالي ٣٨/٣: قال أمية بن أبي الصلت: أتيت نجران فدخلت على عبد المدان بن الديان، فإذا به على سرير، وكان وجهه قمر، وبنوه حوله كأنهم الكواكب، فدعا بالطعام فأتي بالفالودج فأكلت طعاماً عجيباً ثم انصرفت وأنا أقول:

ولقد رأيت القائلين وفعلهم

ورأيت من عبد المدان خلانقا

لبُر يُلبك بالشهاد طعامه

لا ما يعللنا بنو جدعان

فبلغ ذلك عبد الله بن جدعان، وفوجه إلى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالودج بالعسل، فكان أول من أدخله مكة ففي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت: ((له داع... البيتين)).

ولعل الفالودج الذي كان صنعه الغلام الفارسي بمكة لعبد الله بن جدعان لم يكن لذيذاً في فم الشاعر أمية كما كان فالودج نجران.

(٤) المسالك والممالك لابن حوقل ص ١١٣ طبع ليدن.

عن أسفه بقوله: ((أخفي عليّ [هذا] من أمر رسول الله؟! ألهاني الصفق بالأسواق))  
يعني الخروج إلى التجارة<sup>(٢)</sup>.

وقلّ أن تجد قرشياً ذا شأن في الجاهلية والإسلام إلا كان تاجراً<sup>(١)</sup> واستفاض لهم  
غنى عريض وثروة واسعة حتى كثر منهم الأجواد وغزرت عطاياهم وقصدهم العفاة  
وأصحاب الحاجات، وكان من ذلك ما نقرؤه من أخبار جودهم الكثيرة في العقد الفريد  
والأغاني وغيرهما من الأمهات.

ولم تكن النساء القرشيات لتقصر عن الرجال في هذا المدى، بل كان منهن من  
اتسعت ثروتها من التجارة حتى فاقت كثيراً من الرجال. ولعل السيدة خديجة بنت  
خويلد أم المؤمنين خير مثال تقدمه على ذلك: فقد كانت من أكبر تجار قريش  
وأكثرهم مالاً وأوفرهم غنى، وكانت في حسب ومقام رفيع في قومها، مع مزايا في  
أخلاقها طيبة. كانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم. ترسل  
بأموالها إلى الشام وإلى عطاظ وحباشة وغيرهما من أسواق العرب. وكثيراً ما كانت  
ترجع هذه الأموال بربح وافر. وذكروا أن عير خديجة كعامة عير قريش<sup>(١)</sup>. ولما  
بلغها عن محمد بن عبد الله ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه،  
عرضت عليه أن يخرج إلى الشام، ولعل الحقيقة ما ذكره الزرقاني شارح المواهب  
من أن الرسول نفسه استشرف للسفر بمال خديجة فقد ذكر:

[أن أبا طالب قال له: ((يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا،  
وألحت علينا سنون منكورة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر  
خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجلاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون  
منافع، فلو جئتها لفضلناك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك)). فقال محمد:  
(لعلها ترسل إلي في ذلك)). فقال أبو طالب: ((إني أخاف أن تولي غيرك)).]

وبلغ خديجة ما كان من محاورتهما فقالت لمن بلغها: ((ما علمت أنه يريد هذا)).  
ثم أرسلت إليه وقالت له: ((دعاني إلى البعثة إليك ما يبلغني من صدق حديثك،  
وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك)). فذكر  
ذلك لعمه فقال: ((إن هذا لرزق ساقه الله إليك)) وكان عمره صلى الله عليه وسلم في  
هذه الرحلة خمساً وعشرين سنة. ((وخرج رسول الله إلى سوق بصرى فباع سلعته  
التي أخرج، واشترى غيرها، وقدم بها فربحت ضعف ما كانت تبيع..))<sup>(١)</sup>.

كانت قريش تنظم كل سنة عيراً بتجارة إلى الشام، وكانت هذه القوافل تزيد شأناً  
عاماً فعاماً.

(٢) الأدب المفرد للبخاري، الباب ٤٩٢ ص ٢٧٤ [المطبعة السلفية سنة ١٣٧٥هـ].  
(١) وفي كتب الأدب تقع على مكاسب كثير منهم، وفيهم من صاروا أعلام الإسلام فيما بعد، فابن قتيبة في كتابه  
المعارف يذكر أن أبا سفيان كان يبيع الزيت والأدم، وأمّية بن خلف يبيع البرم، وعقبة بن أبي معيط كان خماراً،  
وأبو طالب كان يبيع العطر وربما باع البز، وأبو بكر وعثمان بن عفان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف كانوا  
يبيعون البز.. المعارف ص ٢٤٧ (المطبعة الرحمانية ١٩٣٥).

(١) شرح المواهب ١/١٩٨ وابن سعد ٩/٨.

(١) طبقات ابن سعد ٩/٨.

ولما بلغ أذى قريش من المسلمين ما بلغ، حتى اضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى الحبشة<sup>(١)</sup>، ثم الهجرة الكبرى إلى المدينة<sup>(٢)</sup>، واعتز المسلمون وقوا.. كان أول أمر ينتصفون به لأنفسهم، ويحملون أعداءهم من قريش بسببه على الكف من كيدهم وأذاهم لمن في بلادهم من ضعفة المسلمين، هو التعرض لتجارتهم، وإن جارينا مصطلح عصرنا قلنا: أن يضربوا على قريش حصاراً اقتصادياً، لعلمهم أن ذلك أبعث على الرعب، وأبلغ في النكاية بهم، وأفتك ما تكون الحرب في العدو حين توهم (اقتصاديته)، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سرية عليها عبد الله بن جحش أمير، لتعرض لغير قريش، وكانت راجعة من الشام فترصدوها بموضع بين مكة والطائف يعرف بنخلة، وكان في العير العلاء بن الحضرمي، فلما مرت بهم حملوا على من فيها، واحتجزوا الأموال، وكانت زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش. فقتل من حامية القافلة من قتل، وأسر من أسر وقوى الله المسلمين بما غنموا من عدوهم الذي أخرجهم من ديارهم وأبنائهم، وبلغ الخبر قريشاً فكانت الأذية منهم بالغة.

وكان السبب في استدراج المسلمين قريشاً إلى المعركة الحاسمة بين الإسلام والشرك في بدر الكبرى تجارياً أيضاً: فإن قريش أقبلت لها عير من الشام عليها أبو سفيان في ثلاثين راكباً، وكان فيها معظم أموالهم، قدرها المؤرخون بخمسين ألف دينار، وقالوا: لم يبق قرشي ولا قرشية له مثقال إلا بعث به في العير. وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرها فتجهز ليتعرض لها، ولكن أبا سفيان أخذ على الساحل فنجأ بها بعد أن أرسل إليهم نذيراً ضمضم بن عمرو الغفاري يستنفرهم إلى العير. فجدع هذا أنف بغيره وحول رحله وشق قميصه من قُبُل ومن دُبُر وصرخ في أهل مكة: إن محمداً مع أصحابه قد عرض لغير قريش، يا معشر قريش! اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، ما أرى أن تدركوها، الغوث الغوث...

فنهضوا وقالوا: ((أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله، ليعلمن غير ذلك)). وخرجوا ألفاً بين فارس وراجل، كل من قدر على النهوض نهض ومن لم يستطع أرسل بماله وسلاحه من يقوم مقامه. وكان كل ذي خطر إما في العير مع أبي سفيان، وإما في النفير إلى بدر، وصاروا بعد ذلك إذا استصغروا أحداً قالوا: ((لا في العير ولا في النفير)) فأرسلوها مثلاً في الناس.

ثم نجت العير، والتقى الجمعان في بدر الكبرى وكان من أمرهم ما يعلم الجميع. وقرر كبراء قريش أن ترصد أرباح العير للتجهيز لغزو محمد ثأراً لقتلى بدر.

وظفق الرسول عليه السلام بيت سراياه، وأشفتت قريش من ذلك إذ تتعطل تجاراتهم إذا لم تكن الطريق آمنة، وطريقهم المسلوكة المعبدة هي الطريق المساحلة إلى الشام وإلى اليمن، وقد أصبحت غير مأمونة بعد أن صارت كتائب المسلمين

(١) وإنما خصوا الحبشة بالهجرة لكثرة ترددهم عليها في الجاهلية للتجار، وإيناسهم من ملكها عدلاً ورعاية، والأصفهاني يذكر لنا في صدد كلامه على خروج عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص - وكانا تاجرين - إلى أرض الحبشة قوله: ((وكانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجهاً)) - الأغاني ٥٦/٩ (طبعة دار الكتب).

(٢) خافت قريش على مكانتها وتجارته فوضعت جائزة كبيرة لمن يأتيها بالنبي، حتى اضطر النبي وصاحبه إلى الاختفاء في الغار.. وهذا من أعمالهم (الدولية) التي أفادوها من مخالطتهم شعوباً خاضعة لحكومات مختلفة.

تترصد قوافل التجارة المكية، وأشفق أيضاً القبائل المقيمة على هذا الطريق حول المدينة إلى مكة إذ بانقطاع هذا الطريق التجاري موت لهم. وأيُّ كان فقد فكرت قريش في تغيير الطريق وسلوك طريق نجد فالعراق لبعده عن منطقة الحصار الذي ضربه المسلمون على تجارة مكة، وقد قال صفوان بن أمية يوماً في أحد منتديات قريش: ((إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوه ودخل عامتهم معه فما ندري أين نسكن. وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء)). فأشير على قريش أن تسلك طريق العراق، فخرجت غيرهم مثقلة بالعروض والفضة، وبلغ أمرها النبي فأرسل زيد بن حارثة في سرية اعترضت العير عند (القردة) أحد مياه نجد فغنم العير وأسر الدليل.

كان هذا الحصار الاقتصادي الذي أحكمه الرسول أهم الممهدات لفتح مكة فيما بعد إذ أضعف من قوة قريش الاقتصادية، وإنما قريش بتجارتها وأموالها، فإذا فقدت مكانتها التجارية فقد هوى شأنها بين العرب، ولذلك عادت تفكر في رفع هذا الحصار عنها في محاولات لم تنته بالنجاح. ولعل أشد ما أحمى قريشاً في موقفها من الرسول وصحبه في مفاوضات الحديبية خوفها أن تفقد مكة ما عرفت به من حرمة وأمن إذا اقتحمها عليهم محمد صلى الله عليه وسلم عنوة، فلا تعود العرب تقصدها للتجارة فتتعطل أسواقها وتخسر قريش أرباحها وثراءها. فلذلك حالوا بكل ما يستطيعون دون وقوع قتال ودون دخول المسلمين لها عامهم ذلك، إبقاء على مصالحهم التجارية والأدبية بين العرب.

\* \* \*

وليس يصور لنا ذلك الغني المستفيض إلا الأخبار التي أثرت عن كبار القرشيين في الجاهلية والإسلام، ولا بأس في ذكر عبد الله بن جدعان مثلاً في ذلك:

فقد تقدم أنه كان يبسط الموائد في مكة يطعم الناس الفالودج وله جفنة عظيمة يأكل منها الفارس على فرسه، وفي الحديث: ((كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عُمي<sup>(١)</sup>)) ورويت له أخبار أشبه بما يروى عن الملوك فقد كان يتخذ القيان يغنيه ثم يهبهن لمادحه، وكان يقضي عن الناس ديونهم، وله شاعر هو أمية بن أبي الصلت، وكان يلقب بحاسي الذهب، وما أجد حاجة إلى التنبيه على بطلان خرافة الكنز التي ذكروها تعليلاً لوجود كل هذا الغنى عنده، فليس من كسب له ولا لقومه سوى التجارة، وما عرفنا أن رمال الجزيرة مما تبطن الكنوز.

وأصحاب السير يقدمون لنا حساباً نستطيع أن نعتمد عليه هنا في معرفة أرباحهم التجارية<sup>(١)</sup> لنقدر نحن بعد ذلك الأمد الذي بلغوه في الثروة قالوا: إن قريشاً لما رجعوا من هزيمة بدر إلى مكة، وقد أصيب أصحاب القليب ورجع أبو سفيان بغيره (سالمة)

(١) صكة عمي: حين اشتداد الهاجرة.

(٢) كانت هذه التجارة التي تبعث بها مكة والطائف جميعاً، والتي كانت تجيء إلى مكة من بلاد الجنوب، تجارة واسعة النطاق، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير في ألفي بعير، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار، وكانت صادرات مكة السنوية على ما قدرها المستشرق (سبرنجر) توازي مئتين وخمسين ألفاً من الدنانير أي نحو مئة وستين ألف جينيه ذهباً، حياة محمد ص ٢٤٠.

مشى جماعة من أشراف قريش ممن أصيب أبائهم وإخوانهم وأبنائهم يوم بدر فقالوا: ((يا معشر قريش: إن محمداً وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربته)) يعنون عير أبي سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة، والعير - كما تقدم من عادتهم - تنزل أول ما تنزل في دار الندوة حتى يتفق أصحابها على إخراجها للبيع، فائتمر القرشيون وشركاؤهم أن ينفقوا ربح هذه العير على تجهيز جيش يجاربون به محمداً صلى الله عليه وسلم، وكانت ألف بعير موقرة بما قيمته خمسون ألف دينار، وكانوا يربحون بكل دينار ديناراً - على ما نقل الزرقاني - فيكون ما أنفق على هذا الجيش خمسين ألف دينار، أو - على رواية المقل - خمسة وعشرين ألف دينار، وهو على كل حال مبلغ ضخم جداً، وكان عدد من استأجرهم أبو سفيان من الأحابيش فقط ألفين. وفي هذا الحادث نزل قول الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ} [الأنفال: ٣٦/٨].

وخليق بمن كانت أرباحهم بهذا المقدار أن يثروا في المدة الوجيزة الثراء الكبير. ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ من العباس الفداء يوم بدر فكان مقداره عشرين أوقية من ذهب، وأن عثمان بن عفان وحده جهز جيش العسرة (في غزوة تبوك) ألف بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ولما أقحط الناس أيام أبي بكر وأنت عير لعثمان خاصة جعلها جميعاً في سبيل الله. ولما كانت الفتوحات زاد غناه بما لا يقدر حتى إن ابن سعد صاحب الطبقات ليروي (٣: ٥٣) أنه ((كان له عند خازنه يوم قتل (٣٠,٥٠٠,٠٠٠) درهم و(١٥٠) ألف دينار فانتهبت وذهبت وترك ألف بعير بالربذة، وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة منتي ألف دينار)).

وليس ما يروى في تقدير ثروة عبد الرحمن بن عوف بالقليل فقد ذكر ابن سعد<sup>(١)</sup> عنه أنه: ((قدم المدينة فأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذ، وتحتي امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك)). فقال عبد الرحمن: ((بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق..)) فاشتري وباع فربح فجاء بشيء من أقط وسمن، ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه ردع (لطح وأثر طيب) من زعفران، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ((مَهَيْم)) فقال: ((يا رسول الله تزوجت امرأة)) قال: ((فما أصدقتها؟)) قال: ((وزن نواة من ذهب)). قال: ((أولم ولو بشاة)). فقال عبد الرحمن: ((فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً)). وحسبك هذا دليلاً على مهارتهم في الاتجار وخبرتهم بطرق الكسب. أما تركته فكانت ((ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومئة فرس ترعى بالبيع.. وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة، فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً<sup>(١)</sup>، وقد باع مرة أرضاً له بأربعين ألف دينار، فتصدق بها كلها،

(١) الطبقات ٨٩/٣.

(١) طبقات ابن سعد ٩٦/٣ والمجل أن يكون بين الجلد واللحم ماء من العمل.

وتصدق مرة بسبع مئة جمل بأحمالها قدمت من الشام، وأعان في سبيل الله بخمس مئة فرس عربية<sup>(٢)</sup>، ((وأوصى في السبيل بخمسين ألف دينار))<sup>(٣)</sup>.

وكان الزبير بن العوام كثير المتاجر والأموال قيل: كان له ألف مملوك يؤدون الخراج، وربما تصدق بذلك في مجلسه، وقد خلف أملاكاً بيعت بنحو أربعين ألف درهم<sup>(١)</sup>.

وأرسل سعد بن أبي وقاص إلى مروان، بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم، وترك يوم مات (٢٥٠٠٠٠) درهم<sup>(٢)</sup>، ومهما تسقط من هذه الأرقام مما تقدر أنهم كسبوه من غنائم الحرب فسيبقى لك بعد ذلك مقادير وأموال طائلة.

فهذا دون شك غنى واسع، ودنيا عريضة، وتوفيق عجيب أتى لهؤلاء التجار، وإن كلمة عبد الرحمن بن عوف، ((لو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً)) لتشرح لك مدى التوفيق التجاري الذي أحرزوه بما أتقنوا من هذه المهنة، وما تفننوا في أساليبها وطرقها.

وأظن هذا القدر كافياً في الدلالة على مبلغ اهتمام قريش بالتجارة حتى صاروا يعيرون بذلك<sup>(٣)</sup>، حين جعلوها دينهم ومعاشهم وهجيراهم في مجالسهم وأسماهم، الكبير منهم والصغير والرجل والمرأة سواء، كل يسهم في العير بما يستطيع، وله من الربح على قدر ماله. كانوا يذهبون راحلين إلى اليمن أو إلى الشام أو إلى العراق حتى جعلوا لأنفسهم محطات ومنازل خاصة بأصحابها على طول الطريق<sup>(١)</sup>، كل أسرة ترسل من أفرادها من استطاع، ولا يكادون يعرفون في العرب بعمل غير التجارة وما إليها من معاملات<sup>(\*)</sup>.

(٢) تهذيب التهذيب للذهبي.

(٣) طبقات ابن سعد ٩٦/٣.

(١) تهذيب التهذيب.

(٢) الطبقات ٩٦/٣.

(٣) قال زيد بن صوحان لمعاوية: ((كم تكثر علينا بالإمرة وبقريش، فما زالت العرب تأكل من قوائم سيوفها وقريش تجار!!))، العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي ص ١٢٠ (طبع السلفية).

(١) جاء في تفسير الطبري: ((لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ولهم بيوت معلومة على الطريق: فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان؟!)) فنزل: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [النور: ٢٩/٢٤].

(\*) أضاف الزمن على تاريخ قريش هذا ثوباً من التقديس لمكان النبوة منهم، فكان كثير من علماء المسلمين ومتكلميهم يسبغون على قريش ألواناً من الإجلال والتعظيم لما تكنه قلوبهم لنفر النبي ﷺ، وصرنا نسمع كثيراً من مثل قول الشاعر:

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم إذ هم قريش وغد ما مثلهم بشر

ومثل قول أبي تمام:

تلكم قريش لم تكن أبواها

حتى إذا بعث النبي محمد

عزبت عقولهم وما من معشر

تهفو ولا أحلامها تنقسم

فيهم غدت شحناؤهم تتضرم

إلا وهم منهم ألب وأحزم

ومن الجدير للقارئ أن يطلع على هذه النظرة ليكون إمامه محيطاً شاملاً، وليرى فيما سندرجه له امتداداً لنظرة عرب الجاهلية إلى قريش النظرة الدينية التي أسهبنا في وصفها، وإليك أقوالاً لرجال ثلاثة مختلفين، تمثل في الجملة آراء الناس حتى المئة الرابعة للهجرة، أما من بعدهم فتبع لهم في ذلك:

١- قال العتبي: شهدت مجلس عمرو بن عتبة وفيه ناس من الفرشيين فتشاجروا في مواريتهم وتجادوا، فلما قاموا من عنده أقبيل علينا فقال: ((إن لقريش درحاً تزلق عنهم أقدام الرجال، وأفعالاً نخضع لها رقاب الأموال وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة، والسنة تكل عنها الشفار المشحودة، ولو احتفلت الدنيا ما تزينت إلا بهم، ولو كانت لهم ضاقت بسعة أخلاقهم)). (العقد الفريد ٢٠٨/٢).



ونختم هذا الفصل برأي لأحد سادات قريش في الجاهلية والإسلام حكيم بن حزام وكان واسع الغنى فاحش الثراء، تصدق بغيره الخاصة غير مرة، وأعتق المئات من العبيد في عرفة، وتصدق بدور وأموال عظام، هذا الثري القرشي أحب أن يتصل لقريش هذا المجد التجاري، فلما شاور عمر الصحابة في فرض العطاء لقريش وافقوه إلا حكيم بن حزام فقال له: ((يا أمير المؤمنين إن قريشاً أهل تجارة ومتى فرضت لهم عطاء تركوا تجارتهم، فيأتي بعدك من يحبس عنهم العطاء فتكون قد خرجت من أيديهم))<sup>(١)</sup>.

٢- قال الجاحظ: قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها، وكيف رأيتها وذكائها، وكيف سياستها وتديبيرها، وكيف إيجازها وتحبيرها، وكيف راحة أحلامها إذ خف الحليم، وحده أذهانها إذا كلّ الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء، وثباتها في الأواء، وكيف وفاؤها إذا استحسنت الغدر، وكيف جودها إذ حب المال، وكيف ذكرها لأحاديث غد، وقلة صدودها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه، وكيف وصفها له، ودعاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراقها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبهه علانيتهم سرهم، وقولهم فعلهم، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بغد غوره، وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه، وهل ظنه إلا كيقين غيره؟

بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها، وكيف نماؤها وبهاؤها، وكيف سروها ونجابتها، وكيف بيانها وجهارتها، وكيف تفكيرها وبداهتها. فالعرب كالبدن وقريش روحها، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبها، وموضع غاية الدين والدنيا منها، وهاشم ملح الأرض وزينة الدنيا، وحي العالم، والسنام الأضخم والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، ومعدن الفهم، وينبوع العلم، وثهلان ذو الهضاب في الحلم، والسيف الحسام في الغرم، مع الأناة والحزم، والصفح بعد المقدرة، وهم الأنف المقدم والسنام الأكرم، وكالماء الذي لا ينجسه شيء، وكالشمس التي لا تخفى بكل مكان، وكالذهب لا يعرف بالنقصان، وكالنجم للحيوان، والبارد للظمان، ومنهم الثقلان والأطيان والسيطان، وأسد الله، وذو الجناحين، وذو قرنيها، وسيد الوادي، وساقى الحجيج، وحليم البطحاء، والبحر والحبر، والأنصار أنصارهم، والمهاجر من هاجر إليهم أو معهم، والصديق من صدقهم والفاروق من فرق بين الحق والباطل [منهم]، والحواري حواريتهم، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم أو يضاف إليهم. وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين، وإمام الأولين والآخرين، ونجيب المرسلين، وخاتم النبيين، الذي لم يتم لنبي نبوة إلا بعد التصديق به، والبشارة بمجيئه، الذي عم برسالاته ما بين الخافقين، وأظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون)) زهر الآداب ١/٩٤.

وقال أيضاً: ((وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه، وصفيه من عباده، والمؤمن على وحيه من أهل بيت التجارة، وهي معولهم وعليها معتمدتهم، وهي صناعة سلفهم وسيرة خلفهم، ولقد بلغتك بسالتهم ووصفت لك جلاتهم، ونعتت لك أحلامهم، وتقدر لك سخاؤهم وضيافتهم، وبدلهم ومواساتهم...)) رسائل الجاحظ، الرسالة السادسة في مدح التجار وذم عمل السلطان.

٣- قال الثعالبي يعدد مناقب قريش أهل الله: ((ومنها ثبات جودهم وجزالة عطاياهم، واحتمالهم المؤن الغلاظ في أموالهم المكتسبة من التجارة، ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف مقرون بالتجارة التي هي صناعاتهم، والتجار هم أصحاب التريب والتكسب والتدنيق، وكان في اتصال جودهم العالي على الأجواد، من قوم لا كسب لهم إلا من التجارة عجب من العجب، وأعجب من ذلك أنهم من جميع العرب دانوا بالتمسك والتشدد في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال، فلما زهدوا في المعصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة، فضربوا في البلاد إلى قيصر الروم والنجاشي بالحبشة، والمقوقس بمصر، وصاروا بأجمعهم تجاراً خطاء، فكانوا مع طول ترك الغزو إذا غزوا كالأسود على برائتها، مع الرأي الأصيل، والبصيرة الناقدة...)) ثمار القلوب للثعالبي ص ٩.

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/٤٢١.

## ب- إيلاف قريش

{إيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا ربَّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوفٍ} [قريش: ١٠٦/١-٤].

إيلاف قريش، [وإذا شئنا التعبير بلغة عصرنا قلنا المعاهدات التجارية]<sup>(١)</sup> مستفيض الشهرة في كتب السير والتاريخ والأدب. وقد أخبر به القرآن الكريم، وهو أبرز حادث في تاريخ العرب التجاري قبيل الإسلام.

وفي تحديد معنى الإيلاف مذاهب، منها:

- ١- أنه الدأب، فسره بذلك ابن سعد صاحب الطبقات. ومنها:
- ٢- أنه ربح مخصوص جعله هاشم لرؤساء القبائل فيحمل لهم متاعاً مع متاعه ويسوق إليهم إبلاً مع إبله ليكفيهم مؤونة الأسفار ويكفي قريشاً الأعداء<sup>(١)</sup> ومنها:
- ٣- أنه العهد وشبه الإجازة والخفارة<sup>(٢)</sup> قاله صاحب القاموس.

ومن التفصيل الذي سنسوقه لك تعرف أن المعاني الثلاثة تجتمع في الإيلاف معاً. ذكر الثعالبي أن قريشاً ((كانت لا تتاجر إلا مع من ورد عليها مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ في الأشهر الحرم، لا تبرح دارها ولا تجاوز حرمها، للتحمس في دينهم والحب لحرمهم والإلف لبيبتهم، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم، وكانوا بوادٍ غير ذي زرع كما حكى الله عن إبراهيم حين قال:

{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [إبراهيم: ٣٧/١٤]<sup>(١)</sup>.

(١) اطلعنا بعد صدور طبعتنا الأولى باثنتين وعشرين سنة على بحث مفيد بعنوان (الإيلاف أو المعونات غير المشروطة) نشره الأستاذ ظافر القاسمي أحد العلماء من نقباء المحامين في الشام (مجلة المجمع العلمي العربي ١ نيسان ١٩٥٩) فعلق على تعبيرنا عن الإيلاف بالمعاهدات التجارية بما يلي:

((ما من شك في أن الغرض من الإيلاف تجاري... ولكنه لا يمكن أن يسمى (المعاهدات التجارية) لأن هذه تقتضي اتفاقاً على تبادل السلع وطريقة دفع قيمتها أو مكوسها (جماركها) أو غير ذلك. أما أمان الطريق بغير حلف، فلا يمكن أن يسمى بلغة العصر إلا (المساعدات غير المشروطة - Aides inconditionnés) اهـ. وليس في يدنا ولا يده ما يجزم بأنه لم يكن هناك اتفاق على تبادل السلع، بل المعروف العكس فالتجارة العربية كانت تنقل إلى بلاد العرب من الشام (وهي مشمولة بالحكم الروماني) القمح والزيت وما إليها، وتجلب إليهما من بضائع الهند والحبشة والجزيرة ما مر بك تفصيله أول هذا الباب والباب قبله. ولا يمكننا لذلك قبول التسمية (بالمساعدات غير المشروطة) لأنه سيمر بك اشتراط القرشيين على أنفسهم بلسان هاشم جلب البضائع اللازمة لبلاد قيصر وأن يضموا له أن تباع عنده أرخص ويكفوه حملاتها.

هذا وشح المصادر بالتفاصيل من جهة ضرورة التسامح في المصطلحات من جهة أخرى يجعلان من غير المعقول المطالبة بالشروط الحديثة للمصطلحات القديمة حين نطلقها على أحداث كانت قبل خمسة عشر قرناً)) إذ لكل جيل اعتباراته الخاصة المتغيرة على الزمن من إطلاق إلى تقييد، ومن تعيم إلى دقة في الشروط والتفاصيل والتخصيص، ونقص شيء من هذا لا يسلب المصطلح معناه.

(١) ثمار القلوب ص ٨٩.

(٢) وفسره المسعودي بالأمن، ثم أردف بقوله: ورحلت قريش حين أخذ لها الإيلاف من الملوك إلى الشام والحبشة واليمن والعراق، مروج الذهب ٣٦٩/١ ومحمد بن حبيب فسره في كتابه (المحبر) بأنه العهود ص ١٦٢.

(١) ثمار القلوب ص ٨٩.

فكان أول من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك، وأبعد في السفر، ومر بالأعداء وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله، هاشم بن عبد مناف، وكانت له رحلتان: في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من أرض الحبشة، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم.

وأبى رواة الأخبار إلا أن يجعلوا لهاتين الرحلتين بدءاً يكون لهما كالسبب والعلة فرووا عن ابن عباس:

((أن السبب في هاتين الرحلتين هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخصصة، خرج وعياله إلى موضع، وضربوا على أنفسهم خباءً حتى يموتوا، إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له أسد، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه، فشكا إليه الضر والمجاعة، فدخل أسد على أمه يبكي، فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً. ثم أتى ترب أسد مرة أخرى وشكا إليه الجوع. فقام هاشم خطيباً في قريش فقال:

((إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون. وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع. قالوا: نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف)).

فجمع هاشم كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم. فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش. وهذا معنى قول شاعرهم فيهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي<sup>(١)</sup>

وكان هاشم يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل ورؤساء العشائر لخصلتين: ((إحدهما أن ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائف كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم، والخصلة الأخرى أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً كبني طيئ وختعم وقضاعة. وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له... فكان الإيلاف صلاحاً للفريقين إذ كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً، فأخصبت قريش، وأتاها خير الشام واليمن والحبشة وحسنت حالها وطاب عيشها)).

وقول الله: **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ}** [قريش: ٤/١٠٦] يعني الضيق الذي كان فيه أهل مكة قبل أن يأخذ هاشم لهم الإيلاف، والخوف الذي كانوا عليه ممن يمرون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال، وهو قوله عز وذكره **{تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ}** [الأنفال: ٢٦/٨] يعني في تلك الأسفار، ولم يرد ذلك وهم مقيمون في حرمهم وأمنهم لأن الله يقول: **{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا}** [البقرة: ١٢٥/٢] مع قوله: **{وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}** [آل عمران: ٩٧/٣] وقوله: **{أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}** [العنكبوت: ٦٧/٢٩].

(١) بلوغ الأرب ٣/٣٦٨، والكافي الغني، وفي هاشم وصنيعه يقول خاله الحارث بن حنش السلمي: أخي هاشم ليس أبا واحد خذ الإيلاف، والقائم للقاعد انظر رسائل الجاحظ جمع السندوبي ص ٧١ (المطبعة الرحمانية سنة ١٣٥٢هـ) و(المجبر) لابن حبيب ص ١٦٢.

ويعلق عدد من المفسرين مطلع السورة (إيلاف) بسورة الفيل التي قبلها ويكون تسلسل الكلام عندهم ((فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ لَّيْلَافٍ قَرِيشٍ إِيْلَافَهُمْ رَحْلَةَ الشَّيْءِ وَالصَّيْفِ)) والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل ((الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيتهدبهم زيادة تهيب ويحترمهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم فلا يجترئ عليهم أحد ولا يتعرض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم))<sup>(١)</sup>.

هذا وقد عم مطرود الخزاعي بني عبد مناف بذكر الإيلاف لأن جميعهم قد فعل ذلك فقال:

يا أيها الرجل المحول رحله	هلا حطت بآل عبد مناف
المنعمين إذا النجوم تغيرت	والظاعنين لرحلة الإيلاف <sup>(٢)</sup>
سفرين سنهما له ولقومه	سفر الشتاء وسفرة الأصيلاف

ومر بك تعداد الكميت مآثر أجداد هشام بن عبد الملك فذكر منها الإيلاف ص ٩٧. وفي اختصاص قريش بالإيلاف دون غيرهم من العرب قال الشاعر وهو يرد على بني أسد ما يددعونه من قرابة قريش:

زعمتم أن إخوانكم قريش	لهم إلفٌ وليس لكم إلاف
أولئك أو منوا خوفاً وجوعاً	وقد جاءت بنو أسد وخافوا أ.هـ

وهناك قول بتفسير الإيلاف غير صحيح جاء في شرح ابن أبي الحديد وهو قوله: ((إن هاشمًا جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها مكة)) والأمر على العكس فالمستفيد من الإيلاف مادة هم رؤساء القبائل، ومكة لم يؤثر أن اعتدى على حرمتها أحد من العرب فبلغ منها.

وقد أن نذكر الإيلافات أو المعاهدات التجارية التي عقدها هاشم وإخوانه المطلب وعبد شمس ونوفل مع العرب والروم والحبشة وفارس، فأخرجوا بذلك تجارة قريش من طابعها المحلي وأفقها المحصور إلى الأفاق الأجنبية، فصارت لقريش العلاقات الخارجية مع الدول المعروفة حينئذ، وأثرت هذه العلاقات في حالاتها الاجتماعية أثراً بعيداً نحن متعرضون له بعد قليل.

ومتى عرفنا ما أسدى أولاد عبد مناف لقريش وللعرب من أياد تبييناً مدى الصدق في قوله ابن عباس:

((والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لهم العير لهاشم، والله ما شدت قريش رحلاً ولا حبلاً بسفر ولا أناخت بعيراً لحضر إلا بهاشم)).

(١) الزمخشري في الكشاف، ويؤكد تعليق (إيلاف) بـ(فجعلهم) بأن السورتين في مصحف أبي سورة واحدة بلا فصل، وأن عمر قرأها في الركعة الثانية من صلاة المغرب.

(٢) لهذا البيت روايات، والتي هنا من سيرة ابن هاشم، وانظر (المحبر) لمحمد بن حبيب ص ١٦٤ ففيه: هيلتك أمك لو حطت إليهم  
الأخذون العهد من أفاقها  
ويقابلون الريح كل عشية  
ضمنوك من جوع ومن تطواف  
والراحلون برحلة الإيلاف  
حتى تغيب الشمس في الرجاف

ونحن فيما سنعرض عليك من حديث، عيال على القالي الذي انفرد دون غيره من أصحاب الأمانات بتفصيل تلك الأحلاف، ولا بد من تنبيهك إلى أن العرب كثيراً ما تسمي عامل الشام قيصر وهو المراد في حديث القالي، ولعل عامل أنقرة هو المراد أيضاً من قيصر أنقرة فيما روى ابن سعد في طبقاته إذ قال:

((كان اسم هاشم عمراً وكان صاحب إيلاف قريش. وإيلاف قريش: دأب قريش، وكان أول من سن الرحلتين لقريش، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه، ورحلته في الصيف إلى الشام إلى غزة وربما بلغ (أنقرة) فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه))<sup>(١)</sup>.

ولا ينبغي أن تستغرب ما تقرأ في رواية القالي من اهتمام قيصر بهاشم فإن الروم كانوا يهتمون بمن ينزل أرضهم من العرب الغرباء وليس من المعقول أن يكون أمرهم هملاً، فالغالب أن هناك موظفين وعيوناً من العرب أو ممن يعرفون العربية يوافقون العامل بأخبار الطراء والتجار الأجانب، قال أبو علي القالي<sup>(١)</sup>:

((كانت قريش تجاراً، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب، فكانوا كذلك حتى:

أ- ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر، فكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون.

وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم، فذكر ذلك لقيصر فقيل له: ((هاهنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم)). وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز. فدعا به قيصر، فلما رآه وكلمه أعجب به، فكان يبعث إليه في كل يوم فيدخل عليه ويحدثه. فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له: ((أيها الملك إن قومي تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يُستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم)). فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم. فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مربحي من أحياء العرب أخذ من أشرفهم إيلاًفاً - والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، وإنما هو أمان الطريق - على أن قريشاً تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حُملائها ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوزهم ويوفيههم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتى أوردتهم الشام وأحلهم قراها. ومات في ذلك السفر بغزة.

ب- وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر إليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى الفيض، وهلك بردمان من اليمن.

ج- وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة، فأخذ إيلاًفاً كفعل هاشم والمطلب وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحجون.

(١) الطبقات ٤٣/١.  
(١) الأمالي ١٩٩/٣ طبعة دار الكتب.

د- وخرج نوفل بن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مرّ به من العرب. ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسلمان. واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها. فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منّة في الجاهلية والإسلام)). اهـ.

يمتاز هذا الخبر مما تقدمه بالدقة فقد عرفنا أن صاحب القاموس ومحمد بن حبيب فسرا الإيلاف بالعهد. وما يتبادر إلى الذهن من ذلك حقوق متقابلة وحلف دائم فقصر الإيلاف هنا على أمان الطريق فقط. وخرجنا من رواية القالي بأربع معاهدات تجارية، إلا أن الفكر ليستشرف لمعرفة نصوص هذه المعاهدات ويتوقع تفصيلاً أكثر. أما الكتاب الذي أشار القالي إلى أن قيصر كتبه لهاشم فإننا لم نجد له ذكراً بعد موت هاشم، فيما بين أيدينا من المصادر، وهو - إن صح وقوعه - من الخطر بمكان، بل هو مما يجب أن يعرض عليه بنو هاشم بالنواجذ؛ ففيه لهم فخر كبير وهم الحريصون على قيد كل صغيرة وكبيرة مما يدخل في باب المفاخرة فمن العجب سكوت الأخباريين عن ذكره في المناسبات التي كثيراً ما تعرض.

وهؤلاء (هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل) هم أصحاب الإيلاف ((الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها.. وكلّ كان رئيس من يخرج معه ممن يتجر في وجهه... فهؤلاء سادة قريش وناعشوهم))<sup>(١)</sup>.

لقد انتقلت أحوال قريش التجارية بهاشم وإخوته من طور إلى طور، فبعد أن كانت قاصرة على مكة يقدم عليهم فيها التجار الأعاجم فيشترون منهم سلعهم، خلصوا من تحكم الأجانب ومارسوا هم أنفسهم التجارة الخارجية بعد أن أمنوا الطريق وعقدوا المحالقات فعظمت ثرواتهم وفاض غناهم وأصبح معظم اتجار الجزيرة مع الأمم المجاورة حكرة لهم، وقد اعترفت قريش لأولاد عبد مناف بفضلهم وجميل صنيعهم لقومهم فسموهم (المجبرين)<sup>(٢)</sup> إذ بهؤلاء نفر الأربعة جبرت قريش وتبجحت في الخير والغنى والمقام.

ويزيد ابن سعد في طبقاته، فيذكر لنا شيئاً مما في عهد قيصر، ويذكر أيضاً كتاباً آخر أرسله قيصر إلى النجاشي يوصيه بهم ولم يشر إلى شيء من مضمون هذا الكتاب قال<sup>(٣)</sup>: ((كان هاشم رجلاً شريفاً وهو الذي أخذ الحلف لقريش من قيصر لأن تختلف أمانة. وأما من على الطريق (يعني قوافل العرب) فألفهم على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق. فكتب له قيصر كتاباً وكتب إلى النجاشي أن يدخل قريشاً أرضه)).

وفي شرح نهج البلاغة (٤٥٨/٣) أن هاشماً سأل قيصر أن يأذن لقريش في القдом عليه بالمتاجر، وأن يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه ففعل. والغموض الذي في الرواية المتقدمة يكتنف هذه أيضاً فليس فيها صيغة هذا الأمان ولا شروطه.

(١) محمد بن حبيب في كتاب المحبر ص ١٦٢-١٦٣.

(٢) وسموهم أيضاً أقذاح النصار لشرف أحسابهم وفضل مساعيهم، انظر الإسلام والحضارة العربية ص ١١٦.

(٣) الطبقات ٤٥/١.

ومهما يكن من شيء فإلى هؤلاء الإخوة الأربعة، يرجع الفضل كله في تثير  
تجارة قريش<sup>(١)</sup> وبنائها على أسس قوية حتى اتسعت فصارت شبه دولية بعد أن كانت  
موضعية لا تعدو الأسواق القريبة من مكة. فهم في الحقيقة أبطال قريش ورجالها  
في الاقتصاد وهم دعائمها التجارية التي قامت تلك الثروة العريضة بمساعيهم  
وكفاياتهم، وليس بقليل أن تفتح أربع ممالك أسواقها لقوافل قريش وتجارها. وما أنا  
إلى الغلو إذا زعمت أن فضل هذه الأحلاف امتد حتى زمن الإسلام، وأن المسلمين  
الأولين ما اختيرت لهم الحبشة مهاجراً إلا لاعتيادهم الرحلة إليها متاجرهم، وإلا  
لمعرفتهم بها وبأهلها لكثرة ارتيادهم إياها وحمدهم مقامهم فيها وحسن ما يلقون من  
معاملة طيبة.

في الخبر بعد، إشارة إلى كرم هاشم وكثرة إنفاقه على إخوانه، وأن أفعاله نمت  
على أصله وسيادته وشرفه، كما فيه تصريح بأسلوب الروم وأسلوب العرب في أكل  
اللحم والمرق وكيف عجب الروم من الثريد لأنه طراز لم يألفوه.

\* \* \*

ذكروا أن اللام في قوله تعالى أول السورة: **{إِيلَافِ قُرَيْشٍ}** للتعجب فالمعنى:  
عجبوا لإيلاف قريش، وآخرون علقوها ومجروها بالفعل فقالوا إن المعنى: فليعبدوا  
رب هذا البيت لإيلافهم<sup>(١)</sup>. فجعلوا الفاء في الفعل زائدة لتحسين اللفظ وتقوية المعنى  
كما في قوله تعالى: **{وَرَبَّكَ فَكَبِّرُ}** وجعلوا ((إيلاف)) الثانية توكيداً للأولى.

وقد امتن الله عليهم بإيمان خوفهم من الغارات والحروب والقتال وغير ذلك من  
الأمور التي يخافها كل عربي غيرهم حتى إن الرجل منهم ليصاب في حي من أحياء  
العرب فإذا قال: أنا حرمي (أي من أهل الحرم) أطلقوه وكفوا عن ماله إكراماً له.

وقد آمن الله أهل مكة من خوف آخر هو جيش أبرهة أصحاب الفيل حين ردهم الله  
عن مكة والبيت بعد أن اعتصم أهلها بالشغاف والهضاب. ومن عليهم حين أنقذهم من  
جوع السنين التي أصابهم قحطها من قبل. فذكر ابن عباس وعكرمة<sup>(١)</sup> أن الله أمرهم  
في هذه السورة بالإقامة بمكة لعبادة رب هذا البيت. إذ كفاهم مؤونة رحلتهم بعد أن  
كانوا لا يكادون يرتاحون في صيف ولا شتاء.

لخص صاحب القاموس ما تقدم حين عرض لتفسير الإيلاف فقال:

((والإيلاف في التنزيل (العهد) وشبه الإجازة بالحفارة وأول من أخذه هاشم من  
ملك الشام، وتاويله أنهم كانوا سكان الحرم، أمنين في امتيادهم وتنقلاتهم شتاءً وصيفاً  
والناس يُتَخَطَّفون من حولهم، فإذا عرض لهم عارض قالوا: ((نحن أهل حرم الله، فلا  
يتعرض لهم أحد... وكان هاشم يؤالف إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب  
إلى اليمن، ونوفل إلى فارس وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بجبال

(١) ومن حولها أيضاً من التجار غير القرشيين الذين ضربوا في الأرض للتجارة بعد أن مهدت لهم قريش السبيل،  
فكتب السيرة مثلاً تذكر لنا أن مشركي مكة أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي سفيراً إلى الرسول في مفاوضات  
الحديبية وأن من قوله لقريش لما عاد ((يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه وفيصر في ملكه والنجاشي  
في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه.. الخ)).  
(١) والوجه ما تقدم لك ص ١٥٢ من تعليق (الإيلاف) بقوله {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} فارجع إليه.  
(١) راجع أقوال المفسرين في ذلك.

(عهود) هؤلاء الإخوة، فلا يتعرض لهم. وكان كل أخ منهم أخذ حبلاً من ملك ناحية سفره أماناً له)).

### ج- حرب الفجار

أفردت هذا البحث وإن كان حقه أن يذكر في أحداث سوق عكاظ، لخطره وبعد أثره، ولأن هذا الفجار كان في حقيقته نزاعاً على النفوذ التجاري والأدبي، بين قريش وأحلافها وبين هوازن القبيلة المعروفة بعددها وبطشها.

وقعت هذه الحرب وكان بود قريش ألا تقع، لميلها إلى السلم الضروري لتجارتها وكانت تجنح إلى السلم في كثير من أمورها وخاصة مع قبيلة هوازن التي لها القوة والمنعة حول عكاظ. فإن قريشاً ترهب جانبها وتجتنب ما يعكر الصفو بينها وبين هوازن حرصاً على سلامة الموسم وعلى تجاراتها فيها. يدلنا على ذلك أن عبد الله بن جدعان كان طرد مئة ناقة لكلاب بن ربيعة فأرسل كلاب إلى قريش: ((إن سفيهم أغار علي وطردي مئة ناقة، فليس لكم أن تشهدوا عكاظ ولي عليكم تره)). وكانت عكاظ في وسط أرض قيس بن عيلان، قال ابن جدعان: ((وإن قريشاً انتمرت بقتلي،  
ط لد لا يستغنون عن بلد



غموض آخر اشترك فيه الفريقان معاً وهو أن أيام الفجار الآخر تفرقت على أربع سنين، ففي أيتها كان عمره أربع عشرة أو عشرين؟ وأنا لم أهتد بعد إلى الحق الذي لا حق غيره في هذه الروايات. ونبه صلى الله عليه وسلم على أعمامه فسر بوجهين: أما صاحب العقد الفريد فقال: أنبل بمعنى أتناولهم النبل وهو خلاف ما ذهب إليه ابن هشام في سيرته من أن معناه أنه كان يرد عنهم نبل عدوهم. إلا أن تعدية الفعل بـ(على) ترجح التفسير الأول فقد جاء في القاموس: نبل عليه: لقط له النبل. وروى الحديث (في مادة فجر) - وكذلك رواه ابن سعد - على هذه الصيغة: ((كنت أنبل على عمومتي يوم الفجار، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت)).

فإن يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حضر الأيام جميعها وكانت سنة أول ما هاجت خمس عشرة سنة - على إحدى روايتي ابن هشام - أمكن التوفيق بين الروايات على وجه التقريب فتكون الحرب قد وضعت أوزارها وقد أشرفت سنة على العشرين. فكان يلتقط السهام في أولها ويرمي بنفسه في آخرها، فعلى الرواية الأولى تكون الحرب قد وقعت قبل البعثة بخمسة وعشرين عاماً وتوافق سنة (٥٨٥) للميلاد المسيحي.

### سبب الحرب

من عادة النعمان بن المنذر ملك الحيرة أنه يرسل كل عام إلى سوق عكاظ لطيمة (وهي الجمال تحمل المسك والطيب) بجوار رجل شريف من أشرف العرب، يحميها له حتى تصل إلى السوق فتباع فيها ويشتري له بثمنها آدم من آدم الطائف.

ولا يقوم عادة بعبء حمايتها إلا رجل منيع، لقومه عدد وعزة. وكان الذي يجبرها في الغالب سيد مضر<sup>(١)</sup>.

فلما جهز النعمان اللطيمة لهذا العام (٥٨٥م) قال: ((من يجيرها؟)).

وكان بحضرته أناس من أشرف القبائل، فانبرى له البراء بن قيس الضمري، وكان فتاكاً يضرب بفتكه المثل فقال: ((أنا أجيرها على بني كنانة)). فقال النعمان: ((ما أريد إلا رجلاً يجيرها على أهل نجد وتهامة)). فقام عروة الرحال أحد أشرف هوازن وكبرائها فقال: ((أكلبُ خليع يجيرها لك؟ أبيت اللعن، أنا أجيرها لك على أهل الشيخ والقيصوم)) يريد عامة العرب. فحقدوا عليه البراء وقال: ((أعلى بني كنانة تجيرها يا عروة؟)) قال: ((نعم وعلى الناس كلهم)). فحمي البراء إذ عدها استهانة به واستخفافاً بقومه، وأضرها في نفسه غدره شنعاء.

دفع النعمان اللطيمة إلى عروه فخرج بها، فتبعه البراء وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه شيئاً لأنه منيع بين قومه من غطفان، حتى إذا بلغوا (فدك) نزل عروة في أرض يقال لها ((أواره)) فشرب الخمر وغنّته قينة ثم قام فنام.

اغتنم الفرصة البراء، وانسل إليه في خبائه، فلما رآه عروة ناشده واعتذر إليه وقال: ((كانت مني زلة)) فلم يفد الاعتذار شيئاً ولم يخفف مما يضطرم في صدر البراء من الحقد، فانقض على عروة فقتله وخرج يرتجز ويقول:

قد كانت الفعلة مني ضلّة

(١) الأغاني ٧٥/١٩.

## هلا على غيري جعلت الزلّة فسوف أعلو بالحسام القلّة

ثم أنشد:

وداهية يُهال الناس منها  
قدمت بها بيوت بني كلاب  
شددت لها بني بكر ضلوعي  
وأرضعت الموالي بالضروع  
جمعت له يدي بنصل سيف  
فخر يמיד كالجدع الصريع<sup>(١)</sup>

واستاق اللطيمة إلى خيبر، وبعث رسولاً مستعجلاً إلى حرب ابن أمية يخبره أنه قتل عروة فليحذر قيساً<sup>(١)</sup>، فتبعه رجلان من غطفان يريدان قتله، فكان هو أول من لقيهما فعرف ما قصدا إليه فنوى التعجيل بهما فقال لهما: ((من الرجلان؟)) قالوا: ((من غطفان وغني)) قال البراض: ((ما شأن غطفان وغني بهذه البلدة؟)) قالوا: ((ومن أنت؟)) قال: ((من أهل خيبر)) قالوا: ((ألك علم بالبراض؟)) قال: ((دخل علينا طريداً خليعاً فلم يؤوه أحد بخيبر ولا أدخله بيتاً)). قالوا: ((فأين يكون؟)) قال: ((فهل لكما به طاقة إن دلتكما عليه؟)) قالوا: ((نعم)) قال: ((فانزلا)) فنزلا فعقلا راحلتيهما. قال البراض: ((فأيكما أجراً عليه وأمضى مقدماً وأحد سيفاً؟)) قال الغطفاني: ((أنا)) قال: ((فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحتيكما)). ففعل.

وانطلق البراض يمشي بين يدي الغطفاني حتى انتهى إلى خربة في جانب خيبر؛ خارجة عن البيوت فقال البراض: ((هو في هذه الخربة وإليها يأوي، فانظرني حتى أنظر: أثم هو أم لا؟)) فوقف له الرجل ودخل البراض ثم خرج إليه وقال: ((هو نائم في البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت. فهل عندك سيف فيه صرامة؟)) قال: ((نعم)) قال: ((أرني سيفك أنظر إليه أصارم هو؟)) فأعطاه إياه، فهزه البراض ثم ضربه به فقتله. ووضع السيف خلف الباب.

وأقبل على الغنوي فقال: ((ما وراءك؟)) قال البراض: ((لم أر أجبن من صاحبك، تركته قائماً في الباب الذي فيه الرجل - والرجل نائم - لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه)). قال الغنوي: ((يا لهفاه! لو كان أحد ينظر راحلتينا)). قال البراض: ((هما علي إن ذهبتا)). فانطلق الغنوي والبراض خلفه حتى إذا جاوز الغنوي باب الخربة أخذ البراض السيف من خلف الباب ثم ضربه به حتى قتله، وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق.

### يوم نخلة:

بلغ قريشاً خبر البراض وقتله عروة وفزعوا أن تعلم بذلك هوازن فتدهمهم وكانوا في عكاظ في الشهر الحرام فخلصوا نجياً (واتفق رأيهم أن يخاطبوا عامر بن مالك سيد قيس بذلك فأتوه وأخبروه فأجاز مالك بين الناس، وأعلم قومه ما قيل له وأوشكوا أن يصطلحوا). لكن فريقاً منهم خافوا أن يكون قومهم بمكة في ضيق فانسلوا من

<sup>(١)</sup> أرضعت الموالي بالضروع: ألحقت الموالي بمنزلتهم من اللؤم ورضاع الضروع وأظهرت فسالتهم، وهذا كما يقال: لنيم راضع، أي: يرضع اللؤم من ثدي أمه. والقلّة من كل شيء: أعلاه.  
<sup>(٢)</sup> تاريخ العرب قبل الإسلام لزيدان ٢٤١/١.

عكاظ وهوازن لا تشعر بهم وتوجهوا نحو مكة رجاء أن ينصروا إخوانهم إن كان حزبهم أمر.

وكان من عادة العرب إذا وفدت على عكاظ أن تدفع أسلحتها إلى عبد الله بن جدعان، وكان هذا سيداً حكيماً مثرياً من المال، فتبقى عنده أسلحة الناس حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم فيردها عليهم إذا ظعنوا، فلما كان من أمر البراض ما كان قال حرب بن أمية لابن جدعان: ((احتبس قبلك سلاح هوازن)). فقال عبد الله: ((أبا الغدر تأمرني يا حرب؟ فوالله لو أعلم أنه لا يبقى فيها سيف إلا ضربت به ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئاً، ولكن لكم مئة درع ومئة رمح ومئة سيف تستعينون بها)). ثم صاح ابن جدعان في الناس: ((من كان له قبلي سلاح فليأت وليأخذه)). فأخذ الناس أسلحتهم.

وبعث ابن جدعان وحرب بن أمية وهشام والوليد ابنا المغيرة إلى أبي براء سيد قيس: ((إنه قد كان بعد خروجنا حرب وقد خفنا تفاقم الأمر فلا تنكروا خروجنا)). وساروا راجعين إلى مكة<sup>(١)</sup>.

فلما كان آخر النهار بلغ أبا البراء قتل البراض عروة فقال: ((خدعني حرب وابن جدعان)). وركب فيمن حضر عكاظ من هوازن في إثر القوم فأدركوهم في نخلة قبيل الحرم، فناوشوهم شيئاً من القتال يسيراً حتى جاء الليل ودخلت قریش الحرم فأمسكت هوازن عنهم ونادوهم: يا معشر قریش! إنا نعاهد الله ألا نبطل دم عروة الرحال أبداً أو نقتل به عظيماً منكم، وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام المقبل)).

ونادى رجل من بني عامر:

لقد وعدنا قریشاً وهي كارهة بأن تجيء إلى ضرب رعابيل<sup>(٢)</sup>

فقال حرب بن أمية لأبي سفيان ابنه: قل لهم: ((إن موعدكم قابل في هذا اليوم)).

وتعرف هذه الواقعة بيوم نخلة، وقد تعطلت السوق فلم تقم تلك السنة. فقال خدش بن زهير يذكر قریشاً بها ويعيرهم، وكانت العرب تسمى قریشاً (سخينة) لأكلها السخينة وهي طعام رقيق يتخذ من دقيق:

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على (سخينة) لولا الليل والحرم

إذ يتقينا هشام بالوليد ولو أنا ثقنا هشاماً شالت الخدم

لما رأوا خيلنا تزجي أوائلها أساد غيل حمى أشبالها الأجم

ولوا شلالاً وعظم الخيل لاحقة كما تخب إلى أعطانها النعم<sup>(١)</sup>

بين الأراك وبين المرج تبطحهم زرق الأسنة في أطرافها السهم

فإن سمعتم بجيش سالك شرفاً وبطن مرّفاً خفوا الجرس واكتتموا

وهذا غاية في التعبير وفي وصف شدة الحرب حتى صار الأخ يفندي نفسه بأخيه.

(١) الأغاني ٧٦/١٩.

(٢) ثوب رعابيل: ممزق بال.

(٣) الخدم جمع خدمة وهي حلقة القوم حيث يجتمعون، عظم الخيل: معظمها. تخب: تسرع. والأعطان: مبارك الإبل حول الماء، أو هي كالأوطان للناس. شلالاً: خفافاً سراعاً وانظر طبقات فحول الشعراء ص ١٢١.

## يوم شمظة:

شمظة<sup>(٢)</sup> موضع في عكاظ نزلته كنانة بعد عام من يوم نخلة حسبما اتعدوا هم وهوازن. فاحتشدت كنانة، قريشها وعبد منافها والأحابيش<sup>(١)</sup> ومن لحق بهم، وسلح يومئذ عبد الله بن جدعان مئة كميّ بأداة كاملة سوى من سلح من قومه. وعلى إحدى مجنبتى كنانة عبد الله بن جدعان، وعلى الثانية كريس بن ربيعة، وأمر الجميع إلى حرب بن أمية الذي كان في القلب. أما هوازن وأحلافها فأمرها إلى مسعود بن معتب الثقفي. واعتزل فريق من الحيّين فلم يشهدوا الحرب.

ثم تناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض، فكانت الدائرة أول النهار لكنانة على هوازن، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت، فانقضت كنانة واستحرق القتلى فيهم، فقتل منهم تحت رايتهم مئة رجل، ولم يقتل من قريش يومئذ أحد يذكر؛ وذلك قول خدّاش بن زهير:

فأبلغ إن عرضت بنا هشاماً  
أولئك إن يكن في الناس خير  
هم خير المعاشر من قريش  
بأننا يوم (شمظة) قد أقمنا  
فجاؤوا عارضاً برداً وجئنا  
فعانقنا الكمأة وعانقونا  
ونادوا: يا لعمر ولا تفروا  
فولوا نضرب الهامات منهم  
فلم أر مثلهم هزموا وقلوا

وعبد الله أبلغ والوليدا  
فإن لديهم حسباً وجودا  
وأوراهم إذ قدحت زنودا  
عمود الدين إن له عمودا  
كما أضرمت في الغاب الوقودا  
عراك الثمر واجهت الأسودا  
فقلنا: لا فرار ولا صدودا  
بما انتهكوا المحارم والحدودا<sup>(١)</sup>  
ولا كذيادنا عنقاً مذودا

## يوم العبلاء:

عاد الأحياء المذكورون من هؤلاء وأولئك فالتقوا من قابل في اليوم الثالث من أيام عكاظ بالعبلاء إلى جنب عكاظ فاقتتلوا على التعبئة التي تقدمت.

فكان هذا اليوم أيضاً لهوازن على قريش وكنانة. فأصيبت قريش وقتل أحد صنّاديديها العوام بن خويلد، والد الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، قتله مرة بن معتب الثقفي، فقال في ذلك رجل من ثقيف يفتخر بقتله لما له من الخطر:

منا الذي ترك العوام مجندلاً  
تنتابه الطير لحماً بين أحجار

وفي هذا يقول شاعر هذه الحروب من هوازن. خدّاش بن زهير:

<sup>(٢)</sup> أثبتتها ياقوت في معجم البلدان بالطاء وذكر أن الأزهري نقلها بالطاء، قلت: وهو المشهور المتداول في كتب اللغة.  
<sup>(١)</sup> الأحابيش حلفاء قريش وهم - على ما قال ابن قتيبة - بنو المصطلق، والحياء بن سعد بن عمرو، وبنو الهون بن خزيمة، اجتمعوا أسفل جبل بمكة اسمه (حبشي) فتحالفوا بالله إنا ليد على غيرنا ما سجا ليل وأوضح نهار وما رسا حبشي. وقيل: سموا بذلك لاجتماعهم والتحبيش التجميع. العمدة ١٨٥/٢، القاموس مادة (حبش).  
<sup>(١)</sup> انظر خزانة الأدب، وطبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٣ (في طبعة دار المعارف: ص ١٢١). أبلغ بحذف نون التأكيد الخفيفة وإبقاء فتحة البناء على آخر فعل الأمر. والذباد: الدفاع، والعنق: المقبولون بجماعاتهم.

ألم يبلغكم أنا جدعنا  
فقدتكم ولحظكم إلينا  
ضربناهم ببطن عكاظ حتى

ويقول:

ألم يبلغك ما لقيت قريش  
دهمناهم بأر عن مكفر  
فظل لنا بعقوتهم زئير<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

يوم شرب<sup>(٣)</sup>

ثم التقوا على رأس الحول في اليوم الثالث من عكاظ أيضاً بشرب، وشرب من عكاظ. ولم يكن بين الفريقين يوم أعظم منه، صدقوا فيه الحملة، وصبروا حفاظاً وحمية، وقد أبلت فيه قريش بلاء حسناً. وكان الذي أحماهم أن لهوازن عليهم يومين ذهبت بفخرهما. فحافظت قريش وكنانة وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر، وقيد ثلاثة شجعان من قريش وأشرفها أنفسهم وقالوا: ((لا يبرح منا رجل مكانه حتى يموت أو نظفر)) وهم أبو سفيان وحرب ابنا أمية، وأبو سفيان بن حرب والد معاوية فسموا (العنابسة) من يومئذ. وكان على الفريقين رؤسائهم السابقون، واستمر القتال بهذه الشدة حتى انهزمت هوازن وقيس كلها رغم عددها وعدتها، إلا بني نصر فإنهم صبروا مع تقيف، وذلك لأن عكاظ بلدهم، لهم فيه نخل وأموال إلا أنهم لم يغنوا شيئاً ثم انهزموا أيضاً وقتلت هوازن يومئذ قتلاً ذريعاً. وذهبت بفخر هذا اليوم كله كنانة وقريش، فارتفعت أصوات شعرائهم تخلد هذا النصر المؤزر، وما لها لا تفعل، وقد لقيت خزيًا كبيراً من شعراء هوازن، وما شأن شاعر تفقده أمته يوم الحاجة، وأي غناء لشاعر لا قوم له، فقال أمية بن أسكر الكناني:

ألا سائل هوازن يوم لاقوا  
لدى شرب وقد جاشوا وجشنا

وقال:

قومي اللذو بعكاظ طيروا شراراً  
من روس قومك ضرباً بالمصاقيل<sup>(١)</sup>

وقال جذل الطعان:

جاءت هوازن أرسالاً وإخوتها  
فاستقبلوا بضراب فض جمعهم  
بنو سليم فهابوا الموت وانصرفوا  
مثل الحريق فما عاجوا ولا عصفوا

(١) هذا البيت في كتاب (الإمتاع والمؤانسة ٢٢١/١) وهو في لسان العرب: (عدمتكم ونظرتكم إلينا) الغداد: جمع غادة! أي ناقة ذات غدة.

(٢) أبيروا: أهلكوا. العقوة ما حول الدار، المحلة.

(٣) ضبطه ياقوت في معجم البلدان، بفتح فكسر نقلاً عن أبي بكر بن نصر فأما التي في شعر ابن مقبل فبفتح فسكون.

(٤) وعب: جمع.

(٥) اللذو: لغة في الذين، والمصاقيل: السيوف.

وقال عبد الله بن الزبيري شاعر قريش (والمشركين فيما بعد):

ألا لله قوم و  
هشام وأبو عبد  
وذو الرمحين أشباك  
فهذان يذودان  
لدت أخت بني سهم  
مناف مدره الخصم  
من القوة والحزم  
وذا من كذب يرمي<sup>(٢)</sup>

### يوم الحريرة:

وهو آخر أيامهم. ثم التقوا على رأس الحول بالحريرة وهي حرة إلى جنب عكاظ مما يلي مهب جنوبها، وعلى كل قوم رؤسائهم السابقون. فاقتتلوا قتالاً شديداً كان شوماً على قريش وأحلافها، قتل فيها من كنانة ثمانية نفر، وقتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب جد معاوية. وكان يوماً لهوازن فخره ونصره. فلعل صوت شاعر هوازن بهذه الصاعقة المجلجلة:

إني من النفر المحمرّ أعينهم  
الطاعنين نحور الخيل مقبلة  
وقد بلوتم فابلاكم بلاؤهم  
لاقتهم منهم أساد ملحمة  
فالآن إن تقبلوا ناخذ نحوركم  
وقال الحارث بن كلدة الثقفي:  
تركت الفارس البذاخ منهم  
أهل السوام وأهل الصخر واللوب<sup>(١)</sup>  
من كل سمراء لم تغلب، ومغلوب  
يوم الحريرة ضرباً غير مكذوب  
ليسوا بدارعة عوج العراقيب  
وإن تباهاوا فإنني غير مغلوب  
تمجّ عروقه علقاً عبيطا

<sup>(٢)</sup> وتنتمى هذه الأبيات:

أسود تزدهي الأقران

وهم من ولدوا أشبوا

فإن أحلف وبيت الله

لما من إخوة بين

ن مئاعون للهضم

وهم يوم عكاظ منعوا الناس من الهزم

يسر الحسب الضخم

لا أحلف على إثم

قصور الشام والردم

بأزكى من بني ربيعة أو أوزن في الحلم

أبو عبد مناف الفاكه بن المغيرة. وربطة هذه التي عناها هي أم بني المغيرة وهي بنت سعيد بن سعد بن سهم، ولدت من المغيرة هشاماً وأبا ربيعة والفاكه وذو الرمحين هو أبو ربيعة بن المغيرة لقب به لقتاله في هذه الحرب برمحين. وأشباك: حسبك. والمدرة: زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم. تزدهي الأقران: تستخف بهم. وأشبي فلان: إذا ولد له ولد كئيب. والردم مكان بمكة يضاف إلى بني جُمح، وقرية بالبحرين.

هذا وقد اختلف في قائل هذه الأبيات، فقيل: ابن الزبيري. وقيل: عمر بن أبي ربيعة حفيد ذي الرمحين، وقد كشف الأصفهاني في حقيقتها بخبره الطريف المشهور قال: قال أبو نهشل: جئت أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام الوارد ذكره في الأبيات، قصدته أطلب منه مغرمًا فقال: يا خال هذه أربعة آلاف درهم، وأنشد هذه الأبيات الأربعة (الأولى) وقل سمعت حسان ينشدها رسول الله ﷺ. فقلت: أعوذ بالله أن أكذب على الله ورسوله، ولكن إن شئت أن أقول: سمعت عائشة تنشدها فعلت. فقال: ((لا، إلا أن تقول: سمعت حسان ينشدها رسول الله ﷺ ورسول الله جالس)) فأبى عليّ وأبيت عليه، فأقمنا لذلك لا نتكلم عدة ليال، فأرسل إليّ فقال: قل أبياتاً تمدح بها هشاماً - يعني جده ابن المغيرة - وبني أمية. فقلت: ((سمهم لي)). فسماهم وقال: ((اجعلها في عكاظ واجعلها لأبيك)) فقلت: ((ألا لله.. الأبيات)) ثم جئت فقلت: ((هذه قالها أبي)) فقال: ((لا، ولكن قل: قالها ابن الزبيري)) قال: فهي إلى الآن منسوبة في كتب الناس إلى ابن الزبيري)) وقيل: هن لعمر بن أبي ربيعة، والله أعلم.

<sup>(١)</sup> اللوب: جمع لابة وهي الحرة.

دعست بنانه بالرمح حتى  
لقد أريدت قومك يابن صخر  
وكم أسلمت منكم من كمي  
سمعت لمتنه فيه أطيطا  
وقد جشمتهم أمراً شطيظا  
جريحاً قد سمعت له غطيظا<sup>(٢)</sup>

ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقي الرجل، والرجلان يلقيان الرجلين فيقتل بعضهم بعضاً. فلقي ابن محمية بن عبد الله الديلي زهير بن ربيعة أبا خراش فقال زهير: ((إني حرام جنئت معتمراً)). فقال له: ((ما تلقى طوال الدهر إلا قلت: أنا معتمر)) ثم قتله.

انقضت هذه الأيام الخمسة في اربع سنين. ثم تداعى الفريقان إلى السلم على أن يذروا الفضل في الدماء والأموال ويتعاهدوا على الصلح.

عقدوا على ذلك الموثيق وبقيت هذه الأحداث للذكرى والفخر، يتمجد كل شاعر قوم بما فعل قومه، ويتغنى بما كان لهم من محامد. وانظر إن شئت أن ترى آثار ذكرها في مثل قول عبد الله بن الزبيري السهمي:

وإن قصياً أهل عز ونجدة  
هم منوعوا يومي عكاظ نساءنا  
أو قول بعضهم:

نحن كنا الملوك من آل نجد  
ومنعنا (الحجون) من كل حي  
وقول خدّاش بن زهير:

فلا توعديني بالفجار فإنه  
أهل ببطحاء (الحجون) المخازيا<sup>(١)</sup>  
أو قول عاتكة بنت عبد المطلب تخلد نصر قومها في هذه المقطوعة الرائعة:

سائل بنا في قومنا  
قيساً وما جمعوا لنا  
فيه السنور والفتنا  
بعكاظ يعشي الناظري  
فيه قلّتنا مالكا  
ومجدلاً غادرناه  
وليكيف من شرّ سماعه  
في مجمع باق شناعه  
والكبش ملتجع قناعه  
ن - إذا هم لمحووا - شعاعه  
قسراً وأسلمه رعاعه  
بالقاع تنهسه ضباعه

هكذا كانت تجارة العراق في عكاظ وما يفيد من يجيرها من أرباح مادية ومعنوية هو وقبيلته، سبباً مغريباً في هذه الحروب، وأي بدع في هذا فإننا ما نزال إلى اليوم

(٢) البعير البذّاخ: الهدّار المخرج لشقشقته. والبذخ في الأصل الكبر والعلو. العلق العبيط: الدم المتجمد، دعس: طعن. الأطيط: صوت الغطيظ للبعير: هديره، وللناثم: صوته.

(١) الشول: النوق التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها، الواحدة شائلة. والهجان: الإبل الكرام، والقروم: الفحول، بلوغ الأرب ٨٤/٣.

(١) مروج الذهب ١٦٢/٢.

نرى أكثر الحروب في حقيقتها تطاحناً على النفوذ الاقتصادي وتكاد أحداث القرن العشرين كلها تكون حول التنافس التجاري إن لم يكن بصورة جلية فمن وراء الستار.



## د- حلف الفضول

ما نظر القرشيون إلى حلف ولا عهد، نظرهم إلى حلف الفضول فهو يظفر منهم برعاية مقدسة وتبجيل وشرف قلما كان بعضه لحلف آخر.

هو حلف تجاري بمقدماته ونتائجه، حفظ سمعة قريش وسان ازدهار أسواق مكة، وأسدل عليها ستاراً من الإنصاف والأمن وحماية الضعيف بعد أن كاد الأمن فيها يتعرض للخطر، وكادت حوادث الاعتداء على حقوق الضعفاء تزداد حتى أوشكت أن تززع ثقة الأعراب وتجار النواحي بأسواق مكة.

ولم تنحصر ثمرته فيما سبق الإسلام بل استمرت فيه وازدادت تأييداً وقوة ومنعة، أثنى عليه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم واعتز به، ولما هتف الهاتف به بعد نحو ثمانين سنة من عقده<sup>(١)</sup> استجاب الناس له كأن عهدهم به أمس، فكان جديداً لم تُخلق جدته تلك السنون الثمانون التي تمخضت عن أعظم الحوادث الكبار: ظهور الشريعة الإسلامية، وفتوح العرب وانقراض فارس وانكماش الروم. أهاب الداعي بأصحابه (وقد مات أكثرهم) فهب أبناؤهم متحفزين لنصرتهم حتى خافت القوة الحاكمة وأذعن والي المدينة، ورد الحق إلى صاحبه. ولقد بلغ من شرفه واقتعاده تلك المكانة في نفوس الناس أن استشرف خليفة عظيم كعبد الملك بن مروان ليعده الناس ممن دخل فيه، فلما لم يظفر بذلك نددت منه حسرة غير خفية.

\* \* \*

كان يهبط مكة من همل الأعراب وسُداجهم، وضعاف المتكسبين وأرباب السلع أخلاط كثيرة، وهم لا ناصر لهم يحميهم ولا منعة فيهم، يؤمون أسواق مكة موقنين بأن أمن الحرم يسعهم جميعاً. فلم يكونوا يتوقعون أن أحداً تحدثه نفسه بتكدير صفائه. لكن الواقع انكشف عن أنه لم تكن مكة لتخلو من أناس بطرين، يستهينون بالضعيف ولا يعفون عن هضمه وسلبه. وكان يحدث حينئذ ما يحدث دائماً في كل زمان، من استغلال السداجة في هؤلاء الغرباء: تارة بغبنهم في الثمن وتارة بمطلهم بالديون وأونة بغشهم وأخرى بالاستهتار بهم. وكانت تنتشر هذه الحوادث حتى تصل إلى أسماع أشراف مكة فينكرونها في أنفسهم. إلا أنها - في الظاهر - تعددت حتى لم يعد يصح السكوت عليها، وحتى خشي على البلد أن يفشو له ذكر سيئ فسعى الأشراف بعضهم إلى بعض وعقدوا الحلف وأكدوه ونصبوا أنفسهم لحمايته.

أما السبب المباشر لعقد هذه الحلف فيما ذكروا<sup>(١)</sup> من أن رجلاً من زبيد من أهل اليمن باع سلعة من العاص بن وائل السهمي (وهو قرشي) فظلمه بالثمن فأوفى على جبل أبي قبيس رافعاً عقيرته وقريش في أنديتها، فذكر ظلامته في شعر له وهو:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته  
ببطن مكة نائي الدار والنفر  
ومحرم أشعث لم يقض عمرته  
يا للرجال وبين الحجر والحجر

(١) سيأتي تفصيل هذا بعد قليل.  
(١) سيرة ابن هشام ١/١٢٥.

إن الحرام لمن تمت مكارمه

ولا حرام لثوب الفاجر الغدر<sup>(٢)</sup>

فتداعت لذلك قريش واجتمعت إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى فدخلوا دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه وتعاهدوا بالله: ليكونن مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه. فلا يجدون بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلّمته. اهـ.

وزاد الجاحظ: ((وفي التآسي في المعاش والتساهم بالمال))<sup>(١)</sup> وكان من أسرعهم تلبية له الزبير بن العوام<sup>(٢)</sup>.

شهد هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فتى فلما أكرمه الله بالرسالة حمد أثره وكان به جذلان مغتبطاً حتى روي عنه قوله:

((لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمُر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت))، ((لا يزيده الإسلام إلا شدة)).

وكان هذا الحلف منصرف قريش من حروب الفجار لعشرين سنة من عام الفيل فتكون سن رسول الله حينئذ عشرين سنة<sup>(٣)</sup>.

وذكروا في سبب تسميته حلف الفضول، أنه أشبه حلفاً وقع لثلاثة من جرهم كل واحد منهم يقال له الفضل. وأقرب من هذا المذهب إلى الواقع ما ذكره صاحب القاموس من أن سبب تسميته بذلك لأنهم تحالفوا ألا يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحداً إلا أخذوه له منه.

وهذا هو الصحيح لوضوحه وقربه، ولأن ثمرة الحلف كله هي رد الفضول لأهلها. ومن يتدبر الأسباب التي تكلفها الرواة فجعلوها كمقدمات لعقده ويمحصها يجد أن الداعي الأول له حرص قريش على سمعة بلدهم التجارية أن تتلم بين العرب فتنزعزع ثقتهم بقريش وبلدهم. وليس يظفر من كل تلك الأسباب المذكورة بالقبول إلا ما تقدم فإن الحوادث وحالة مكة وأمور قريش يومذاك تؤيده كل التأييد. ومن البعيد أن يعقد مثل هذا الحلف من أجل ظلامة الزبيدي هذا، من غير أن تتكرر الحوادث المشابهة لها حتى تفاقم الأمر وألف رجال كثيرون إتيان المظالم.

عظمت قريش أمر حلف الفضول واهتمت به كل الاهتمام ولم ينقطع أمره بالإسلام بل ظل مستمراً أقوى ما كان قط وحسبك قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ولو أدعى به في الإسلام لأجبت)).

<sup>(١)</sup> رواية الجاحظ لهذا البيت في رسائله (جمع النسدي ص ٧٢).

إن الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوبي لابس الغدر

<sup>(٢)</sup> المصدر السابق وانظر تفصيلاً عنه في الأغاني ٦٣/١٦-٦٨.

<sup>(٣)</sup> ذكر الجاحظ أنه لما سمع أبيات الزبيدي حمي وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوي من ظلم الضعيف، والقاطن من عنف الغريب ثم قال:

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم  
نسويه الفضول إذا عقدنا  
ويعلم من حوالي البيت أنا  
الصفحة السابقة وانظر: مروج الذهب ١٦٨/٢ هذا وفي الشعر صناعة.  
<sup>(٣)</sup> انظر طبقات ابن سعد ٨٢/١.

ثم كان يدعو بهذا الحلف كل مظلوم: دافع أبي بن خلف الجمحي بارقياً عن ثمن سلعته فتظلم هذا قائلاً:

أياخذني في بطن مكة ظالماً  
وناديت قومي صارخاً لتجيبني  
ويأبى لكم حلف الفضول ظلامتي  
فأخذ له بنو هاشم ثمن سلعته.

أبيُّ ولا قومي لدي ولا صحبي  
وكم دون قومي من فيافٍ ومن سهبٍ  
بني جمح والحق يؤخذ بالغصب<sup>(١)</sup>

ورأى نبيه بن الحجاج (قتول) بنت التاجر الخثعمي وكانت حسناء باهرة، فكابر التاجر على ابنته حين رأى جمالها فتظلم إلى ذوي الحلف فانتزعوا ابنته من نبيه الذي قال في ذلك:

إنني والذي يحج له  
وخشيت الفضول حين أتوني  
شمط إباد وهلوا تهليلاً  
قد أراني ولا أخاف الفضولا  
لبراء مني قتيلة يا للناس هل يبتغون إلا القتولا<sup>(٢)</sup>

وذكر الجاحظ أن بني هاشم وحلفاءهم انتزعوا الظلامات من رجال كثيرين وأنه ((لم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقوياء ولهم العدد والعارضة))<sup>(١)</sup>.

ويحلو لي أن أبين للقارئ امتداد هذا الحلف التجاري في حياة المسلمين وتمسكهم به، فابن هشام يروي: أن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كان والياً على المدينة، ولاه عليها عمه معاوية. وكان بين الوليد والحسين بن علي منازعة في ماله كان بينهما بذي المروة. وكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه يومئذ، فقال الحسين: ((أحلف بالله لتتصفني من حقي أو لأخذن سيفي، ثم لأقو من في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لأدعون بحلف الفضول...)) وكان عبد الله بن الزبير حاضراً مجلسهما هذا فغضب للحسين وقال يتهدد الوليد: وأنا أحلف بالله، لئن دعا به لأخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً)).

وبلغ هذا الخبر المسور بن مخرمة بن نوفل فقال مثل ما قال ابن الزبير، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك.

فلما بلغ كل هذا الوليد بن عتبة خاف مغبتها وأنصف الحسين من حقه<sup>(٢)</sup>.

(١) الأغاني ٦٧/١٦ ورسائل الجاحظ ص ٧٣.

(٢) رسائل الجاحظ (جمع السندوبي) ص ٧٣ وذكر فيها قوله أيضاً:

حى البخيلة إذ نأت  
لا بالفراق تنيلنا  
حلت بمكة حلة  
لولا الفضول وأنه  
لدنوت من أبياتها

منا على عدوائها  
شيئاً ولا بلفائها  
في مشيها ووطائها  
لا أمن من عدوائها  
ولطفت حول خبائها

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١٢٦/١.

فأنت ترى كيف كان القوم سراعاً إلى تنفيذ هذا الحلف، وكيف تهيؤوا لنصرته وللاستجابة لمن دعا به وهو أثر غير قليل. وأي معاهدة تمضي فتبقى لها مثل هذه القوة بعد أكثر من سبعين سنة من عقدها!

بل لقد تحمس لها الصحابة أشد التحمس وكان اندفاعهم لصيانتها أقوى مما تقدم، لقد تحفزوا للقيام بوجه خليفة ذي سلطان قاهر وكادت تكون فتنة لولا أن أذعن معاوية كما أذعن واليه ابن عتبة، ومن الخير أن أنقل لك صورة هذا الاندفاع لتتعرف مدى بلوغها من قلوب القوم: جاء في شرح نهج البلاغة (٤٦٤/٣) ما يأتي:

((كان بين الحسين ومعاوية كلام في أرض للحسين، فقال له الحسين: اختر مني واحدة من ثلاثة خصال: إما أن تشتري مني حقي، وإما أن ترده علي، أو تجعل بيني وبينك ابن عمر وابن الزبير حكماً، وإلا فالرابعة وهي الصَّيلم<sup>(١)</sup>. قال معاوية: وما هي؟ قال: ((أهتف بحلف الفضول..)) ثم قام فخرج وهو مغضب، فمر بعبد الله بن الزبير فأخبره فقال عبد الله: والله لئن هتفت به وأنا مضطجع لأقعدن، أو قاعد لأقومن، أو قائم لأمشين، أو ماش لأسعين، ثم لتنفذن روعي مع روحك أو لينصفنك..)).

فبغلت معاوية فقال: ((لا حاجة لنا بالصَّيلم)). ثم أرسل إليه. ((أن ابعت فاننقد مالك فقد ابتعنا منك)).

ومما لا شك فيه أن موقف غير ابن الزبير لو استنقل الأمر سيكون مثل موقفه، ومعاوية أدهى من أن يؤلب عليه من لم ينفذ يده بعد من تألفهم، ومن لا تزال السيوف التي حاربوه بها على عواتقهم، لما ينقض على إغمادها كبير زمن وما هي بحاجة لتشهر إلى كبير أمر..

وقد عرض ابن الزبير بحلف الفضول مرة أخرى يهدد معاوية، فقد تحدثنا عن الحسين بن علي فقال ابن الزبير: ((أما والله إني وإياه ليؤد عليك بحلف الفضول)) فقال معاوية: ((من أنت! لا أعرض لك وحلف الفضول.. والله ما كنت فيها إلا كالرهينة تتخن معنا وتردى هزياً))<sup>(١)</sup>.

وانظر هذه الحسرة الخفية من يعسوب الأمويين عبد الملك بن مروان، على أن أمية لم تدخل الحلف، وتأمل كيف أراد بصورة غير مباشرة أحد سراة بني نوفل، على أن يتملقه فيشهد له بدخول أمية ونوفل فيها، وكيف لم يستطع هذا إلا أن يجهر له بالحق لقرب العهد بأصحاب الفضول، ولأن الذين يعرفونها ويعرفون عاقدتها لم يموتوا بعد، قال ابن هشام:

((كان محمد بن جبير بن معطم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف من أعلم قریش، فدخل على عبد الملك بن مروان حين قتل ابن الزبير، واجتمع الناس على عبد الملك، فلما دخل عليه قال له: ((يا أبا سعيد: ألم نكن نحن وأنت (يعني بني عبد شمس بن عبد مناف وبني نوفل بن عبد مناف) في حلف الفضول؟)) قال محمد: ((أنتم أعلم!)). قال عبد الملك: ((لتخبرني يا أبا سعيد بالحق من ذلك)) فقال: ((لا والله، لقد خرجنا نحن وأنتم منه)). قال: ((صدقت)).

<sup>(١)</sup> الداهية والأمر العظيم.  
<sup>(١)</sup> الأغاني ١٧٣/٩ (طبعة دار الكتب).

\* \* \*

كانت قريش إذن ذات مشاكل تجارية فقامت لها هذه الحلف مقام المحاكم التجارية والقوة التنفيذية معاً، فكان سلطانها مهيباً في النفوس، وكانت خير وازع لمن تحدّثه نفسه بظلم وإن تمتع بالسلطان، وكانت أحسن ضامن لحقوق الضعفاء ممن عدموا المنعة والنصير.

## الباب الثالث

### أسواق العرب

أ- في الجاهلية

ب- في الإسلام

### أسواق العرب

أنشأ العرب - ومركزهم التجاري ما قدمنا - أسواقاً لهم يتبايعون فيها.

ولعل هذه الكلمة - كما ذكر ابن سيده - اشتقت من سوق الناس بضائعهم إليها، ولا يستدعي وجودها في اللغات السامية أن تكون كلمة السوق العربية مأخوذة منها، فلعل الواقع هو العكس. وليس من لزوم هذا الاستقصاء المتكلف مادامت هذه الأخوات من أم واحدة.

فمن هذه الأسواق ما كان يقتصر على ما يجاوره من القرى وما ينزل بساحة من القبائل كسوق هجر وحجر اليمامة والشحر وغيرها، ومنها ما كان عاماً تقد إليه الناس من أطراف الجزيرة كلها كعكاظ. ولكل مدينة بطبيعة الحال أسواق وإنما المقصود هنا الأسواق الموسمية منها، التي لها أيام معينة تقوم فيها ويؤمها الناس. فإذا كان لإحدى هذه الأسواق موقع جغرافي ذو بال، كأن تكون على ساحل البحر مثل سوق عدن وصنعاء وعمان... كان شأنها ممتازاً من بقية الأسواق التي في قلب الجزيرة كحجر أو كحضر موت، لشيوع الاتجار فيها مع الجيران من هند وحبشة وفرنس في الأولى، واقتصار الثانية على القبائل المتاخمة لها.

فتتميز الأسواق التي على فرض البحر بوجود النزال الأجانب وتأثر أصحابها باختلاطهم بهؤلاء وما يستتبع ذلك من تغيير في العادات والرقي والصبغة، فليس من المعقول أن تكون أحوال سوق صنعاء مثلاً مشابهة كل المشابهة الأحوال التي لسوق هجر، أو التي لسوق الجند<sup>(١)</sup> القديمة باليمن، أو سوق الجُريب وهي خاصة باليمن أيضاً، يتسوقها في موعدها عشرة آلاف<sup>(٢)</sup> أو سوق وادي القرى أو سوق (قُرح)<sup>(٣)</sup> الذي هلك فيه قوم عاد فيما يزعمون.

(١) الجند أول مدن اليمن التي على سمت نجدها، وهي أعظم أقسام اليمن الإدارية الثلاثة على عهد الراشدين. اختارها معاذ بن جبل حين ولي اليمن لرسول الله، واختط فيها مسجده. ونقل ياقوت أن الناس فيما بعد صاروا يحجون إلى هذا المسجد، ولها ماضٍ قديم جداً إليه أشار الشاعر بقوله:

الغدُر أهلك عاداً في منازلها  
والبغى أفنى قروناً دارها الجند

ونص الهمداني في (كتابه صفة جزيرة العرب) على أنها من أسواق العرب القديمة، انظر الإكليل ٥٧/١٠ وحواشيها.

(٢) المصدر السابق ص ٨٦.

(٣) انظر ((قُرح)) في معجم البلدان ولسان العرب.

كان يلي أمر الناس والنظر في شؤونهم التجارية في بعض هذه الأسواق أمراء يعشرون الناس كأكيدر في دومة الجندل والمنذر بن ساوى في سوق حجر، وهناك رؤساء يهبطون الأسواق لجمع الإتاوة وأشرف يتوافون بتلك السوق التي هي في الغالب تحت سيطرة أمير من الأمراء، ليستوفوا نصيبهم من الربح الذي جعله لهم ذلك الأمير.. بل إن بعض الأسواق كانت تقع إلى سلطان دولة أجنبية كسوق المشقر الذي تحكم كسرى بأهله وتجارته، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على الأسواق سوقاً فسوقاً.

أما عروض التجارة التي كانت تحمل إلى الأسواق فأكثرها لا يتعدى التمر والزبيب والزيت والسمن والأدم والورس والغالية والبرود وبعض ضروب الحيوان كالمواشي والأنعام والخيل حتى القروذ أحياناً.

وكانت هجر أشهر البلدان بتمرها، وعمان يحمل إليها الورس ويعالج فيها. وكانت لطائم النعمان تسير إلى عكاظ، ولطائم كسرى إلى المشقر، تأتي كل سنة فتباع ويشترى بأثمانها الأدم والتمرى وكان يقوم بحمايتها عرب الحيرة مادامت في مناطق نفوذهم، فإذا فصلت نحو عكاظ كان لابد لها من حام منيع الجانب عزيز القبيل ليحجزها على عامة القبائل. وقد استفاد العرب من هذه الحماية فوائد مادية جلى .

تلك الأسواق في الجزيرة وما إليها كانت تلبية لضرورات محلية اقتضتها معيشة العرب وطبيعة توزعهم في أراضيهم، وليست شيئاً مجلوباً حاكوا به غيرهم كما يتكلف بعض المتعرضين لهذا البحث<sup>(١)</sup>.

حملت هذه الحركة التجارية كثيراً من ألوان الترف إلى العرب وكان لا عهد لهم بمثلها، فتغالى أشرافهم بالثياب والبرود والسلاح والطيب. بل إن الرواة ليذكرون أن خمراً حملت من بصرى وغزة من بلاد الشام إلى سوق مجنة قرب مكة، ويظهر أن العرب اعتادت استجادة الخمر والافتنان بشربها واستطابتها من معادنها المشهورة كالبلدتين المذكورتين وأذرعان وأندرين وغيرها، شاع ذلك في الرجال والنساء. وسيمر بك عند الكلام على عكاظ أن امرأة أرسلها زوجها إلى عكاظ بسمن ومعها راحلتان فشربت الخمر بثمن السمن فاستطابتها ثم باعت راحلتها فشربت بثمنها ثم رهنت ابن الرجل وشربت أيضاً<sup>(٢)</sup>.

(١) قال أدهم: ((ومن غريب ما ورثه العرب عن الحمورانيين ونقلوه إلى شبه جزيرتهم أيضاً إقامة الأسواق والمجتمعات للعلم والتجارة والمنافرة فكانت أشبه بالمجامع العلمية والمعارض العمرانية)) مجلة المجمع العلمي العربي ١٠٠/١ قلت: والظاهر العكس، فإن الحمورانيين عرب نزحوا إلى العراق من شبه الجزيرة فحملوا معهم كثيراً من طرق معابثهم السابقة ومن نظمهم وأعرافهم.

(٢) وأبعد من هذا الخبر في الغرابة والطرافة ما رواه القالي في أماليه (١٥٠/١)، قال: اشترى أعرابي خمراً بجزء صوف فغضبت عليه امرأته فأنشأ يقول:

غضبت عليّ لأن شربت بصوف  
ولئن غضبت لأشربن بنعجة  
كوماء نامية العظام صفوف  
ولئن غضبت لأشربن بناقة  
ولئن غضبت لأشربن بواحدي!  
الدهساء: شقراء خفيفة الشقرة إلى سواد. والسحوف: التي لها طبقتان من الشحم. والكوماء: الناقة العظيمة السنم/  
وناوية العظام: سميتها، والصفوف: التي تصف رجلها عند الحلب. والسباح: الفرس.  
فيذكر ابن الأبنباري في إحدى رواياته، أن امرأته أسفقت على وحيدها وخففت من غلوائها وابعثته أن يتلف في الخمر ما شاء إلا ولدها، قالت له:  
ما إن عتبت لأن شربت بصوفة  
أو أن تلذ بلقحة وخروف

ونحن نعلم أن كثيراً من الشعراء والفتيان كانوا يتمتدحون بالإفناق على الخمر والتردد على أصحاب الحوانيت والجلوس إليهم، واذكر إن شئت أبيات عنتره:

ولقد شربت من المدامة بعدما      ركد الهواجر بالمشوف المعلم  
بزجاجة صفراء ذات أسرة      قرنت بأزهر في الشمال مفدّم  
فإذا شربت فإنني مستهلك      مالي وعرضي وافر لم يكلم...<sup>(١)</sup>  
أو قول الأعشى: ((وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني.. إلخ)).

والظاهر أن حب الخمرة تغلغل في نفوس عامة العرب وغمرت بحوانيتها أسواقهم وعكفوا عليها حتى ما يستطيعون لها تركاً. وإن الأعشى الشاعر هذا، أراد أن يقصد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فيسلم، وأشفق مشركو مكة من هذا السلاح أن ينضم للإسلام فصدوه عن وجهه ذلك، وكان أقوى عامل في رده ما أخبروه من أن الإسلام يحرم الخمرة، ولم يكن بالشاعر قدرة على تركها فصرفه ذلك عن قصده وقفل راجعاً، فأدركته المنية ولم يكتب له الإيمان<sup>(٢)</sup>. وخير ما نستدل به على استفاضتها في أسواقهم وإدمانهم لها أن الأخباريين يعدون في الجاهلية كلها أشخاصاً لا يبلغون العشرين حرّموا على أنفسهم الخمر<sup>(٣)</sup> فتميزوا بهذا الوصف من سائر

---

فاشرب بكل نفيسة أو تبيتها      وملكتها من تالد وطريف  
ورافع بطرفك عن بني فانه      من دونه شغب وجدع أنوف  
انظر شرح شواهد المغني ص ٢٠٧ (المطبعة البهية بمصر) وفي حاشية الدسوقي على المغني أن من الأبيات الأولى:  
ولقد شربت الخمر في حانوتها      صفراء صافية بأرض الريف  
ولقد شهدت الخيل تفرع بالقنا      فأجبت صوت الصاروخ الملهوف

(١) الهواجر جمع هاجرة: وهي حر نصف النهار. والمشوف: الإناء المجلو، والمعلم: ما عليه علامة. والأزهر: الأبيض، ويعني به الإبريق. المفدّم: ما عليه الفدام وهي المصفاة.  
(٢) فكان الظرفاء من الفتيان إذا أرادوا الشراب خرجوا إلى قبره وأدار الساقى عليهم الكأس وجعل قبر الأعشى أحد الشراب، فكان إذا بلغه أراق الكأس عليه يصبون الخمر على قبره إذ قال لما أخبره أبو سفيان بأن محمداً يحرم عليه الخمر: ((ارجع إلى اليمامة فأشبع من الخمر))، انظر الأغاني ١٢٧/٩.  
(٣) روى القالي في أماليه، (٢٠٤/١):  
(حرم رجال الخمر في الجاهلية تكراً وصيانة لأنفسهم، منهم عامر بن الظرب بن... بن قيس بن عيلان وقال في ذلك:

سأله للفتى ما ليس في يده      ذهابه بعقول القوم والمال  
أقسمت بالله أسقيها وأشربها      حتى يفرق ترب القبر أوصالي  
مورثة القوم أضغاناً بلا إحن      مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي  
وحرّم قيس بن عاصم الخمر وقال في ذلك:  
لعمرك إن الخمر مادمت شارباً      لسالبة مالي ومذهبة عقلي  
وتاركتي من الضعاف قواهم      ومورثتي حرب الصديق بلا تبّل  
وحرّم صفوان بن أمية الكناني الخمر في الجاهلية وقال في ذلك:  
رأيت الخمر سالحة وفيها      مناقب تفسد الرجل الكريما  
فلا والله أشربها حياتي      ولا أسقي بها أبداً سقيما  
وحرّم عفيف بن معد يكر ب عم الأشعث بن قيس الخمر وقال:  
وقائلة هلم إلى التصابي      فقلت عففت عما تعلمينا  
وودعت القداح وقد أراني      بها في الدهر مشغوقاً رهينا  
وحرمت الخمر عليّ حتى      أكون بقعر ملحود دفيينا  
وقال أيضاً:  
فلا والله لا ألقى وشرباً      أناز عهم شراباً ما حبيبتُ  
أبي لي ذاك أباء كرام      وأحوال بعزهم ربيت  
وحرّم سويد بن عدي الطائي ثم المعني الخمر وإدرك الإسلام فقال:



العرب، ولم يكن لتمييزهم هذا من قيمة لولا فشوها في قبائل العرب فشواً قوياً جعلها في حكم الضرورة التي لا مندوحة عنها.

يغشى هذه الأسواق عامة العرب لما تقدم من أن شغل أكثرهم التجارة ومن لم يتاجر قصدتها للكسب والشراء حتى صار غشيان السوق والمشى فيها، والاتجار ألفاظ مترادفة، ففي البخاري:

((استأذن أبو موسى على عمر فلم يؤذن له فرجع، ففرغ عمر فقال: ((ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس؟ ائذنوا له)). قيل: ((قد رجعت)). فدعاه فقال (أبو موسى): ((كنا نؤمر بذلك)). فقال عمر: ((تأتيني على ذلك بالبينة)). فانطلق (أبو موسى) إلى مجلس الأنصار فسألهم فشهد أبو سعيد الخدري، فقال عمر: ((أخفي هذا عليّ من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أهاني الصفق في الأسواق)). يعني الخروج إلى التجارة<sup>(١)</sup>.

وكان في جملة ما احتج به المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم: ((... فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك: سل ربك.. فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبغى، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمس.. إلخ<sup>(٢)</sup>)) وحكى الله عنهم قولهم هذا فقال:

**{وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق} [الفرقان: ٢٥/٧] وقال في المرسلين: {وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق} [الفرقان: ٢٥/٢٠] فكنى بالمشى في الأسواق عن التجارة، ووصف صلى الله عليه وسلم بأنه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق<sup>(٣)</sup>. ولأن العرب لا تحتشد لشيء احتشادها في هذه الأسواق، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصدها أول دعوته ويعرض نفسه على القبائل في هذه المواسم.**

كان أعظم ما يحدو العرب في الجاهلية على قصد تلك الأسواق ما قدمت لك من قيام كثير منها في الأشهر الحرم. ولشيوخ الأمن حرمة للشهر، ولأن مواسم بعض الأسواق كعكاظ ومجنة وذو المجاز تقع في أيام حجهم وهي أعمر أسواق العرب بمختلف القبائل يأتونها من كل أوب ومعهم خيرات بلادهم، وتلك ميزة لا تتمتع بها بلدة غير مكة ولا قوم غير قريش، وقد امتن الله عليهم بذلك فقال:

تركت الشعر واستبدلت منه  
كتاب الله ليس له شريك  
وحرمت الخمر وقد أراني  
التبّل: الثأر. وقوله أقسمت بالله أسقيها: يريد لا أسقيها. وكذلك فلا والله أشربها: أي لا أشربها. والملحد: القبر.  
والسدك: المولع بالشيء.

وزيد السيوطي على هؤلاء: عبد المطلب بن هاشم وعبد الله بن جدعان وشيبة بن ربيعة وورقة بن نوفل والوليد بن المغيرة وعفيف بن معد يكرب، ويقال هو أول من حرمها وقيل: (أولهم عامر بن الظرب)، وعباس بن مرداس وأبو بكر وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف، شرح شواهد مغني اللبيب ص ٤٤.

هذا وقد جاء في الأغاني [٣٣٢/٨] دار الكتب] ما يأتي:  
(ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء مما فيها من الدنس)).

وهذا نص في أن كبراء قريش في الجاهلية كانوا يشربونها جميعاً.

(١) صحيح البخاري، طبع ليدن، كتاب البيوع ٨.

(٢) سيرة ابن هشام ٢٦٩/١.

(٣) البخاري كتاب البيوع (٢٢). والسخاب: كثير اللغظ والجلبة.

{أولم نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [القصص: ٥٧/٢٨].  
وقال: {أولم يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنَظَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت: ٦٧/٢٩].

وافقت هذه المواسم زمن الحج<sup>(١)</sup> واختلط أمرها بشعائره (فمنى وعرفة وعكاظ ومجنة وذو المجاز مواعيدها مواسم الحج) فإذا انفضوا من ذي المجاز ترووا من الماء ونادى بعضهم بعضاً: ((ترووا من الماء)) لأنه لا ماء بعرفة يومئذ ولا بالمزدلفة، ولهذا سمي اليوم الثامن من ذي الحجة بيوم التروية. وكانوا في الجاهلية لا يتبايعون في منى ولا في عرفة، يخصون هذين المكانين بالحج الخالص، لا يخلطونه ببيع ولا شراء؛ فلما جاء الإسلام فكأنهم تأتموا أن يتجروا في المواسم فأنزل الله تعالى قوله:

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} [البقرة: ١٩٨/٢] وزاد ابن عباس في قراءته ((في مواسم الحج)) والفضل هو الرزق والكسب والاتجار، وكذلك كان يتلوها أبي تلاوة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

والغريب أن هذه الأسواق، كما يقصدها طالب الربح والشراء، يقصدها طالب الأمن والفداء، فكم أوى إليها من خائف يطلب من يجيره فيجده ويلجأ إليه ويأمن، وكم من رجل حمل معه فداء أسيره ففكه من أسره. وكم من سادات تحملوا ديات ودماء فكانوا سبب الصلح بين قبيلين كبيرين، بل إنا لنسمع فيها منادين ينادون ذوي

(١) ما زال الحج الموسم الأكبر للتجارة في الأقطار العربية الكبرى، في أيامه تنشط الحركة التجارية ويكثر البيع والشراء وتستنفذ المخازن العربية بضائعها يستهلكها الحجاج الذين يقصدونها من القاصية أجناساً شتى، فصيونيون وأتراك وبخاريون وفرس وهنود وأفغان وققاسيون ومغاربة... وتعظم منهم الأرباح وتفيض على البلاد عامة سحائب خير وسعة من العام إلى العام. تستوي في ذلك جميع البلدان العربية، فمصر كالشام والعراق كالحجاز لوقوع الأولى على طريق الحاج المغربي، ولأن الشام والعراق طريق الحاج المشرقي. ولا تسأل عن البحبوحة التي يرتع فيها أهل الحجاز في موسم الحج إذ تتقاطر عليه كل تلك الأمم ويربح أهله في هذه الأيام القلائل معاش سنتهم كلها.

بقي الأمر على هذا حتى عهد قريب، إذ انقطع بحلول المحنة الكبرى ببلاد العرب: فوزعت بين الفرنجة، وانحجز الحجاج عن ورود هذه الأقطار لأن الحاج المغربي أو المشرقي يمر على دول كثيرة قيل أن يصل إلى الحجاز. فإن كان معه فضل من مال استنزفته تلك الدول فلا يصل إلى الحجاز إلا ببلغة لا تكاد تكفيه وحده، فيضطر المسكين إلى أن يسلم أمره إلى الشركات الأجنبية التي نصبتها دولها تمتص دم الحجاج وتسلبهم أموالهم وتذيقهم الموت ألواناً. فحرمت بذلك بلادنا من موارد وأرزاق عدا ما خسرت من المنافع الاجتماعية. فمات العراق كما مات الحجاز وماتت الشام منذ نضب هذا المعين. ثم عكف الأجنبي على ما بقي في البلاد من أثاره خير يتمششها ويتعرقها حتى جردت الأرض وصوح النبت فما ثمة من قائم ولا حصيد:

أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد

كتبنا هذا في الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦م أما الآن وقد انقضت خمس وعشرون سنة وأجلى الله العدو عن بلاد الشام ومصر والأمل كبير في تحرر بقية الأقطار فعسى أن يعود للبلاد العربية ازدهارها ورخاؤها ووحدها، فيضرب في أقطارها حجاج جميع الأمم والشعوب آمنين مطمئنين فيعود لها رونقها ونشاطها الاقتصادي.

(١) انظر البخاري كتاب البيوع ٥ وكتاب الحج. ومعجم الطبراني الكبير المجلد الثالث وأخبار مكة للأزرقي ص ١٣٠ وتفسير الخازن. نقل في هذا التفسير عن أبي أمامة التميمي قال:

((كنت أكرى في هذا الوجه، وكان الناس يقولون لي: ((إنه ليس لك حج)) فقلت ابن عمر فقلت له: ((إني رجل أكرى في هذا الوجه وإن أناساً يقولون لي: ليس لك حج)) فقال ابن عمر: ((أليس تحرم وتبلي وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمي الجمار؟)).

فقلت: ((بلى)) قال: ((فإن لك حجاً: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن مثل الذي سألتني عنه فسكت رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ}، فأرسل إليه رسول الله ﷺ وقرأها عليه وقال: ((لك حج)) اهـ.

الحاجات لتقضى حاجاتهم، كما نرى فيها أمراء ورسل ملوك يقصدونها لأخذ مالهم على بعض القبائل من إتاوات وغرامات كل سنة فموعدهم بها أيام المواسم.

وإذ إن أكثر هذه الأسواق حولية تقوم أياماً معلومة في كل عام، كان من المعقول أن تكون ميداناً لغير البيع والشراء؛ كان فيها تناشد أشعار، وكان فيها تفاخر وتكاثر، وتنافر ومقارعة ومعاضمة.. فيفوز في هذا أقوام ويخسر آخرون، وتحفل العرب لها الاحتفال اللائق بها. وكان لهم حكام معلومون يفضون المشاكل بين القبائل<sup>(١)</sup>، ولهم محكمون يحتكم إليهم الناس في مفاخراتهم وأشعارهم، كما لهم في هذه الأسواق خطباء.

يغشى الناس الأسواق إذن لمأرب شتى، وغايات متباينة، فمن طالب قاتل أبيه يريد ليعرفه حتى يتربص به السوء فيما بعد، ومن ملتمس حماية شريف من عدو ألد، ومن باع زوجاً، أو مستطيل بعز ومنعة، أو جالس ليأتيه أتباعه بإتاوة، ومن عارض سلب قتيل لبييعه فيظفر به أهل القتل، ومن فرسان يتقنعون، بعضهم حذراً من غدر أهل التارات، وآخرون يردون مقنعين خوفاً من العين وحذراً على أنفسهم من النساء لجمالهم<sup>(١)</sup>، ومن بغايا ضرب عليهن القباب، وشبان يتعرضون للمتبرقات من النساء.. إلى آخر ما هناك مما سيمر بك مفصلاً وخاصة عند الكلام على عكاظ.

ولا يقل شأناً عن النشاط التجاري في أسواقنا تلك، أثر هذا الاختلاط في اللغة والدين والعادات، فإن قيام قريش عليها الأعوام الطويلة قبل البعثة، مكنها من أن تتبوأ في اللغة المكان الأعلى، لأن لغات القبائل عامة يمنيها وعمانيها وشاميها وعراقيها ونجديها وتهاميها.. تطرق مسامعها على الدوام فتختار منها ما يحسن، وتنفي ما يقبح. وقامت على هذا الاصطفاء زمناً كافياً حتى خلصت لها هذه اللغة الممتازة، وتهيأت لينزل بها القرآن الكريم على أفصح وجه وأبلغه وأتمه كمالاً وسلاسة وجمالاً.

وكان الشعراء الذين ينظمون لينشدوا بعكاظ، يتوخون اللغة المجمع على فصاحتها، والتي صار لها من النفوذ والشيوع ما للغات العامة اليوم، فكان لهجة قريش هي اللهجة الرسمية بين لهجات الجزيرة كلها حتى اليمن والحيرة وغسان<sup>(١)</sup>.

أما العادات فما أمرها بالذي يحتاج إلى شرح وتبيين؛ فإن كل اختلاط بين فريقين لا بد أن ينتهي بأثر في كل منهما، فاليمني يقبس شيئاً من أخلاق الحجازي، والنجدي يحمل ألواناً من عادات العماني أو الحيري.. وهلم جراً.

وكذلك قل في الدين، بل إن أثر هذا الاختلاط في الدين أبلغ، لقيام الجميع بمناسك واحدة يؤمهم فيها قريش أهل الحرم<sup>(٢)</sup>.

(١) قال الفيروزبادي: ((حكام العرب في الجاهلية: أكتم بن صيفي وحاجب بن زرارة والأقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن وضمرة بن ضمرة لتميم وعامر بن الظرب، وغيلان بن سلمة لقيس، وعبد المطلب وأبو طالب والعاصي بن وائل والعلاء بن حارثة لقريش، وربيعة بن حذار لأسد، ويعمر بن الشداخ وصفوان بن أمية وسلمى بن نوفل لكنانة، اه انظر في القاموس وشرحه مادة (حكم)).

(١) عد أبو الفرج الأصفهاني من هؤلاء: وضاح اليمن والمقنع الكندي وأباز بيد الطائي، الأغاني ٣١/٦ طبعة الساسي.

(١) لكن هناك أسواقاً على الحدود في شمال الجزيرة كانت مسارب لكثير من الدخيل والمغرب، ثم لفساد اللغة حول عهد الفتوح كسوق الأبله وسوق الأنبار وسوق الحيرة.

(٢) ليست هذه الظاهرة (الجمع بين الأهداف الدينية والتجارية) قاصرة على أهل الجزيرة ولا على زمن الجاهلية، بل تكاد تكون سمة عامة في الحضرة والبدو حتى هذه الأيام: فازدهار القدس في أعياد الميلاد بالزوار والتجار،

فأعظم آثار الأسواق قبل البعثة هو هذا التوحيد الذي جرى بين القبائل العربية من عامة الأقطار، وأريد أن أنبه بصورة خاصة إلى التوحيد اللغوي، الذي كان للشعراء والحكام فيه على مدى سنين متطاولة أبلغ الأثر، في انتقاء الألفاظ والأساليب وشيوعها بوساطة الرواة في القبائل، وإذا شئت أن أختصر ذلك كله بكلمة واحدة قلت: إن نهضة الشعر مدينة للأسواق، بل مدينة لعكاظ خاصة. عرف لها هذا الأمر منذ الجاهلية حتى اليوم.

فلما كان الإسلام ضعف الشعر، وانصرف العرب إلى الفتوح، واشتغلوا بالقرآن والسنة وفهم أحكام الشريعة، فضول أمر عكاظ وخمل ذكرها، وانقضى عصر الفتوح، وليس لعكاظ عشر شأنها الأول.. حتى إذا أنشئ المرشد استمر أمر عكاظ على التناقض، وأخذ مرشد البصرة يحل مكانها ويتم رسالتها في الأدب والشعر؛ بل زاد عليها بما استجد الإسلام وحالة العرب الاجتماعية المتحضرة، من صنوف في الأدب وأوان في المعاش والاجتماع.

وأصبح المرشد مرتاداً لعلوم الأدب والنحو واللغة والأخبار والنوادر و... يأخذون عن أعرابه الذين لم تخالطهم لوثة العجمة، ما يجعلون منه مادة علمهم وينبوع ثقافتهم.

ولما رسخت قدم المسلمين في المدينة، وتمت لهم المدن الكبرى والعواصم العظيمة المتناهية في الحضارة، أقل نجم هذه الأسواق إذ لم يعد لها من داع. وكانت لم تزل قائمة في الإسلام وعاشت ما يزيد على مئتي سنة. فعكاظ التي أنشئت قبل الهجرة بأكثر من سبعين عاماً. أهملت سنة ١٢٩ للهجرة، وآخر ما انقرض من الأسواق سوق حباشة تركت عام ١٩١٧ للهجرة.

وقد أن لنا بعد هذه المقدمة أن نعرض لك معلومات عن أشهر الأسواق في الجاهلية والإسلام، متوسعين ما أمكننا التوسع، في الكلام على عكاظ في الجاهلية وعلى المرشد في الإسلام، إذ هما أعظم سوقين قامتا للعرب. في الأولى ترى أحوال الجاهلية من عامة نواحيها في بيعها وشرائها ودينها واجتماعها وسياسيتها وحربتها وسلمها، وفخرها وأدبها ولغتها وشعرها وعاداتها. وقد حرصت على أن أحافظ على عبارة كبار المؤلفين الذين استقيت هذه المعلومات من كتبهم كالأصفهاني والطبري وابن عبد ربه وابن سعد وابن هشام.. إلا ما رأيت أن الحاجة تضطرنني فيه إلى شيء من التعديل يسير، وفي الثانية ترى كذلك أحوال العرب في الإسلام بالتفصيل المتقدم. واعلم أن حوادث المرشد التي سأعرضها عليك يختلف زمن وقوعها بين سنة ست وثلاثين للهجرة وأواخر القرن الثاني الهجري.

---

ومواسم العبادة والتجارة معاً في الحجاز أيام الحج أشهر من أن يخفى. بل قرأت عن أسواق (غواتيمالا) الآن بما يشبه ما كان يجري في أسواق العرب في الجاهلية ((فقد جعل يوم الأحد فيها هو يوم السوق ويومها الهنود في ذلك اليوم من الجهات المجاورة حتى مسافة خمسين ميلاً من أجل التجارة والعبادة في وقت واحد)) ويقول المشاهد ((إن يوماً واحداً تقضيه في هذا المكان حيث تلتقي التجارة والعبادة في صعيد واحد سيكسبك إحساساً وفهماً للتاريخ البشري أكثر مما تجنيه من مطالعة مئة مجلد في علم حياة الإنسان، من مقال (تقرير عن الفردوس) فيه وصف مسهب لأسواق غواتيمالا نشرته مجلة المختار (الترجمة العربية، عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٤).

لسنا نجد اتفاقاً بين قدامى المؤلفين في عدد هذه الأسواق ولا في تحديد أزمنتها، فبينما نرى القلقشندي (في صبح الأعشى) يعدها ثمانية (٤١٠/١) نرى اليعقوبي في تاريخه (٣١٣/١، ٣١٤) والبغدادى في خزانته (٣٦٠/٤ السلفية) يعدها عشراً، ثم يختلfan عليها فيذكر كل منهما بعضاً ويترك بعضاً. وجعلها التوحيدي في (الإمتاع والمؤانسة ٨٥/١) إحدى عشرة، بينما نراها عند المرزوقي تبلغ سبع عشرة سوقاً (الأزمة والأمكنة)، ثم يأتي الألوسي فيذكر منها في بلوغ الأرب أربع عشرة.

وأقدم المؤلفين وهو محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٦٨ هـ صاحب كتاب (المحبر) عدّ منها اثنتي عشرة<sup>(١)</sup>.

أما الهمداني فنحن معه في حيرة لأنه يقول في كتابه صفة جزيرة العرب (ص ١٧٩): ((أسواق العرب القديمة وقد ذكرناها: عدن، مكة، الجند، نجران، ذو المجاز، عكاظ، بدر، مجنة، منى، حجر اليمامة، هجر البحرين، الروض، روضة دعي، روضة الأجداد.. إلخ، ثم يسرد أعلاماً تبلغ الخمسين.

فطالعت الكتاب المطبوع كله فلم أجد للأسواق التي قال: إنه ذكرها - ذكراً أبداً.

ولما رجعت إلى ياقوت في كثير من هذه الأعلام لم أجد لها ذكراً البتة. فأيقنت في نفسي أن في هذه الطبعة تشويشاً فإن عدّه الأسواق ينتهي في السطر الثاني عند قوله (هجر البحرين) ثم يستأنف كلاماً جديداً عن الرياض بادئاً بروضة دعي، ثم ينتقل خلاله إلى المياه، وجميع هذه في الكتاب المطبوع ذكرت تحت عنوان (أسواق العرب)، وكان على الناشر (المستشرق الأوروبي) أن يتنبه إلى تغيير البحث فيفرد كل بحث تحت عنوان خاص، ولا يحشرها جميعاً في جريدة الأسواق.

وسنذكر لك في هذا الكتاب الأسواق المهمة التي ترحل إليها العرب حاذفين منها ما لا خطر له، وقد بلغنا بها العشرين سوقاً.

نستطيع أن نقسم هذه الأسواق أقساماً ثلاثة:

١- أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي تدار بنظم خاصة وتتضاءل فيها الصبغة العربية كما نرى في الحيرة وهجر البحرين وعمان وغيرها من المواطن التي تزين عليها السيطرة الفارسية، وكما نرى في بصرى وأذرع و غزة وأيلة وغيرها مما يدار بالإدارة الرومانية. والذي ينظر في هذه الأسواق عمال عرب يعينهم ولادة الفرس وولاية الرومان، وهؤلاء العمال الذين يتولون السوق هم الذين إليهم أعشار أهلها.

٢- أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة فصارت مع الزمن تمثلهم أصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والخصام والدين والزواج والحقوق.. ولا يشرف عليها إلا سراة أهلها. وهي مرآة العرب في الجاهلية وبها نستطيع أن نعرف ما كان عليه العرب تقريباً في معاملتهم وعلائقهم بعضهم ببعض: وهي في أماكن لا أثر

(١) نشر هذا الكتاب بعد صدور طبعتنا الأولى بسنوات وكان الفضل في اطلاعي على فصل أسواق العرب من كتابه المحبر حين صدور الطبعة الأولى من كتابنا هذا، لصديقي المستشرق المرحوم (كرنكو) إذ أرسل إلي الفصل مصوراً سنة ١٩٣٧م ففقد مني ثم أرسله إلي بخطه بعد أن نشره بمطبعة حيدر آباد سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م. ولم يبعد صديقي حين كتب إلي يقول: ((إن أصل هذه الأخبار (يعني أخبار أسواق العرب) كلها باب في كتاب المحبر لمحمد بن حبيب في النسخة المحفوظة في المتحف البريطاني)) و((لاشك بأن المرزوقي سرق عباراته منه فزاد أشياء غير مهمة)).

للنفوذ الأجنبي عليها، ونمثل لهذا القسم بعكاظ. ولا عاشر في هذا القسم فهو منطقة حرة، والعرب يتبايعون فيه ببيع خاصة بهم.

٣- أسواق ذات صبغة مختلطة نظراً لموقعها الجغرافي وهي التي تكون على البحر كعدن وصحار ودبي.. وفي هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس ويضؤل فيها الطابع القومي بمقدار ما يقوى شأنها التجاري.

ومن الواجب أن ننبه هنا إلى أن أسواقاً كثيرة كانت ولم يذكرها المؤلفون لأنهم اقتصروا على الأسواق الموسمية التي تكون من العام إلى قابل والتي تقصد من بعيد، إذ من البدهي أن كل بلدة لها سوق ولها متاع أو محصول تختص به، ومن القريب جداً أن يكون لكل قبيلة أو قبائل متجاوزة سوق محلية<sup>(١)</sup> تقوم في وقت معين، فكثيراً ما نجد حول كل ماء سوقاً صغيرة يقيمها الضاربون حوله كما نجد مثل ذلك في المحطات الصغرى التي تكون بين البلد والبلد وكما نجد أيضاً في كل مكان يسميه العرب روضة.

وإنما عني العلماء بالأسواق الكبرى العامة ولم يأبهوا لتلك الأسواق الضئيلة، بل إنهم أهملوا أسواقاً كبرى تكون في المدن، لأنها لا يرحل إليها إلا القليل منهم من صاحب حاجة أو غرض خاص. فنجدهم أغفلوا مثلاً ذكر (دارين) وهي فرضة بالبحرين بها سوق يحمل المسك من الهند إليها. واشتهرت هذه شهرة فائقة بتجارة العطر حتى صار معنى الداري (نسبة إلى دارين) هو العطار نفسه، وحتى جاء في الحديث: ((مثل الجليس الصالح مثل الداري، إن لم يحذك (يُعْطِك) من عطره علقك من ريحه)). قالوا: ((الداري العطار)). وقال الشاعر:

فلما اجتمعنا في العلامي بيننا ذكي أتى من أهل دارين تاجر

وهناك أمتعة اشتهرت بتجويدها قرى مخصوصة كردينه وهي قرية على شط البحر في المشرق تنسب إليها الرماح فيقال الردينيات للرماح المصنوعة هناك كما يقال للرماح المصنوعة في الخط بالبحرين: (الخطية).

فلا شك أن ثمل هذه الأماكن المشهورة يقصدها تجار هذا الصنف أو الراغبون فيه، وتقوم له شبه أسواق دائمة إلا أنها غير عامة وهي قاصرة على ضرب واحد فقط، فلهذا لم يعبا بها المؤلفون.

ثم نجدهم أغفلوا مواضع مهمة تقوم فيها أسواق ربما لا تقل شأناً عن التي أفردها بالذكر، كالتائف وكأسواق العراق وكالسوق التي يقيمها النبط في المدينة أحياناً، فإننا نعلم أن التائف مدينة قديمة جاهلية وهي ((بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة)) وأهلها زراعة وتجارة وغنى، وربما قاربوا قريشاً في شأنها التجاري. أما العراق فالظاهر أن للعرب فيها أسواقاً<sup>(١)</sup> يرحلون إليها كما يرحلون إلى التي في

(١) مثل (بدر) حيث وقعت غزوة بدر الكبرى، فبدر هذه موسم من مواسم العرب المحلية تقوم السوق قرب ماء هناك. ونحن نجد في كتب السيرة أن أبا سفيان واعد المسلمين عقب غزوة أحد أن يوافيهم ببدر من العام المقبل، فلما كان الموعد حضر المسلمون ونكل المشركون وبقي الرسول ينتظرهم ثمانية أيام، فأقام المسلمون موسماً تجارياً ببدر وربحوا ثم عادوا إلى المدينة فرحين بانتصارهم، إذ خافهم عدوهم فلم يحضر، وربح تجارتهم فأصبحوا غانمين مهيبين.

(١) نرى في المصادر القديمة ذكراً لسوق بغداد أيام الفتح الإسلامي، ولعل المدينة أنشئت حيث تقام هذه السوق أو بالقرب منها ثم حملت اسم السوق القديمة (بغداد). فقد ذكر الطبري في حوادث سنة (٧٦) أن شبيباً الخارجي أقبيل

الشام وخصوصاً الحيرة فإن شهرتها في تاريخ العرب وأدبهم تتم عن مكانتها التجارية. ولقریش رحلات إلى سوق الحيرة وفيها تعلموا الكتابة ومنها انتشرت في العرب. وصاحبها النعمان يجهز سنوياً لطائمه إلى عكاظ وإلى اليمن، حتى إنا لنجد في بعض النصوص ما يدل على أن ضرائب منظمة تستوفى في أسواق العراق مما يباع قال الشاعر:

أفي كل أسواق العراق إتاوة      وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم  
قال صاحب المخصص<sup>(١)</sup>: ((المكس انتقاص الثمن في البياعة ومنه أخذت  
المماكسة لأنه يستنقصه)). وقيل: ((المكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في  
أسواق الجاهلية، ويقال للعشار: صاحب المكس)) اهـ.

أهملوا كل هذا كما أهملوا أسواقاً ثانوية تقام في نجران وبدر ومنى وأمثالها كثير  
لما قدمنا من فقدان الصبغة العامة فيها.

وهذه جرائد بأسماء الأسواق وترتيبها عند كل من المؤلفين الثمانية الذين أشرت  
إليهم آنفاً<sup>(٢)</sup> وكلها تبدأ بسوق دومة الجندل في ربيع الأول، مع ذكر موافقتها إن كان  
لها موافقت وذكر عاشرها الذي يجبي الضرائب فيها إن كان لها عاشر.

---

((حتى قطع دجلة عند الكرخ وبعث إلى سوق بغداد فآمنهم، وذلك اليوم يوم سوقهم، وكان بلغه أنهم يخافونه  
فأحب أن يؤمنهم، وكان أصحابه يريدون أن يشتروا من السوق دواب وثياباً وأشياء ليس لهم منها بد)). ثم أخذهم  
نحو الكوفة.. إلخ، تاريخ الطبري ٢٣٠/٧-٢٣١ الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية.  
١٥٣/١٢<sup>(١)</sup>

<sup>(٢)</sup> لابن الكلبي: كتاب أسواق العرب، انظر ص ٧٧ من كتابه (الأصنام) طبع دار الكتب المصرية.

## ١- المحبر: لمحمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٦٨ هـ

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١- دومة الجندل	١٥-١ ربيع الأول [وتمتد إلى أكيذر أو قنافة الكلبي آخره]	
٢- المشقر	جمادى الآخرة كله	بنو عبد الله بن زيد من تميم رهط المنذر بن ساوى
٣- صُحار	١-٥ رجب	الجلندي بن المستكبر
٤- دبي	آخر رجب	الجلندي بن المستكبر
٥- الشحر	١٥ شعبان	
٦- عدن	١-١٠ رمضان	الأبناء من الفرس
٧- صنعاء	١٥-٣٠ رمضان	الأبناء من الفرس
٨- رابية حضر موت	١٥-٣٠ ذي القعدة	
٩- عكاظ	١٥-٣٠ ذي القعدة	
١٠- ذو المجاز	١-٨ ذي الحجة	
١١- نطاة خيبر	١٠-٢٠ المحرم	
١٢- حجر اليمامة	١٠-٢٠ المحرم	

## ٢- اليعقوبي المتوفى سنة ٢٧٨ هـ

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١- دومة الجندل	ربيع الأول	غسان أو كلب
٢- المشقر	جمادى الأولى	تميم: رهط المنذر بن ساوى
٣- صُحار	١ رجب	
٤- دبي		الجلندي بن المستكبر
٥- الشحر		مهرة
٦- عدن	١ رمضان	
٧- صنعاء	١٥ رمضان	الأبناء
٨- حضر موت		كندة
٩- عكاظ		
١٠- ذو المجاز		



### ٣- صفة جزيرة العرب: للهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ هـ

العاشر	الزمن	السوق
		١- عدن
		٢- مكة
		٣- الجند
		٤- نجران
		٥- ذو المجاز
		٦- عكاظ
		٧- بدر
		٨- مجنة
		٩- منى
		١٠- حجر اليمامة
		١١- هجر البحرين

### ٤- الإمتاع والمؤانسة (٨٥/١): لأبي حيان التوحيدي المتوفى نحو سنة ٤٠٠ هـ

الوالي أو العاشر	الزمن	السوق
أكيدر دومة [أو أحد رؤساء كلب حين يغلبون على السوق]	ربيع الأول كله	١- دومة الجندل
المنذر بن ساوى	ربيع الآخرة	٢- هجر (المشقر)
		٣- دبي (من قرى عمان)
		٤- صُحار (من قرى عمان)
		٥- أدم (قرب عدن) <sup>(١)</sup> والشحر (بين عدن وعمان)
		٦- عدن أبيين
		٧- رابية حضر موت

<sup>(١)</sup> في الأصل: إرم، وفسرها الناشران الفاضلان نقلاً عن صفة جزيرة العرب بأنها فلاة قرب عدن، ولعل ذلك تصحيف.

- ٨- صنعاء
- ٩- عكاظ
- ١٠- ذو المجاز
- ١١- نطاة خيبر
- ١٢- حجر اليمامة

### ٥- الأزمنة والأمكنة: للمرزوقي المتوفى سنة ٤٢١هـ

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١- دومة الجندل	ربيع الأول	أكيدر (وأحياناً) قنافة الكلابي
٢- المشقر	٣٠-١ جمادى الآخرة	بنو عبد الله بن زيد: رهط المنذر بن ساوى
٣- صُحار	١ رجب	الجلندي
٤- دبي	٣٠ رجب	
٥- الشحر	١٥ شعبان	
٦- عدن	١٠-١ رمضان	الأبناء
٧- صنعاء	٣٠-١٥ رمضان	
٨- رابية حضر موت	١٥ ذي القعدة	
٩- عكاظ	١٥ ذي القعدة	
١٠- ذو المجاز	٨-١ ذي الحجة	
١١- مجنة		
١٢- نطاة خيبر		
١٣- حجر		
١٤- بصرى	بعد الحج	
١٥- دير أيوب	بعد سوق بصرى بـ٣٠-٤٠ ليلة	
١٦- أذرعات		
١٧- الأسقى		

### ٦- صبح الأعشى: للقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١- دومة الجندل	١ ربيع الأول	أكيدر أو رؤساء كلب

- ٢- هجر ربيع آخر المنذر بن ساوى  
 ٣- عمان  
 ٤- آدم وقرى الشحر  
 ٥- عدن  
 ٦- حضرموت  
 ٧- صنعاء  
 ٨- عكاظ

**٧- خزانة الأدب: للبغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ  
 [نقلًا عن صاحب قبائل العرب]**

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١- دومة الجندل	١٥-١ ربيع الأول	
٢- المشقر	١ جمادى الآخرة	
٣- صُحار	١٥-١٠ رجب	
٤- الشحر	١٥ شعبان	
٥- صنعاء	١٥ رمضان	
٦- حضرموت	١٥ من ذي القعدة	
٧- عكاظ	٣٠-١٥ من ذي القعدة	
٨- ذو المجاز	٨-١ ذو الحجة	
٩- نظة خيبر		
١٠- حجر	٣٠-١٠ المحرم	

**٨- بلوغ الأدب: للألوسي المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ**

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١- دومة الجندل	ربيع الأول	
٢- هجر	ربيع الثاني	
٣- عمان	جمادى الأولى	
٤- المشقر	جمادى الثانية	
٥- حباشة	رجب	
٦- صحار	١٥-١٠ رجب	

شعبان	٧- الشحر
١٥-١ رمضان	٨- عدن
٣٠-١٥ من ذي القعدة	٩- صنعاء
٢٠-١٠ من ذي القعدة	١٠- عكاظ
ذو القعدة	١١- حضر موت
٣٠-٢٠ من ذي القعدة	١٢- مجنة
الأول من ذي الحجة	١٣- ذو المجاز

فهذه ست وعشرون سوقاً، فإذا حذفنا منها خمسا انفرد بها الهمداني وهي: بدر والجند ومكة ومنى ونجران، واثنين انفرد بإحداهما المرزوقي وهي الأسقى والثانية شاركه فيها التوحيدي وهي سوق أدم، وأضفنا لها سوقاً مهمة أغفلها كلهم وهي سوق الحيرة وأضفنا كذلك السوق التي أنشئت في الإسلام وهي المربد، بقي لنا إحدى وعشرون سوقاً سنتعرض لها جميعاً بما تقتضيه مكانتها. أما الأسواق الضئيلة الشأن فهي صورة مختصرة عما سنتحدث عنه، وأما الخطيرة كمكة والمدينة فهي دائمية وليست بموسمة، وفي ذكر الأسواق المتاخمة لها غنى عن التعرض لها.

هذا ولعل السبب في اختلافهم في تاريخ قيام الأسواق أن العرب لم يكونوا يلتزمون كل سنة يوماً معيناً لإقامة السوق ويوماً لتقويضها، بل يتقدم هذا اليوم في بعض السنين ويتأخر في بعض، وقد يهرع أقوام إلى السوق قبيل ميعادها، وقد يتخلف آخرون بعد انقضائها إذ لم تنته أعمالهم، وقد تختلف العادة سنة عن سنة، فمن هنا كان هذا التفاوت اليسير.

ثم قد نص محمد بن حبيب صاحب المحبر وهو أقدم المؤلفين وأدقهم وأنا إلى أرقامه أكثر اطمئناناً، نص على أن سوقين تقومان في زمن واحد وهما سوق الرابية بحضرموت وسوق عكاظ، فيأخذ بعض العرب إلى الأولى وبعض آخر إلى الثانية<sup>(١)</sup>.

### جدول عام لأسواق العرب عند المؤلفين الثمانية

الأسواق	(١)	(٢)	(٣)	(٤)
مرتبة على حروف الهجاء	المحبر لمحمد بن حبيب ٢٦٨	تاريخ اليعقوبي بعد ٣٩١ هـ	صفة جزيرة العرب للهمداني ٣٣٤ هـ	الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي نحو ٤٠٠ ٨٥/١
	٢٦٧-٢٦٣	٣١٤-٣١٣/١		
	الترتيب ب	الترتيب الزمن	الترتيب الزمن	الترتيب الزمن

١	أدم
٢	أذرعاع
٣	الأسقى
٤	بدر

(١) انظر (المحبر) ص ٢٦٧ (مطبعة حيدر آباد الدكن سنة ١٩٤٢ م).

				بصرى	٥
				الجنند	٦
				حباشة	٧
			١٢ ١٠-٣٠ المحرم	حجر اليمامة	٨
			٨ ٣٠-١٥ ذي القعدة	حضرمو ت (الرابية)	٩
			٤ آخر رجب	دبي	١٠
			٤ [ذكرت هنا: ريا]		
			١١-١٥ ربيع الأول	دومة الجنند	١١
			١ ربيع الأول	دير أيوب	١٢
			١٠ ٨-١ ربيع الأول	نو المجاز	١٣
			٥ ١٥ شعبان	الشحر	١٤
			٣ ١ رجب	صحار	١٥
			٧ ٣٠-١٥ رمضان	صنعاء	١٦
			٦ ١٠-١ رمضان	عدن	١٧
			٩ ٣٠-١٥ ذي القعدة	عكاظ	١٨
				عمان	١٩
				مجنة	٢٠
			٢ جمادى الآخرة	المشقر	٢١
			٢ جمادى الأولى	مكة	٢٢
				منى	٢٣
				نجران	٢٤
				نطاة خبير	٢٥
				هجر	٢٦

(٨)	(٧)	(٦)	(٥)		
بلوغ الأرب للأوسي - ١٣٤٢هـ	خزانة الأدب للبغادي - ١٠٩٣هـ	صبح الأعشى للقلقشندي - ٨٢١هـ	الأزمنة والأمكنة للمرزوقي - ٤٢١هـ ١٦١/٢ - ١٧٠		
٢٧٠-٢٦٤/١	٣٦٢-٣٦/٤	٤١١-٤١/١			
الترتيب الزمن	الترتيب الزمن	الترتيب الزمن	الترتيب الزمن		
			٤		١٦
					١٧
					١٥

٥ رجب				
١٥ المحرم ٣٠-١٠	١٠ المحرم ٣٠-١٠		١٣	
١١ من ذي القعدة ١٥	٦ من ذي القعدة ١٥	٦	٨ ١٥ ذي القعدة	
			٤ ٣٠ رجب	
١ ربيع الأول	١ ١٥ ربيع الأول	١ ربيع الأول	١ ربيع الأول	
			١٤	
١٣ من ذي الحجة ٨-١	٨ من ذي الحجة ٨-١		١٠ ٨-١ ذي الحجة	
٧ شعبان ١٥	٤ شعبان ١٥	٤	٥ ١٥ شعبان	
٦ ١٥-١٠ رجب	٣ ١٥-١٠ رجب		٣ ١ رجب	
٩ ٣٠-١٥ رمضان	٥ ١٥ شعبان	٧	٧ ٣٠-١٥ رمضان	
٨ شعبان- رمضان		٥	٦ ١٠-١ رمضان	
١٠ ٢٠-١٠ ذي القعدة	٧ ٣٠-١٥ ذي القعدة	٨	٩ ١٥ من ذي القعدة	
١٥-٣٠ شوال				
٣ جمادى الأولى		٣		
١٢ ٣٠-٢٠ ذي القعدة				١١
٤ ١ جمادى الآخرة	٢ ١ جمادى الآخرة			٢ ١٠-١ ج
١٤ بعد أيام الحج	٩	٢ ربيع الآخر		١٢
٢ ربيع الآخر				

الانتقال بين الأسواق بدلالة الأرقام والخطوط ابتداء من دومة الجندل

## أسواق العرب

### أ- في الجاهلية

#### سوق دومة الجندل

دُومة الجندل ويقال (دوماء الجندل) كلاهما بالضم<sup>(١)</sup>، بلد يقع في نقطة متوسطة بين الشام والخليج العربي والمدينة، على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريباً. بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة لعدم استقامة الطريق بينهما. وهي في غائط من الأرض طوله خمسة فراسخ وفيها حصن ((مارد)) المشهور، وإلى غربها عين تتج فتسقي ما به من النخل والزرع، وكانت خربة، وروى ابن سعد نقلاً عن بعض أهل الحيرة في سبب بنائها: ((أن أكيدر صاحبها وإخوته كانوا ينزلون دومة الحيرة، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم، فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل، فأعادوا بناءها وعرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة))<sup>(١)</sup>.

وقال ياقوت: ((كان فيها قديماً حصن مارد، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وقريب منها جبلاً طيباً وكانت بهذا الحصن بنو كنانة من كلب)).

وكان أكيدر يبعث بمن يتعرض قوافل التجارة الذاهبة بين المدينة والشام ويظلم من يمر بهم من الضافطة (الذين يجلبون الميرة والطعام) ثم قوي شرهم حتى شاع أن في عزمهم الدنو من المدينة وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، واستخلف على المدينة، وخرج في ألف من المسلمين يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل من بني عذرة حتى بلغوا دومة الجندل، فتفرقوا وألقي الرعب في قلوبهم، وأخذ من نعمهم وشأنهم ورجع ولم يلق كيداً.

والظاهر أن شرهم لم ينقطع عن تجار المدينة حتى اضطر الرسول إلى أن يرسل إليهم سرية عليها عبد الرحمن بن عوف، وأوصاه حين دفع إليه اللواء بقوله: ((خذ<sup>(٢)</sup> يا بن عوف فاغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلو ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم)) وقال له: ((إن استجابوا لك فتزوج بنت ملكهم)).

سار عبد الرحمن حتى بلغ دومة الجندل فدعا أهلها إلى الإسلام فأسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو الكلبي وأسلم معه ناس كثير من قومه وتزوج عبد الرحمن ابنته (تماضر) وبقي على الجزية هو ومن معه.

<sup>(١)</sup> ونقل الفتاح فيها صاحب النهاية، وفي الصحاح أن أصحاب اللغة يضمون وأصحاب الحديث يفتحون. هذا ودومة الجندل هي التي تعرف اليوم - على ما نقل لنا - ب(الجوف).

<sup>(٢)</sup> الطبقات ص ٦١

<sup>(٢)</sup> سيرة ابن هشام ٤٤٣/٣.

إلا أن أكيدر صاحب دومة وعاملها لهرقل بقي على تعرضه للسابلة من تجار المدينة، ولعل لمكانة سوق دومة الجندل وكثرة التجار بها وعدم تعريج أحد من المدينة عليها دخلاً في هذا التعرض الذي لا يبعد أن يكون للمنافسة التجارية أثر فيه غير قليل. وأراد الرسول إقرار الأمن في تلك الربوع فدعا خالد بن الوليد وبعثه على رأس سرية إلى أكيدر هذا، فلما بلغ الركب ضاحية دومة الجندل وجدوا صاحبها في نفر من قومه يتصيدون فأسروا أكيدر وقتلوا أخاه ورجعوا إلى المدينة بأسيرهم، فحقن له رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله ورجع إلى بلده وقد كتب له رسول الله ولأهل دومة في هذا الكتاب:

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر ولأهل دومة الجندل: إن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور، ولا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين))<sup>(١)</sup>.

وهذا الصلح تجاري بنتيجته لما ضمن من منافع للمسلمين، كما هو تجاري بسببه أيضاً إذ لولا تعرض أهل دومة لمن يجتاز بقربهم من التجار ما اضطر الرسول إلى إرسال سراياه لتأمين الطريق وتأديب أهل العيث والفساد.

وبقي القوم على صلحهم حتى كانت سنة اثنتي عشرة للهجرة ففتحها خالد عنوة في خلافة الصديق وظفر العرب بأكيدر خارج دومة فأمر خالد بقتله<sup>(٢)</sup>. وكان صاحب صلحهم أكيدر ذا شهرة في قبائل العرب توازي شهرة دومة الجندل وشهرة حصن المشقر. والعرب تنظر إلى أصحاب الحصون نظرة إعظام وإعجاب بقوتهم، ولما ذكر لبيد فعل بنات الدهر لم يعظ قومه إلا بأصحاب الحصون فكان أكيدر دومة هذا أحد من ضربهم مثلاً فقال:

واعصفن بالدومي من رأس حصنه وأنزلن بالأسباب رب المشقر

يعني بالدومي أكيدراً، وذكر دومة الجندل يشغل صفحات غير قليلة من تاريخ المسلمين، لأنه فيها التقى الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وكان منهما ما هو معروف.

\* \* \*

<sup>(١)</sup> انظر الواقدي وشرح المواهب للزرقاني ٣/٣٦١. الضاحية البارز من أطراف الأرض. والضحل: الماء القليل. والبور: الأرض التي لم يؤخذ خراجها. والمعامي وأغفال الأرض: ما لا أثر لهم فيها من عمارة أو نحوها. والحلقة: الدروع والسلاح. والحافر: الخيل والبراذين والحمير. والحصن: دومة الجندل. والضامنة: النخل الذي معهم في الحصن. والمعين: الظاهر من الماء الدائم. ولا تعدل سارحتكم: لا تتحى مواشيتكم عن الرعي ولا تحضر إلى المصدق (عامل الزكاة) والفاردة: ما لا تجب فيه الصدقة.

هذا وذبح الواقدي وغيره إلى أنه أسلم وأن أول الكتاب: ((من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكتافها: إن لنا الضاحية... الخ)). وإسلامه لم يصح وقد اغتر بهذه الرواية غير واحد وآخرهم صاحب (مجموعة الوثائق السياسية) إذ أثبت رواية الواقدي الضعيفة ص ١٦٧. <sup>(٢)</sup> تاريخ الطبري ١/٢٠٦٥.



تنزل قبائل العرب في الجاهلية هذه الأسواق في أول يوم من ربيع الأول للبيع والشراء، وكان بيعهم فيها بيع الحصة (وقد تقدم في الكلام على بيوع الجاهلية).

ويجاور هذه السوق من قبائل العرب قبيلتنا كلب وجديلة طيئ. وكانت كلب أكثر العرب قنأً فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شَعَر يجعلون فيها عبيدهم وإماءهم. وكانوا - على عادة بعض العرب - يكرهون فيها فتياتهم على البغاء ويأخذون لأنفسهم كسب أولئك البغايا من إماءهم. فلما كان الإسلام وحرم الله هذه العادة القبيحة بقوله تعالى: {وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [النور: ٣٣/٢٤] تنزه العرب عن هذه التجارة التي كانوا عليها في الجاهلية وتجاوز الله عما كان منهم قبل الإسلام.

يشرف على هذا الموسم أمراء من العرب، وكان رؤساء السوق غالباً إما من كلب وإما من غسان، أي الحيين غلب خضع له الآخر، وكان مكس هذه السوق لمن يشرف عليها قال الألوسي:

((كان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف الشهر. وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم ويتولى أمرهم يوماً بعد رؤساء بني كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر)).

فكان إذن بين أكيدر وقبيل كلب تنافس شديد على الاستيلاء على هذه السوق ومكسها، فأكيدر يتولى أمرها حيناً ويعشر من بها، والكلبي حيناً يستأثر بالحكم فيها والاضطلاع بشؤونها. أما الغريب حقاً فهو ما ذكره المرزوقي من حل لهذا الخلاف والتطاحن بين الملكين وهو إن صح - وليس ببعيد - يطلعنا على صورة طريفة من عقلية القوم وعاداتهم قال:

((وكان ملكها (يعني سوق دومة الجندل) بين أكيدر العبادي من السكون، وبين قنافة الكلبي. وكان غلبة الملكين بأن يتحاجيا!! فأيهما غلب صاحبه بما يلقي عليه تركه والسوق يفعل بها ما يشاء. ولم يبيع فيها أحد من الشام ولا أهل العراق إلا بإذنه، ولم يشتر فيها ولم يبيع حتى يبيع الملك كل شيء يريد يبيعه مع ما كان إليه من مكسها))<sup>(١)</sup>.

فأنت ترى أن الأمر ذو خطر وفوائد كثيرة تستحق هذا التطاحن عليه.

يدور نشاط هذه السوق حتى منتصف ربيع الأول وتغص بمن يؤمها من أطراف الشام ومن العراق وسائر الجزيرة. وهي من الأسواق الكبرى للعرب حتى إنهم ليلقون في سيرهم إليها نصباً كبيراً لوعورة الطريق والتعرض للأخطار وفقدان الأمن، ولا يحملهم على ذلك كله إلا ما تغريهم به هذه الأسواق من ربح وفائدة قال المرزوقي:

((كانت قريش تخرج إليها قاصداً من مكة، فإذا أخذت على الحزن لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع.. وكانوا إذا خرجوا من الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب، وكانت كلب حلفاء بني تميم؛ فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد حتى يخرجوا على طيئ فتعطيهم وتدلهم على ما أرادوا لأن طيئاً حلفاء بني أسد. فإذا

<sup>(١)</sup> نقل المرزوقي هذا عن كتاب المحبر لمحمد بن حبيب ص ٢٦٣-٢٦٤ ولم يعز إليه.

أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فتجيز لهم ذلك ربيعة كلها<sup>(١)</sup>.

ثم تفتت حركتها وتأخذ بالاضمحلال حتى آخر الشهر، إذ يفترق أهلها وموعدهم إليها من قبل، شهر ربيع الأول.

---

(١) الأزمنة والأمكنة ١٦١/٢ والمحبر ص ٢٦٤ وفيه بعد قوله (حلفاء بني أسد): وكانت مضر تقول: قضت عنا قريش مذمة ما أورتنا إسماعيل من الدين فإذا أخذوا إلخ.. والمرزوقي اقتبس عبارة المحبر كما هو ظاهر.

## سوق المشقر

المشقر حصن بالبحرين لعبد القيس، وهو قريب من هجر. وأهله أزد يمانون كما سيأتي في الكلام على سوق عمان، جاء في مرصد الاطلاع:

((المشقر حصن بين نجران والبحرين، يقال: إنه من بناء طسم. وهو على تل عال، يقابل حصن بني سدوس، ويقال: إنه بناء سليمان، وقيل: هو حصن بالبحرين لعبد القيس، يلي حصناً آخر لهم يقال له: الصفا قبل مدينة هجر، والمسجد الجامع بالمشقر، وبينهما نهر يجري إلى جانب مدينة محمد بن الغمر يقال له: العين)). فالظاهر من هذا الكلام أن هذا الحصن وثيق البنيان، ذو خطر، حتى رفعوا نسبة بنائه إلى سليمان، وحتى ضرب به المثل في المنعة والإحكام قال المخبّل:

فلئن بنيت لي المشقر في صعب تقصر دونه العصم<sup>(١)</sup>

لضئئقني عني المنية إ نّ الله ليس كعلمه علم

وشهرة الحصن مستفيضة على السنة العرب ذكره كثيرون، فممن ذكره الأعشى القائل:

فإن تمنعوا منا المشقر والصفا فإننا وجدنا الخط جماً نخيلها

وذكره أبو ذؤيب الهذلي في مرثيته لبنيه فقال:

حتى كآني للحوادث مروة بصفا المشقر كلّ يوم تُقرع

\* \* \*

تقوم في المشقر سوق للعرب تبتدئ من أول جمادى الآخرة وتستمر إلى سلخه فتتفض ويغادرها الناس إلى جمادى من قابل، وينزلها أخلاط من جميع أحياء العرب ((وكانت أرضها معجبة لا يراها أحد فيصبر عنها)). فلها صفات هجر وخصبها إذ هي جزء منها، وقد علل المرزوقي اختلاف قبائل الناس في هذه النواحي بقوله:

((وكانت لا تقدمها لطيمة إلا تخلف منهم بها ناس، فمن هناك صار بهجر من كل حي من العرب ومن غيرهم))<sup>(١)</sup>.

وكان بيعهم في هذه السوق بالملامسة والإيماء والهمهمة خوف الحلف والكذب!! وقد مر بك تفسير هذه البيوع في محله.

كثر ذكر المشقر في كتب الأدب، فكان امرؤ القيس الشاعر ينزله، وفيه كانت وقعة من الوقائع المشهورة في أيام العرب: إذ حاصر كسرى بني تميم فيه، وأغلق عليهم بابه، ثم قتل المقاتلة، وسبى الذراري بعد أن امتنعوا فيه مدة، وذكر صاحب الأغاني ما يستدل منه على أن كسرى كان له النفوذ على هذه السوق (شأنه في سوق هجر و عمان) يقيمها متى شاء ويعطلها متى شاء قال:

(١) العُصْم جمع أعصم: وهو من الوعول ما في ذراعيه أو في أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر.  
(١) الأزمنة والأمكنة ١٦٣/٢.

((أمر كسرى بالطعام فادخر في المشقر، وقد أصابت بني سعد سنة شديدة، والطعام عنهم محبوس، وكان المشير على كسرى بذلك هودّة، وكان له عليهم تارات فقال لكسرى: ((يا أيها الملك! احبس الميرة عنهم، فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فإنهم يأتونها، فتصيبهم عند ذلك خيلك)). ففعل كسرى وحبس عنهم الأسواق في سنة مجدبة ثم سرح إلى هودّة فأتاه.. إلخ<sup>(١)</sup>.

يقصد هذه السوق العرب وأهل فارس على السواء ويجاررها من قبائل العرب تميم وعبد القيس. وليس لها ما لغيرها من الأمن والحرمة، وجميع من يقصدها لا يستغني عن خفارة يسير في حمايتها. (وكان من يؤمها من التجار يتحفرون يقريش لأنها لا تؤتي إلا من بلاد مضر)<sup>(١)</sup>. وملوك هذه السوق الذين يعشرون الناس فيها أناس من بني عبد الله بن زيد رهط المنذر بن ساوى من بني تميم يسرون هنا سيرة الملوك في دومة الجندل، وهم خاضعون لملك فارس ((يستعملهم عليها كما يستعمل بني نصر على الحيرة وبني المستكبر على عمان))<sup>(٢)</sup> ومن يوافي هذه السوق من فارس خلق كثير.

ولا تُعرض تجارة ولا يقوم بيع حتى تنفق تجارة الملك بتمامها كما هو الشأن في سوق دومة الجندل، ولا ريب أن ملوك هذه السوق ترسخ إلى حكومة فارس مما يحصلون عليه بالنصيب الأوفى.

(١) ٧٨/١٦ والأساورة جمع أسوار وهو: قائد الفرس والجيد الرمي بالسهم، والثابت على ظهر الفرس، والخبر كما في الأغاني ٤٥/١٦ عن ابن الكلبي:

بعث كسرى إلى عامله باليمن بغير، وكان باذان على الجيش الذي بعثه كسرى إلى اليمن، وكانت العير تحمل نبعاً، فكانت تذبذق (تخفر) من المدائن حتى تدفع إلى النعمان ويذرقها النعمان بخفراء من بني ربيعة ومضر حتى يدفعها إلى هودّة بن علي الحنفي حتى يخرجها من أرض بني حنيفة، ثم تدفع إلى بني سعد وتجعل لهم جعلاً فتسير فيها فيدفعونها إلى عمال باذان باليمن. فلما بعث كسرى بهذه العير قال هودّة للأساورة: ((انظروا الذي تجعلونه لبني تميم فأعطونيهِ فأنا أكفيكم أمرهم وأسير فيها معكم حتى تبلغوا مأمكم))، فخرج هودّة والأساورة والعير معهم من حجر، حتى إذا كانوا بنطاق بلغ بني سعد ما صنع هودّة فساروا إليهم وأخذوا ما كان معهم واقتسموه وقتلوا عامة الأساورة وسلبوهم وأسروا هودّة بن علي، فاشترى هودّة نفسه بثلاث مئة بغير، فساروا معه إلى حجر فأخذوا منه فداءه ففي ذلك يقول شاعر بني سعد:

ومنا رئيس القوم ليلة ألدجوا  
وردنا به نخل اليمامة عانياً  
بهودة مقرون اليبدين إلى النحر  
عليه وثاق القد والحلق السمر

فعمد هودّة عند ذلك إلى الأساورة الذين أطلقهم بنو سعد وكانوا قد سلبوا فكساهم وحملهم ثم انطلق معهم إلى كسرى، وكان هودّة رجلاً جميلاً شجاعاً لبيباً فدخل عليه فقص أمر بني تميم وما صنعوا.. فقال كسرى لهودّة: ((أرأيت هؤلاء الذين قتلوا أساورتي وأخذوا مالي أبينك وبينهم صلح؟)) قال هودّة: ((أيها الملك: بيني وبينهم حساء الموت وهم قتلوا أبي)). فقال كسرى: ((قد أدركت ثارك، فكيف لي بهم؟)) قال هودّة: ((إن أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يمتنعون بها، ولكن احبس عنهم الميرة فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فإنهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك)). وأمر بالطعام فادخر بالمشقر ومدينة اليمامة وقد أصابت الناس سنة شديدة ثم قال: ((من دخلها من العرب فأميروه ما شاء)). فبلغ ذلك الناس. وكان أعظم من أتاها بنو سعد فنادى منادي الأساورة ((لا يدخلها عربي بسلاح)) فأقيم بوابون على باب المشقر فإذا جاء الرجل ليدخل قالوا: ((ضع سلاحك وامتر وأخرج من الباب الآخر)) فيذهب إلى رأس الأساورة فيقتله.

فيزعمون أن خبيري بن عبادة قال: ((يا بني تميم ما بعد السلب إلا القتل وأرى قوماً يدخلون ولا يخرجون)) فانصرف منهم من انصرف من بقيتهم وقتلوا بعضهم وتركوا بعضاً محتبسين عندهم. اهـ.

(١) المحبر ص ٢٥٦.

(٢) الصفحة السابقة والأزمنة والأمكنة ١٦٣/٢.

## سوق هجر

يتناول اسم هجر أرض البحرين عامة، وهي واليمن وعمان من أخصب بلاد العرب وأكثرها رخاء، وذكر ياقوت في معجمه أنها قاعدة البحرين. موقع هذه البلدة في جنوب الخليج العربي، وتكون على اتصال دائم ببلاد الهند وفارس، يجلب إليها مختلف الأصناف، ولأهلها أسباب آخر للمعاش غير التجارة، كالغوص على اللؤلؤ، وهم لا يزالون على ذلك إلى اليوم كسائر سكان البحرين، والنسبة إليها هجري على القياس وهاجري على غير قياس قال دريد بن الصمة:

ورُبَّتْ غارة أوضعت فيها كسح الهاجري جريم تمر<sup>(١)</sup>

وهجر مشهورة بكثرة وبائها حتى قال عمر بن الخطاب: ((عجبت لتاجر هجر وراكب البحر)). يريد أنهما سواء في التعرض للخطر وصارت ديار القرامطة فيما بعد، وقد احتف بها قبائل كثيرة من مضر.

وهي أكثر بلاد العرب تموراً وأطيبها، وأروج تجاراتها التمر، به عرفت وبها اشتهر حتى ضرب به المثل فقالوا: ((كمبضع تمر إلى هجر)) كما قالوا: ((كجالب الدر إلى البحر)) قال أبو عبيد: ((هذا من الأمثال المبتذلة، ومن قديمها: وذلك أن هجر معدن التمر والمستبضع إليه مخطئ)). ونخلها كثير ملتف غاية في الجودة والطيب. قال الشاعر يذكر إبلاً خرجت للميرة إلى هجر فرجعت بغير كف ولا طعام:

حُبْسُنْ بين رملة وُقِفَّ وبين نخل هجر الملتف

نُمتَ أصدرن بغير كف<sup>(١)</sup>

وقد استفاض على ألسنة الناس ذكر تمرها والثناء على جودته وطيبه، وملئت كتب الأدب بالإشارة إليه، فهذا رسول جميل إلى بننية يبلغها ما أرسل به فتنحفة بتمر من تمر هجر<sup>(١)</sup>.

وذاك أعرابي حضر وليمة لعبد الملك بن مروان عجز الفصحاء عن وصف ما حوت من الأطيب والألوان فقبل له: ((هل رأيت يا أعرابي طعاماً أطيب وأكثر من هذا؟)) فقال: ((أما أكثر فلا وأما أطيب فنعم..)). وذكر طعاماً فيه تمر هجر<sup>(١)</sup>.

(١) جرم النخلة قطعها، والجريم التمر اليابس، والنوى ورواية اللسان ((كسح الخزرجي)) وقال: ((معناه أي صببت على أعدائي كصب الخزرجي جريم التمر وهو النوى)) وهجر أيضاً قرية من قرى المدينة تنسب إليها القلال الهجرية، انظر اللسان والتاج وياقوت. وشرح شواهد المغني ص ٦٨ فقد نقل هذا أن هجر بلدتان: هجر البحرين ذات التمر وهجر الحجاز ذات القلال.

(١) ياقوت، والفم ما ارتفع من الأرض وحجارة غاص بعضها ببعض لا تخالطها سهولة، وهو جبل إلا أنه غير طويل، والكف: بقلة الحمقاء والنعمة.

(٢) الأغاني ١٣٨/٢

(١) ذكر الخبر مفصلاً صاحب الأغاني ٥٠/٧ فقال:

صنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب ودعا إليه الناس فأكلوا فقال بعضهم: ((ما أطيب هذا الطعام، ما نرى أن أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيب منه)). فقال أعرابي من ناحية القوم: ((أما أكثر فلا وأما أطيب فقد والله أكلت أطيب منه)). وطفقوا يضحكون من قوله.

فأشار إليه عبد الملك فأدني منه، فقال: ((ما أنت بمحق فيما تقول إلا أن تخبرني بما يبين به صدقك)) فقال: ((نعم يا أمير المؤمنين:

بينا أنا بهجر في ترب أحمر في أقصى حجر، إذ توفي أبي وترك كلا وعيالا وكان له نخل، فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها كأن ثمرها أخفاف الرباع، لم ير تمر قط أغلظ ولا أصلب ولا أصغر نوى ولا أحلى حلاوة منها وكانت تطرقها أتان وحشية قد ألفتها تأوي الليل تحتها فكانت تثبت رجليها في أصلها وترفع يديها وتعطو

وليس هذا التمر معروفاً عند الأدباء وحدهم، بل إن ذكره لابس مسألة نحوية مشهورة، فما على الأرض نحوي إلا يعرف لهجر تمرها، فقد أتى خلف الأحمر ويحيى اليزيدي أبا المهدي: أعرابياً فصيحاً حجة، وكان به عارض فوجداه يصلي فلما التفت قال: ((ما خطبكما؟)) قالوا: ((كيف تقول: ليس الشراب إلا العسل)). فقال: ((فما يصنع سودان هجر؛ ما لهم شراب غير هذا التمر)).<sup>(١)</sup>

ولهجر شأن آخر في آداب اللغة العربية غير هذا المثل المضروب وتلك القاعدة النحوية، إذ في دهاسها<sup>(١)</sup> هلك المهلهل، أول من هلهل الشعر وأرق نسجه، مات عطشاً في حمارة القيظ (الأغاني ١٢٨/٦) ومن الغريب أن سبب موته هو خمر هجر هذه: وذلك أن عمرو بن مالك ومهلهلاً التقيا في خيلين من غير مزاحفة في بعض الغارات بين بكر وتغلب، فانهزمت خيل مهلهل وأدرکه عمرو بن مالك فأسره فانطلق به إلى قومه وهم في نواحي هجر، فأحسن إيساره، وممر عليه تاجر يبيع الخمر، قدم بها من هجر وكان صديقاً لمهلهل يشترى منه الخمر، فأهدى إليه وهو أسير زق خمر، فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده بكرةً وشربوا عند مهلهل في بيته - وقد أفرد له عمرو بيتاً يكون فيه - فلما أخذ منهم الشراب تغنى مهلهل فيما كان يقوله من الشعر وينوح به على كليب، فسمع ذلك عمرو بن مالك وهاج تغنيه كامن الغيظ في نفسه فقال: ((إنه لريان، والله لا يشرب ماء حتى يرد ربيب)) (وربيب هذا جمل كان لعمرو بن مالك، وكان يتناول الدهاس من أجواف هجر فيرعى فيها غباً بعد عشر في حمارة القيظ)، فأشفق إخوان عمرو من هذا القسم وخافوا أن يزيد الشر بين الحيين إن هلك مهلهل؛ فأسرعت ركبائهم وخرجت في طلب البعير ربيب، وهم

بفيها فلا نترك إلا النبذ والمتفرق فأعظمني ذلك ووقع مني كل موقع فانطلقت بقوسي وأسهمي وأنا أظن أنني أرجع من ساعتى فمكنت يوماً وليلة لا أرها حتى كان السحر فأقبلت فتهيات لها فرشقتها فأصبته وأجهزت عليها ثم عمدت إلى سرتها فافتريتها، ثم عمدت إلى حطب جزل فجمعته إلى رصف ثم عمدت إلى زندي ففدحت وأضرمت النار في ذلك الحطب والقيت سرتها فيه وأدركني نوم السبات فلم يوقظني إلا حر الشمس في ظهري فانطلقت إليها فكشفتها والقيت ما عليها من قذى أو سواد أو رماد ثم قلبت مثل الملاءة البيضاء، فألقيت عليها من رطب تلك النخلة المجزعة والمنصفة فسمعت لها أطيماً كتداعي عامر وغطفان ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة فاضعها بين التمرتين وأهوي إلى فمي، فيما أحلف إنى ما أكلت طعاماً مثله قط)). فقال له عبد الملك: لقد أكلت طعاماً طيباً.. الخ.

<sup>(١)</sup> والقصة على التمام ذكرها أبو علي القالي في أماليه ٣٩/٣ قال:

حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصمعي يقول: جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو، ((ماشي بلغني عنك تجيزه؟)) قال: ((وما هو؟)) قال: ((بلغني عنك أنك تجيز: ليس الطيب إلا المسك بالرفع)) فقال أبو عمرو: ((نمت يا أبا عمر وأدج الناس؛ ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع))، ثم قال أبو عمرو: ((قم يا يحيى يعني - اليزيدي -، وأنت يا خلف - يعني الأحمر - فاذهب إلى أبي المهدي فإنه لا يرفع، واذهب إلى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب)).

قال فذهباً فأتيا أبا المهدي فإذا هو يصلي، وكان به عارض وإذا هو يقول: ((لقد أحساناه عني)) ثم قضى صلاته والتفت إلينا وقال: ما خطبكما؟ قلنا: ((جنناك نسألك عن شيء))، قال: ((هاتيا))، قلنا: ((كيف تقول: ليس الطيب إلا المسك؟)) فقال: ((أتأمراني بالكذب على كبرة سني؟ فأين الجادي وأين كذا؟ وأين بُنة الإبل الصادرة؟)) فقال له خلف: ((ليس الشراب إلا العسل)). فقال: ((فما يصنع سودان هجر؟ ما لهم شراب غير هذا التمر)) قال اليزيدي: فلما رأيت ذلك منه قلت له: ((ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها)) فقال: ((هذا كلام لا دخل فيه، ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها)) فقال اليزيدي: ((ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها)). فقال: ((ليس هذا لحن ولا لحن قومي)). فكتبتنا ما سمعناه منه ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلاً يعقل فقال له خلف: ((ليس الطيب إلا المسك)) فلقناه النصب وجهنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع.

فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح، فأخرج عيسى بن عمر خاتمه من يده وقال: ((ولك الخاتم، بهذا والله فقت الناس)) اهـ.

<sup>(١)</sup> الدهاس المكان السهل ليس برمل ولا تراب.

حراص على ألا يقتل مهلهل، فلم يقدرُوا على البعير حتى مات مهلهل عطشاً. ونحر عمرو يومئذ ناقة مسنة فأسرج جلدُها على مهلهل وأخرج رأسه.

وهكذا ذهب مهلهل من جراء نشوة من خمر هجر<sup>(١)</sup>، وكم أفقدت الخمر الناس رؤوسهم وسادتهم، وكم كانت نذير الشر والشؤم منذ الزمن الأقدم، فلنذكرن هجر وخمرها، وهذه الميثة الروائية كلما ذكرنا المهلهل وما رقق من شعر.

\* \* \*

تهبط العرب هذه السوق ولعلها كانت أكثر مكانة من دومة الجندل، لأنها فرضة يجدون فيها من أصناف التجارات التي يأتيهم بها تجار الهند وفارس ما لا يجدون في تلك، ولأن بها من التمر ما طبقت شهرته الآفاق، وضرب في الجودة مثلاً في البلاد؛ وليس ذلك بقليل.

وكان بها عدا ذلك ضروب من البضائع، فعلى مقربة منها ((الخط)) المشهورة برماحها. وفي (رياض الصالحين ص ٤٤٩) أن سويد بن قيس قال: ((جلبت أنا ومخزومة العبدي بزاً من هجر. فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فساومنا سراويل)). فأنت ترى أنه يجلب منها بزاً يباع في المدينة. وكان كسرى يرسل إلى سوق هجر من تجارته: يرسل إليها لطائم فيها الطيب فيباع فيها ثم ترجع موقرة عروضاً وتمراً. وحدث مرة أن أغارت بنو تميم على لطيمة لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر كثير فأرسل جيشاً أوقع بهم فأخذ الأموال وسبى الذراري بمدينة هجر وسميت تلك الوقعة (يوم الصفقة)<sup>(١)</sup>). ولعل نفوذ كسرى في هذه السوق كان غير ضئيل.

((وفي هجر مجوس، وقد صالحهم رسول الله على أن يأخذ منهم الجزية، غير مستحل مناكحة نسائهم ولا أكل ذبائحهم))<sup>(١)</sup>.

تقصد العرب هذه السوق بعد انفضاضهم من سوق دومة الجندل، فإذا أهل ربيع الآخر انتقلوا إليها فقامت سوقها. وينظر في أمرها المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم، يتولى أمرها ويعشر الناس فيها، وهو ملك البحرين عامة.

## سوق عمان

كورة عربية في جنوب الخليج العربي تمتد على سواحل بحر اليمن، وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع، وهي شديدة الحرارة حتى إن حرها يضرب به المثل.

وبها فواكه جُروميّة<sup>(١)</sup> (كالموز والرمان والتين ونحو ذلك) ولعلّ نخيلها متميز من غيره، فقد ذكروا أن بالبصرة نخلة يقال لها (العُمانية) لا يزال عليها السنة كلها طلع جديد وكبائس مثمرة وأخرى مرطبة. قيل: إنها سميت بعمان بن نفثان بن سبأ أخي

(١) في الجزء الأول من مسالك الأبصار فصل عن حانات هجر المشهورة فارجع إليه ثمة.

(١) انظر الخبر مفصلاً في العقد الفريد ٣/٣٥٤.

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ط ٢ المكتبة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٠٢هـ، ص ١٢٩.

(١) مسالك الممالك للإصطخري.

عدن<sup>(٢)</sup> وقيل من (عمن يعمن) إذا أقام، وقد اشتقوا منها فعلاً فقالوا: أعمن وعمن إذا أتى عمان، قال العبدى:

فإن نثموا أنجد خلافاً عليكم وإن نعثموا مستحقي الحر أعرق

عدها الهمداني في (صفة جزيرة العرب ص ٤٨) من مخاليف اليمن نزلها الأزدي على قبائل يحمى وحدان ومالك والحارث وعتيك وجديد (ص ٢١١)، واستشهد على قوله بشواهد من الشعر منها:

وأزد لها البحران والسيف<sup>(١)</sup> كله وأرض عمان بعد أرض المشقر<sup>(٢)</sup>

ومنها:

وغسان الذين هم استتبوا قبائلهم بأطراف البلاد<sup>(٣)</sup>

وحياً منهم نزلوا عماناً أراهم لم يهوما بارتداد

وغسان من الأزدي كما هو معلوم، واستشهد أيضاً بهذا الشاهد وهو يريد الأزدي طبعاً:

فأقرت قرارها بعمان فعمان محل تلك الحماة<sup>(٤)</sup>

وتضرب بها العرب المثل في بعدها، لأنها في أقصى الجزيرة إلى الشرق والجنوب تفصلها عن اليمن صحراء الأحقاف، وهي بعيدة عن الحجاز والعراق والشام.

ذكر ياقوت أن الحسن بن عادية قال: لقيت عبد الله بن عمر فقال: ((من أي بلد أنت؟)) قلت: ((من عمان)) قال: ((أفلا أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟)) قلت: ((بلى)) قال: ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إني لأعلم أرضاً من أرض العرب يقال لها عمان على شاطئ البحر: الحجة منها أفضل من حجتين من غيرها)) ومن المفسرين من ذهب إلى أن المقصود بقوله تعالى: {وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: ٢٢/٢٧].

ولو عرف الشاعر أبعد منها لذكره محلها في قوله يهجو قوماً:

لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

والظاهر أنها على بعدها لم تكن تخلو من أخلاط القبائل ومختلف الأمم، شأن كل فرضة تجارية، فلم تقتصر على الأزدي الذين رويها لك فيهم ما ذكره الهمداني، لأنها أقرب بلاد العرب من الهند وليس بينها وبين فارس إلا المضيق فكان فيها النزلاء الغرباء من هؤلاء، عدا من يقصدها من العرب للتجارة فيقيم فيها، وقد ظلت تحت

(٢) تاج العروس. وعمان كغيرها من أعلام الأمكنة تصرف ولا تصرف وبكليهما ورد الشعر، فمن أمثلتها غير مصروفة قول الشاعر:

أحب عمان من حبي سليمان وما عهدي بحب قرن عمان

(١) سيف البحر: ساحله.

(٢) ٢٠٦.

(٣) ٢٠٧.

(٤) ٢١٠.



نفوذ الفرس الفعلي، وكان ملوك فارس هم الذين يولون عليها الأمراء فاستعملوا بني المستكبر - على رواية المرزوقي - وقد تقدم أن لهم نفوذاً على هجر، وعلى المشقر كما سبق، فتكون فارس قد بسطت سلطانها على سواحل الخليج العربي كله وعلى سواحل بحر اليمن حين أرسلوا الأحرار فطردوا الحبشة منها، وبذلك يكون لهم نصف سواحل جزيرة العرب، وما زالت الفرض والشواطئ عرضة للأطماع ينزلها كل قوي، فكيف إذا كانت خصبة فيها الغنى كعمان، وقد جاء في الحديث: ((من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان)) فتجاراتهم كثيرة ومعاشهم وافرة، وفيها ذخائر متنوعة، ومعادن جيدة، وخصب ورخاء، فجمعوا بذلك أسباب الثروة والغنى فلم يكن من الغريب طمع فارس فيهم.

وقد استتبع مركز عمان هذا كثرة الأعاجم فيها واختلاط أهلها بهم، حتى أدخل ذلك الضيم على لغتهم فلم يعرفوا في العرب بالفصاحة، ولما رأى أبو عمرو بن العلاء أعرابياً من عمان فصيحاً لم يكتف استغرابه من حسن وصفه لبلده وفصاحة منطقته، حتى عرف أن الأعرابي بعيد عن مراكز الاختلاط تلك، ذكر القالي (١٦/٣) عنه أنه قال:

لقيت أعرابياً بمكة، فقلت له: ((ممن أنت؟)) قال: ((أسدي)). قلت: ((ومن أيهم؟)) قال: ((نهدي)). قلت من أي البلاد؟ قال: ((من عُمان)) قلت: ((فأني لك هذه الفصاحة؟)) قال: ((إنا سكننا قطراً لا نسمع فيه ناجخة التيار)). قلت: ((صف لي أرضك)). قال: ((سيف أفيح، وفضاء صحصح، وجبل صرُوح، ورمل أصبح)). قلت: ((فما مالك؟)) قال: ((النخل)). قلت: ((فأين أنت عن الإبل؟)) قال: ((إن النخل حملها غداء، وسعفها ضياء، وجذعها بناء، وكربها صلاء، وليفها رشاء، وخصوها وعاء وقروها إناء))<sup>(١)</sup>. وذكر صاحب مرصد الاطلاع أن أهلها خوارج أباضية.

\* \* \*

تقصد العرب هذه السوق إذا انتهت من سوق هجر، فترحل إلى عمان وتقيم سوقها حتى آخر جمادى الأولى. وهي لتوسطها بين فارس والهند والحبشة، تجتمع فيها بضائع هذه الممالك الثلاث وكانت جمالها تحمل (الورس) من اليمن إلى عمان حيث تعالج الأشياء التي يراد صبغها بالصفرة.

وذكر الألويسي أن بأرضها معادن جيدة وذخائر متنوعة. وقد كان يستخرج بها عنبر مشهور، احتفظت عمان بشهرتها به حتى أيام الرشيد فقد ذكر في الأغاني أنه ((جاء العباس بن محمد إلى الرشيد يوماً ببرنية غالية فوضعها بين يديه ثم قال: هذه يا أمير المؤمنين غالية صنعتها لك بيدي، اختير عنبرها من بحر عمان، ومسكها من مفاوز الثبّت، وبانها<sup>(١)</sup> من ثغر تهامة، فالفضائل كلها مجموعة فيها.. إلخ))<sup>(٢)</sup>.

(١) ناجخة التيار: صوت الموج، والسيف الأفيح: الشاطئ الواسع، والصحصح: الصحراء، والصرُوح: الصلب، الأصبح: الذي يعلو بياضه حمرة، والرشاء: الحبل. والقرو: وعاء من جذع النخل ينبذ فيه.

(٢) البان شجر معروف، ولحم ثمره دهن طيب - القاموس. ٣٩/١٥ (٢)

في هذه السوق يجري التبادل بين بضائع فارس والهند والحبشة واليمن والحجاز والشام، يصب فيها كل تاجر قطر، ما حمل من قطره ويرجع إلى بلده بما يأخذه من عروض ليست فيه؛ ولهذا كان فيها جاليات من كل أمة وكل قبيلة.

## سوق حباشة

نشر الأستاذ حمد الجاسر في مجلته (العرب) تعليقاً حول ما جاء في (المعجم الكبير) الذي يؤلفه مجمع اللغة العربية في القاهرة، وقد عرض نماذج منه في مؤتمره السنوي يوم الأحد ١٩ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٥ هـ جاء فيه:

((حباشة سوق تهامة القديمة، وفي الخبر: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّه وليس له كثير مال، استأجرته خديجة رضي الله عنها إلى سوق حباشة..)) اهـ.  
هذه السوق تقع في صدر (قنوني)، أرضها لبارق اهـ.

ولا يزال يقام في صدر وادي (قنوني) سوق أسبوعي، يقع شرق ميناء (القنفذة) في صدر الوادي، يقام يوم الأحد.

يقع بقرب خط الطول ١٥/41° وخط العرض ١٠/19° عند مجتمع الطرق<sup>(١)</sup>.

تقوم هذه السوق بتهامة في ديار بارق نحو (قنونا) على ست ليال من مكة إلى جهة اليمن. فهي المتجر المتوسط المشترك بين الحجاز واليمن. وأصل الحبش الجمع، والحباشة الجماعة من الناس ليسوا من جنس واحد، ولعلها سميت بذلك لكثرة ما يجتمع بها من مختلف القبائل والأجناس للتجارة، وليست من مواسم الحج. وكما سميت سوق تهامة القديمة بهذا الاسم سميت به سوق أخرى لبني قينقاع تقام في رجب أيضاً، كما هي اسم للأزد أيضاً. والمشهورة منهما هي الأولى التي بتهامة وقد تاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء في الحديث:

((لما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ أشدّه وليس له كثير مال، استأجرته خديجة إلى سوق حباشة، وهي سوق بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش، وكان من قول الرسول وهو يحدث عن هذه التجارة الكبيرة: ((ما رأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا)) اهـ.

\* \* \*

كان لهذه السوق ما لغيرها من المزايا: يكون فيها فداء الأسرى ونشدان الثأر... عدا أمور التجارة. ولما قتل الشنفرى الشاعر حرام بن جابر قاتل أبيه، أتى رجل أسد بن جابر أخا المقتول فقال: ((تركت الشنفرى بسوق حباشة)) فرصد له قوم القتل حتى أسروه وقتلوه.

وليس لحباشة شأن الأسواق العربية الكبرى، فإنها تأتي في الدرجة الثانية في الخطر، وتكاد تكون لما حولها في الغالب، على خلاف الأمر في بقية الأسواق التي هي من مواسم الحج.

بقيت هذه السوق قائمة كل عام حتى سنة سبع وتسعين ومئة، إذ تركت في زمن داوود بن عيسى بن موسى العباسي. والسبب في خرابها أن من عادة ولادة مكة أن

<sup>(١)</sup> مجلة العرب للأستاذ حمد الجاسر السنة ٢٠ ص ٥٠٨، سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٥ م.

يستعملوا عليها رجلاً يخرج معهم بجند فيقيمون بها ثلاثة أيام متوالية من أول رجب واستمر الأمر على هذا حتى قتلت الأزرد والياً كان عليها من قبيلة غني، بعثه داوود بن عيسى بن موسى، فأشار فقهاء مكة على داوود بتخريبها فخربها وتركت منذ ذلك الوقت<sup>(١)</sup>.

## سوق صحار

بلد من أعمار بلاد العرب وأغناها وأطفحها بالمتاجر، جاء في (مسالك الممالك) للإصطخري عند الكلام على عمان: ((وقصبتها صحار، وهي على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب. وهي أعمار مدينة بعمان وأكثرها مالا، ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر العرب بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار، وبها مدن كثيرة، وبلغني أن حدود أعمالها (٣٠٠) فرسخ وكان الغالب عليها (الشرارة)).

وياقوت وصفها لنا كما شاهدها وصفاً أسهب وأدل على مكانتها التجارية الكبرى فقال:

((صحار قسبة عمان مما يلي الجبل ( وتوأم: قصبتهما مما يلي الساحل): مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبنية بالأجر والساج، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها. وليس على بحر الصين (يريد فرض الجزيرة التي على بحر الهند) بلد أجل منه، عامر أهل، حسن طيب نزه، ذو يسار وتجار وفواكه، أجل من زبيد وصنعاء، وأسواق عجيبية وبلدة ظريفة ممتدة على البحر، دورهم من الأجر والساج، شاهقة نفيسة، ولهم آبار عذبة وقناة حلوة وهم في سعة من كل شيء. وهو دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومعونة اليمن. والمصلى وسط النخيل ومسجد صحار على نصف فرسخ، فتحها المسلمون أيام أبي بكر سنة (١٢) صلحاً)).

ونستطيع أن نفهم من هذا الوصف – وإن كان لعهد ياقوت- مدى الشأن التجاري الذي كانت تتمتع به صحار<sup>(١)</sup> في الجاهلية أيضاً. فقد كان بها تجارات واسعة تجلب

(١) أخبار مكة للأزرقي ص ١٣١.

ذيل – لهذه السوق يد كبرى على العلم ينعم بفضلها كل باحث شرقي أو غربي، لأنها كانت السبب المباشر في تزويدنا بأوسع معجم جغرافي تاريخي وهو (معجم البلدان) لياقوت رحمه الله، فقد جاء في مقدمة هذا المعجم ما نصه:

((وكان أول البواعث لجمع هذا الكتاب أني سئلت بمرور الشاهجان في سنة (٦١٥هـ) عن حياشة: اسم موضع جاء في الحديث النبوي وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية، فقلت: أرى أنه حياشة بضم الحاء قياساً على أصل هذه اللغة لأن الحياشة الجماعة من الناس من قبائل شتى، وحبشت له حياشة أي جمعت له شيئاً. فانبرى لي رجل من المحدثين وقال: إنما هو حياشة بالفتح، وصمم على ذلك وكابر، وجاهم بالعناد من غير حجة وناظر. فأردت قطع الاحتجاج بالنقل، إذ لا معول في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل، فاستقصيت كشفه في كتب غرائب الأحاديث ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بمرور يومئذ وكثرة وجودها في الوقوف وسهولة تناولها فلم أظفر به إلا بعد انقضاء ذلك الشغب والمراء، ويأس مع وجود بحث وامتراء، فكان موافقاً والحمد لله لما قلته، ومكيداً بالصاع الذي كلته. فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم لكتاب في هذا الشأن مضبوط، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ محوط. ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً، وإلى ضوء الصواب داعياً، وشرح صدرني لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الأولون ولم يهتد الغابرون.. الخ ماقال)).

(١) في فهرس الأماكن لكتاب (صفة جزيرة العرب): ((صحار في اليمن)) و((صحار في البحرين)) فهما صحاران إذن. إلا أن المشهورة هي صحار اليمن وهي التي نتكلم عليها هنا.

إلى مختلف أقطار الجزيرة العربية وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كُنْ بَثُوبِينَ صُحَارِيَّينَ.

تقيم العرب السوق العامة في صحار من عاشر رجب إلى الخامس عشر منه بعد انفضاض سوق حباشة. والظاهر أنها تمتد إلى ما بعد الخامس عشر من رجب، فإن من لم يشهد الأسواق التي كانت قبلها لشغله عنها أو لأنه لا أرب له فيما يباع بما قبلها من الأسواق، يوافيها فيجد فيها من البز المنشور وغيره من البياعات. وذكر المرزوقي<sup>(٢)</sup>:

((أنهم يقيمونها لعشرين يوماً من رجب)). ولا يناقض هذا ما قدمناه، لأن افتتاح السوق وانفضاضها لم يكن بساعة محتمة لا تقدم عنها ولا تأخر، بل إن من العرب من لا يكون حضر ما قبلها فيأتيها من أول رجب<sup>(٣)</sup>. ومنهم من يكون في حباشة أو غيرها فيوافيها متأخراً. وتبقى البيوع قائمة حتى ينتهي أصحابها منها.

وليست صحار من الأسواق العامة ولا من المواسم مثل عكاظ حتى يحرصوا عليها ذلك الحرص، وإنما هي سوق تجارية محضة لما حولها ولمن يقصدها، على أنها كثيراً ما يأتيها التاجر البعيد.

وقيام هذه السوق في رجب يغني قاصدها عن الحماية فيقدمها الناس غالباً بلا خفارة ولا حذر إلا من المحليين، لأن رجب شهر حرام. فهي من هذه الجهة تمتاز من الأسواق التي تقوم في غير الشهر الحرام مثل سوق المشقر وغيرها.

يعشر الناس في هذه السوق الجلندي بن المستكبر<sup>(٤)</sup>، وذكر الأزرقى أن بيعهم فيها بإلقاء الحجارة على ما تقدم في فصل البيوع كما هو الأمر في سوق دومة الجندل.

## سوق دبي

دبي<sup>(٥)</sup>، سوق ذكرها المرزوقي في جملة أسواق العرب. والظاهر أنها كانت قديماً ذات شأن إذ كانت قصبه عمان ثم اضمحل مركزها وزاحمتها صحار وصارت هي قصبه هذا القطر فمن ثم لم يكن لها من الشأن مثل ما لغيرها. وصفها صاحب مرصد الإطلاع بأنها سوق من أسواق العرب بعمان وأنها مدينة عظيمة مشهورة. قال ياقوت: ((دبي سوق من أسواق العرب بعمان وهي مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها وكانت قديماً قصبه عمان.

ولعل هذه السوق المذكورة كانت عندها. فتحها المسلمون أيام أبي بكر عنوة سنة ١١ للهجرة)).

\* \* \*

جعل المرزوقي تاريخ قيام هذه السوق بين سوقي صحار والشحر. ونستطيع أن نفهم شيئاً من خطرها التجاري إذا علمنا أنها من فرض العرب المشهورة، وأنه يكون

(٢) الأزمنة والأمكنة ١٦٣/٢.

(٣) نص صاحب المحبر (ص ٢٦٥) على أن زمنها في الليالي الخمس من أول رجب.

(٤) المحبر ص ٢٦٥.

(٥) وترسم بالألف.

فيها من لا يكون في غيرها من تجار السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب<sup>(١)</sup>، وتمتاز من غيرها بالبضائع الأجنبية التي يحملها التجار من بلادهم في البحر وتنفذ منها تجارات العرب إلى الخارج.

تقوم سوقها آخر يوم من رجب، ويشتري بها بضائع جزيرة العرب وبضائع الأقاليم. ومن البديهي أن البيع فيها لا يكون بإلقاء الحجارة ولا بالإيماء ولا بغيرها من البيوع الخاصة، لمكان الأجانب منها، بل هو بالمساومة<sup>(٢)</sup>، لأن السوق سوق مختلطة غير خالصة الصبغة.

ولا يباع فيها شيء حتى يبيع ملكها الجلندي بن المستكبر كل ما عنده، وهو الذي يعشر الناس فيها كما يفعل غيره من الملوك في غيرها من الأسواق.

### سوق الشحر

يطلق اسم الشحر على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب بين عدن وعمان، والشحر مأخوذ من مشحر الأرض وهو مسبخ الأرض ومنابت الحموض، وتشتمل على بلاد وأودية وقرى، والمراد بها هنا شحر مهرة وهي قصبته، وليس فيها زرع ونخيل، وإنما أموالهم الإبل ((وبها تُجَب من الإبل تفضل في السير سائر النجب<sup>(٣)</sup>)).

ونظراً لوقوعها في أقصى جنوب الجزيرة على بحر الهند ضربوا بها المثل في البعد فيقولون:

((لست بمعجز لنا ولو بلغت الشحر<sup>(٤)</sup>)) واختلاط أهلها بالنازلة من الحبشة والهند وفارس وغيرهم من التجار، مع ما في لسانهم من الفروق بينه وبين لغة الحجاز جعل أهلها غير فصحاء حتى قال الإصطخري: ((ألسنتهم مستعجمة جداً لا يكاد يوقف عليها)). وأرضهم في الجملة مقفرة، وعيش أهلها من الأنعام والتجارة والصيد.

اشتهرت منذ القديم بعنبرها الذي لا نظير له، فكل عنبر جيد إليها ينسب قال الثعالبي في (ثمار القلوب): ((عنبر الشحر يضرب به المثل قال الشاعر:

ولو كنت عطراً كنت من عنبر  
الشحر))

واللبان الذي يحمل إلى الآفاق منها يجلب.

\* \* \*

تقوم هذه السوق في النصف من شعبان بعد انفضاض سوق (دبي) ويقصدها من كان ثمة من تجار البر والبحر، والبضاعة الرائجة فيها البرز والأدم والكندر والمر والصبر والدخن<sup>(١)</sup>.

(١) المحبر ص ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٦.

(٣) مسالك الممالك للإصطخري.

(٤) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢١٣.

(١) الكندر: ضرب من العلك نافع لقطع البلغم، والمر دواء معروف نافع للسعال ولسع العقارب وديدان الأمعاء، والدخن: حب أصفر من حب الجاورس، أملس جداً بارد يابس حابس للطبع.

ولا يسير إليها قاصدها إلا بخفارة لبعدها وانقطاعها فلا غنى لتجار العرب عن خفارة يتخفرون بها، وكان يقوم أحياناً بهذه الخفارة أهل مهرة أنفسهم.

((ولم يكن بها عشور لأنها ليست بأرض مملكة وكانت التجار تتخفر ببني محارب من مهرة<sup>(٢)</sup>)) وفي هذه السوق بيوع كالتي تقدمت في سوق دومة الجندل من رمي الحصاة وإلقاء الحجارة<sup>(٢)</sup>. وموضع هذه السوق - على ما ذكر محمد بن حبيب - تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود عليه السلام<sup>(١)</sup>.

## سوق عدن أبين

قيل: إن هذه التسمية نسبة إلى أبين، وعدن بالمكان: أقام، فمن هنا قول من قال: إنها اشتقت من العدن لأن أبين، رجل من حمير أقام فيها. إلا أن صاحب تاج العروس قال: ((نقل شيخنا عن حواشي الكشف للفاضل اليمني وهو أعرف ببلاده: أبين اسم قسبة بينها وبين عدن ثمانية فراسخ، أضيفت إليها لأدنى ملابسة)).

وعدن مدينة ذات موقع جغرافي ممتاز، على بحر الهند إلى جنوبي مضيق باب المنذب نحو الشرق. فيها مرسى للسفن الواردة إلى آسية من البحر الأحمر، وبها كانت تمر مراكب الهند ومصر والحجاز والحبشة منذ القديم للحط والإقلاع، وهي في ذيل جبل ينتهي بسور إلى البحر ((رديئة الهواء لا ماء بها ولا مرعى، وشرب أهلها من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو يوم<sup>(١)</sup>)) والماء ينقل إليها على ظهور الدواب.

وأهم تجارات هذه السوق الطيب بأنواعه، ويجلب إليها الأدم والبرود من (معاقر) وتكثر فيها اللطائم، وبها مغاوص اللؤلؤ، بقيت على شأنها هذا حتى الإسلام، فازدهت في عهده تجارتها حتى ((أصبحت فرضة اليمن، ومقر كل فضل مستحسن)) وإن الطيب الذي يستعمله سائر الناس كان يتخذ بها، وصار لأهلها بصنعه مهارة فائقة، قال المرزوقي: ((وكان طيب الخلق جميعاً بها يعبأ، ولم يكن يحسن صنعه أحد من غير العرب، حتى إن تجار البحر لترجع بالطيب المعمول (بعدن) تفخر به في السند والهند، وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم. وإن الناس على ذلك (إلى اليوم) ما يحسن اليوم حمله إلا أهل الإسلام بعدن<sup>(٢)</sup>)).

كان العرب إذا ارتحلوا من الشحر بعد انفضاض سوقها نزلوا عدن، فأقاموا بها السوق مدة العشر الأول من رمضان، أما تجار البحر فإنهم يستغنون عن شهودها بما شهدوا من الأسواق قبلها، إلا من بقي من بيعه شيء لم ينفد بعد، أو فاته حضور ما قبلها، فإنه يشهدا مع الناس فيستدرك بها ما فاته من اتجار. ثم ينفذ الناس منها إلى رمضان من قابل.

وقاصد هذه السوق في غنى عن خفارة الناس لقيام حكومة منتظمة فيها، فإنها من مخاليف اليمن، لذلك لا يتخفر أحد فيها وتؤدي عشور هذه السوق إلى ملكها من حمير أو خلف حمير على ملكها. ولما صارت في حوزة الأبناء من فارس حين غلبوا على

(٢) المحبر ص ٢٦٦.

(١) ياقوت.

(٢) الأزمنة والأمكنة ١٦٣/٢.

اليمن كما امتد نفوذ مملكتهم على سواحل العرب الشرقية والجنوبية كلها، جعل الناس يؤدون العشور فيها إلى هؤلاء.

وذكر محمد بن حبيب أن ((الأبناء تعشرهم بها ولا تشتري في أسواقهم ولا تبيع))<sup>(١)</sup>.

ولعل حال الأخذ والعطاء في هذه السوق أنشط وأوسع، والتجارة فيها حرة أكثر، لأن من قام على أمور عدن من حمير أو من الفرس لم يكونوا يتاجرون لأنفسهم فيها كما يفعل أكيدر في دومة أو الجلندي في صُحار، فينحجز الناس عن عرض بضائعهم حتى يبيع الملك كل ما عنده من متاع، فكانت التجارة تحظى في هذه السوق بشيء من الانطلاق، لكف ملوكها عن مزاحمة الرعية على هذا المورد من الكسب.

### سوق صنعاء

كان<sup>(١)</sup> اسم صنعاء في القديم (أزال).. قيل سميت بصنعاء بن أزال بن يقطن بن عابر بن شالح، وهو الذي بناها.. فكانت تعرف بـ(أزال)، وتارة بـ(صنعاء). و(أزال) أول من بناها، ثم سميت باسم ابنه فغلب اسمه عليها<sup>(١)</sup>.

صنعاء أطيب بلاد اليمن، بل جنة جزيرة العرب كلها، هي مضرب الأمثال في طيب الهواء واعتداله وحسن العيش، قال ياقوت: صنعاء قسبة اليمن وأحسن بلادها تشبه بدمشق لكثرة فواكهها وتدفق مياهها، وليس بجميع اليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلاً من صنعاء. وهي من الاعتدال في الهواء بحيث لا يتحول الإنسان من مكان طول عمره صيفاً ولا شتاء، وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف، وغاية ساعات النهار بها اثنتا عشرة ساعة وإحدى وخمسون دقيقة<sup>(٢)</sup>. طيبة الهواء كثيرة الماء، قدم يزيد بن الصعق صنعاء ورأى أهلها وما فيها من العجائب، فلما انصرف قيل له: كيف رأيت صنعاء؟ فقال:

ومن ير صنعاءَ الجنودَ وحنودَ حمير قاطنين،  
يعلم بأن العيش قسم بينهم جلبوا الصفاء فأنهلوا، ما  
ويرى مقامات عليها بهجة يأرجن هنديةً ومسكاً أذفراً))

وليس من الغريب أن نسمع يمينياً كالهمداني يشيد بذكرها فيقول:

((هي إحدى جنان الأرض عند كافة الناس<sup>(٣)</sup>) فقد حيرت بحسنها وكثرة أشجارها ومياهها ومروجها وأنهارها وطيب أوديتها غيره فدهش أول ما رآها وملكه

(١) المحبر ص ٢٦٦.

(١) معجم البلدان للياقوت (مادة أزال، وصنعاء).

جاء في الفهرست لابن النديم: ((كان في خزنة المأمون كتاب عبد المطلب بن هاشم في جلد آدم، فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل (أزال صنعاء)، عليه ألف درهم كيلاً بالحديده، ومتى دعاه بها أجابه. شهد الله والملك)).

(٢) الإكليل ١٢/٨.

(٣) الإكليل ١٢/٨.



الإعجاب<sup>(٤)</sup>: ((قال أحمد بن موسى وهو من الشعراء المتأخرين حين رفع إلى صنعاء وصار إلى نقيل السود(على مقربة منها):

إذا طلعتنا (نقيل السود) لاح لنا  
يا حبذا أنت يا صنعاء من بلد  
من أفق صنعاء مصطاف ومرتبغ  
وحبذا واديك الظهر والضلع<sup>(٥)</sup>))

بقيت صنعاء<sup>(١)</sup> دار سلطنة وإمارة حتى يومنا هذا . وقد كان بها مقر ملوك اليمن قديماً، وفيها قصر غمدان، وهو بناء شاهق على تل عظيم، اتخذه أقيال اليمن وليس في اليمن جميعه بناء أرفع منه.

((ويكون سوق صنعاء في واديها، قيل هو وادي عليب، وقيل هو أصل جبل نُقم مما يلي قبليته، وقيل غدير الحقل<sup>(٢)</sup>)).

كان العرب إذا ارتحلوا من الشحر وعدن أقاموا سوق صنعاء فاستمرت من نصف شهر رمضان حتى آخره. يأتونها ((بالقطن والزعفران والأصباغ وأشباهاها مما ينفق بها ويشترون فيها ما يريدون من البز والحريز<sup>(٣)</sup>) وكان أروج تجارتها الغالية والأدم والبرود وكان هذان الصنفان الأخيران يجلبان إليها أيضاً من معافر إحدى قرى اليمن فتباع فيها وتصدر إلى الأقطار، وكذلك يجلب منها من الخرز شيء كثير. كان بيعهم فيها الجس جس اليد<sup>(٤)</sup>، وكان يعشر الناس فيها الأبناء<sup>(٥)</sup> بعد أن كان يعشرهم أمراؤهم من حمير.

## سوق حضرموت

حضرموت إقليم واسع يشتمل على بلاد وقرى ومياه وجبال وأودية باليمن، يكون إلى جنوبه الشحر، وإلى شرقه عمان وإلى غربه صنعاء. قريب من البحر وفيه رمال

<sup>(٤)</sup> ومن الطريف أن يذكر ياقوت أيضاً أن صنعاء اسم لقرية على باب دمشق دون المزة مقابل مسجد خاتون، خربت وهي اليوم مزرعة وبساتين. وفي هذا دلالة على أن العرب مولعون بذكر ديارهم وأوطانهم أينما حلوا، هم على الوفاء لعهدا تحت كل سماء، وإطلاقهم صنعاء على هذه القرية الخربة لعهد ياقوت، كإطلاقهم في بلاد الأندلس وجناتها أسماء حمص ودمشق...

<sup>(٥)</sup> تاج العروس.  
<sup>(١)</sup> نعتها الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) نعتاً جليلاً حوى معارف قيمة جداً عن هذه البلدة العظيمة، وانظر على سبيل المثال ما ذكره عن ضرورب فواكهها فإنها في هذا فاقت دمشق نفسها قال ص ١٩٦:

((جميع الثمار بها من العنب الملاحى والدوالي والأشهب والذريج والنواصي والزيادي والأطراف والعيون والقوارير والجُرشي والنشاني والتابكي والرازي والضرورع. ويؤتى إليها من خيوان بالرومي، ومن الجوف بالوادي. وبها الرمان الحلو والحامض والممزوج والمليس والسفرجل، وليس يلحق به سفرجل البلاد لأن فيه شيئاً من الحموضة والقبض، والإجاص والمشمش والتفاح الحلو والتفاح الحامض والممزوج. والخوخ الحميري والخوخ الفارسي والخوخ الهندي والجوز الفرك واللوز الفرك، والحلو منه والمر والكمثري وقد وفد إلى صنعاء قديمة. وبها الورد والباقلاء الأخضر ولا يتركونه يبلغ، وجميع أصناف البقول وجميع الحبوب...)). وكثير أن يكون ببلدة واحدة أربعة عشر صنفاً من العنب وحدة. وقد أفاض الهمداني بعد هذا بتفصيل مستفيض عن طعامها وألوانه وعن خبزها بما هو غاية في الطرافة والخطر فليرجع إليه ثمة. ولو أن كل قطر عربي حظي بباحث كالهمداني لما كنا اليوم في معارفنا عن بلادنا في ظمأ وغلة لا نجد لهما أدنى ري.

<sup>(٢)</sup> تاج العروس . وكان بدل(جبل نقم) في الطبعة الأولى من كتابنا (جبل نعيم) فكتب إلينا الأستاذ (كرنكو) أن الصواب: جبل نقم بضم النون والقاف وهو الجبل المطل على صنعاء واسمه كذلك إلى يومنا هذا. ١ هـ

<sup>(٣)</sup> الأزمنة والأمكنة ٢/١٦٤، والمحبر ص ٢٦٦.

<sup>(٤)</sup> الأزمنة والأمكنة ٢/١٦٤، والمحبر ص ٢٦٦.

<sup>(٥)</sup> اليعقوبي، والمحبر ص ٢٦٦.

واسعة كثيرة تعرف بالأحقاف، وهذا الصقع كثير الجبال والأودية وهو في جملته قاحل، والبلد نفسها صغيرة ضئيلة الشأن، راسل أهلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلوا في طاعته صلحاً، وقدم عليه الأشعث بن قيس في بضعة عشر ركباً مسلماً في وفد فأكرمه الرسول<sup>(١)</sup>.

وأغلب قوت أهلها التمر، لأن بها نخلاً كثيراً، وقد كشفت الحفريات الآن في هذا القطر عن مدن خربة عليها كتابات بالخط المسند، مما يدل أن لسكانه في القديم شأنًا يذكر.

يتخذ بها نعال جيدة ذات شهرة وتنسب إليها فيقال: نعل حضرمية، وهي الملسنة من النعال.

\* \* \*

تقوم السوق في رابية بحضرموت فتعرف أيضاً بسوق الرابية، من منتصف ذي القعدة حتى آخره، وربما قامت هي وعكاظ في يوم واحد، فكان بعض الناس يأخذ إلى عكاظ وبعضهم يتوجه إلى رابية حضرموت، وهذه السوق خاصة بمن حولها، ولكن كثيراً ما يأتيها الناس من بعيد، ولقريش قوافل إلى هذه السوق ترسلها في تجارتها، وكثير من العرب يجوزها إلى غيرها ولا يحضرها، ونظراً لانقطاعها عما حولها لم يستغن قاصدها عن دليل وخفير قال المرزوقي:

((أما الرابية فلم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة، لأنها لم تكن أرض مملكة، وكان من عز فيها بزّ صاحبه، فكانت قریش تتخفر بيني أكل المرار من كندة، وسائر الناس (يتخفرون) بال مسروق ابن وائل الحضرمي، فكانت مكرمة لأهل البيتين، وفضل أحدهما على الآخر كفضل قریش على سائر الناس<sup>(١)</sup>)).

فيستفيد هذان الحيان من الخفارة والدلالة معاً ربحاً مادياً، إذ كان كسبهم من أولئك التجار الذين يمشون بين أيديهم بسلاحهم يحرسون بضائعهم ويحمون حياتهم ويدلونهم على الطريق.

## سوق عكاظ

عكاظ<sup>(٢)</sup> هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية، معرض بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا نحن أبناء هذا العصر: فهي مجمع أدبي لغوي رسمي، له محكمون تضرب عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم، فما استجادوه فهو الجيد، وما بهرجوه فهو الزائف. وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادهما، وتلهج بها الألسن في البوادي والحواضر. يحمل

(١) ياقوت، وقد اهتم بعض القدامى من المؤلفين بما حظيت به من كثرة الأولياء، ورأوا في تسجيل ذلك عوضاً مما فاتها من خصب وسعة فقال القزويني في عجائب المخلوقات: "نقل شيخنا عن تفسير أبي الحسن البكري في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: ١٩/٧١]: يستثنى من ذلك أهل حضرموت لأنهم أهل ضنك وشدّة، وهي تنبت الأولياء كما تنبت البقل، وأهلها أهل رياضة.

(٢) الأزمنة والأمكنة ١٦٥/٢، والمحبر ص ٢٦٧.

(٣) ورد في (عكاظ) الصرف وعدمه. وقد جرينا على منعه لأننا رأينا المنع هو الأكثر فيها والأشهر.

إلى هذه السوق النهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليمامي واليماني والعماني، كل ألفاظ حيّة ولغة قطره، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلاً واصطفاءً حتى يتبقى الأنسب الأرشق ويطرح المجوّ الثقيل.

وهي السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة ، يحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعاته كما يحمل إليها أدبه، فإليها يجلب الخمر من هجر العراق وغزة وبصرى، والسمن من البوادي، ويرد إليها من اليمن البرود الموشاة والأدم، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح.

ويباع فيها الحرير والوكاء والحذاء والمسيرّ والعدني، يحملها إليها التجار من معادنّها، وفيها من زيوت الشام وزبيبيها وسلاحها ما اعتادت قريش أن تحمله في ققولها إلى مكة. ويعرض فيها كثير من الرقيق الذي ينشأ عن الغزو وسبي الذراري فيباع فيها بيع المتاع التجاري<sup>(٣)</sup>.

ويبيع فيها كل غاز سلبه، وكثيراً ما يكون هذا البيع سبباً في قتل صاحبه إذا أبصر السلاح أحد من ذوي المقتول فعرفه، فإنه يضمها في نفسه وينتظر أن يظفر بالرجل ليثأر منه.

وقد كانت تجارة فارس يصل منها أشياء إلى عكاظ: فإن النعمان ابن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ كل عام لطيمة (وهي في الأصل العير المحملة مسكاً) في جوار رجل شريف من أشرف العرب يجيرها له ويحميها من كل معتد حتى تصل سالمة إلى عكاظ فتباع هناك ويشترى بثمنها ما يحتاج إليه من أدم (جلود) الطائف وسائر المتاع في عكاظ: من حرير وعصب مسيرّ، وبيعت فيها حلة ذي يزن فاشتراها حكيم بن حزام ليهدئها رسول الله<sup>(١)</sup>، بل إن عكاظ نفسها مشهورة بما يعرض فيها من جلود حتى قالوا: ((أديم عكاظي)) نسبة إليها.

حتى البضائع المجهولة الأصل المعروضة في عكاظ تجد من شرائع القوم وأعرافهم التي التزموها ما يجعلها كاسدة لا يرغب فيها أحد، فهذا بعض لصوص العرب ((قربّ إبلاً للبيع في سوق عكاظ وكان أغار عليها من كل وجه، فلما عرضها قيل له : ((ما نارك؟)) (أي ما سمة إبلك؟) وكانوا يعرفون علامة كل قوم التي يسمون إبلهم بها ويعرفون كرمها من لؤمها)، فلما كثر ذلك عليه أنشأ يقول:

يسألني الباعة أين نارها      إذ زعزعتها فسمت أبصارها  
كل نجار إبل نجارها      وكل نار العالمين نارها<sup>(٢)</sup>

(٣) من ذلك أم عمرو بن العاص ، فقد كانت سبية بيعت في عكاظ، عرفنا أمرها في خبر طريف يقصه ابن عبد ربه، ((خاطر رجل إلى أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول: ((أيها الأمير، من أمك؟)) ففعل، فقال له : ((النايعة بنت عبد الله: أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل، فولدت فأنجبت ، فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذها!))، العقد الفريد ٦٣/١ (سنة ١٩٤٠).

(١) انظر تفصيل هذا الخبر في تهذيب تاريخ ابن عساكر ص ٤١٤ - ٤١٥.

(٢) ويروي البيهقي هكذا:

يسألني الباعة ما نجارها      إن زعزعوها فسمت أبصارها

فكل دار لأناس دارها      وكل نار العالمين نارها

بلوغ الأرب ١٦٣/٢.

وهي معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية: فها هنا (قس بن ساعدة) يخطب الناس، يذكر الخالق ويعظمهم بمن كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير<sup>(٣)</sup>. وهناك خالد بن أرطاة الكلبي تتبعه قبيلته وقد جاء لينافر جرير بن عبد الله البجلي ومع هذا حية أيضاً وقد ساق كل منهما مالا عظيماً ينافر عليه، وعرضا الحكومة على رجالات قريش فأبوا أن يحكموا خوف الفتنة بين الحيين، فالرجلان في عكاظ ينتظران الأقرع بن حابس ليقوم بهذه الحكومة وقد ساقا الرهن فوضعوها عند عتبة بن ربيعة<sup>(٤)</sup> دون جميع من شهد على ذلك المشهد، وها هنا عمر بن الخطاب في الجاهلية يصارع<sup>(٥)</sup>، وثمة كاهن عراف وعائف وقائف، وقرد، وغنم، وصحيفة وكاتب.

وهناك أناس من غواة الشهرة: هذا يمد رجله وينشد شعراً ويقول: ((من كان أعز العرب فليقطع رجلي)) وآخر يأتي عكاظ ببناته ترويحاً لزواجهن، وأناس قدموها ليختاروا من يتزوجون إليه. قال المرزوقي:

((كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب: كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد، والحلة الحسنة، والمركوب الفاره، فيقف بها وينادي عليه: ((ليأخذه أعز العرب)) يريد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته)).

وكان كسرى يبعث في ذلك الزمان بالسيف القاطع والفرس الرائع والحلة الفاخرة فتعرض في تلك السوق وينادي مناديه: ((إن هذا بعثه الملك إلى سيد العرب)) فلا يأخذه إلا من أذعنت له العرب جميعاً بالسؤدد، فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية، وكان كسرى يريد بذلك معرفة ساداتهم ليعتمد عليهم في أمور العرب فيكونوا عوناً له على إغزاز ملكه وحمايته من العرب..<sup>(١)</sup>

وهي أيضاً ندوة سياسية عامة، تقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل: فمن كانت له إتاوة على قبيلة نزل عكاظ فجاءوه بها، ومن أراد تخليد نصر لحيه فعل فعل عمرو بن كلثوم فرحل إلى عكاظ وخلده فيها شعراً، ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك في عكاظ حتى يسمع عامة الناس، ومن أراد إعلان حرب على قوم أعلنه في عكاظ، حتى (جمعية الأمم) أو (هيئة الأمم المتحدة) وما قامتا به من مجهود (رسمي) في سبيل السلم الخاص، كان لها صورة مصغرة تشبهها بحسب الظاهر (لا في الحقيقة، لأن عكاظ لم تكن ترائي فتستغل الدعاية الشريفة لتسيغ للقوي أكل الضعيف)، فقد روى الأصفهاني أنه: ((اجتمع ناس من العرب بعكاظ منهم قررة بن هبيرة القشيري والمخبل وهو في جوار قررة، في سنين تتابعت على الناس فتواعدوا وتوافقوا ألا

(٣) زعم أحد الكتاب أنه كان بعكاظ (أسقفية) للنصارى- انظر مجلة المشرق (السنة ٣٥) ص ٨٤.

(٤) انظر تفصيل ذلك في رسائل الجاحظ ص ١٠٢ (جمع السندوبي)، وبلوغ الأرب ١/٣٠١-٣٠٥ وغيرهما.

((ومما افتخر به بنو أمية على بني العباس:

قالوا: ولنا عتبة بن ربيعة، ساد مملقاً ولا يكون السيد إلا مترقاً، لولا ما رأوا عنده من البراعة والنبيل والكمال. وهو الذي تحاكت [إليه] بجيلة وكتب في منافرة جرير والفرافصة وتراهنوا بسوق عكاظ [و] وضعوا الرهن على

يده، دون جميع من شهد على هذا المشهد...)).

(٥) طبقات ابن سعد ٢٣٥/١.

(١) مثير العزم الساكن في فضائل البقاع والأماكن لابن الجوزي، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية (أدب ٤٦) الكراس الخامس عشر.

يتغاوروا حتى يخصب الناس!)<sup>(١)</sup> ولا يخفي علينا أنه كانت تكون في عكاظ ((وقائع مرة بعد مرة))<sup>(٢)</sup>.

وكانت هذه السوق تقوم من العرب يومئذ مقام الجريدة الرسمية في أيامنا هذه ، وقد تقدم آنفاً شيء من ذلك في أمر الجوار وأخبار الحروب. فمن أتى عملاً شائناً تأباه مروءة العربي شهروا أمره بعكاظ ونصبوا له راية غدر<sup>(٣)</sup>، فعرفوه فلعنوه واجتنبوه، ومن أراد أن يستلحق أمراً بنسبة استلحقه وأعلن ذلك للناس في عكاظ، ومن أراد التبرؤ من قريب لسبب ما، تبرأ منه علناً ، فإذا أتى بعد ذلك جريمة أو خيانة كان المتبرئ- في عرف العرب يومئذ- في حل مما أتى قريبة: ذكروا ((أن قيس ابن الحدادية من شعراء الجاهلية، كان شجاعاً فاتكاً صلوكاً خليعاً، وقد جر على قومه خزاعة عنثاً وإرهاقاً كبيراً، فخلعه خزاعة بسوق عكاظ، وأشهدت على نفسها بخلعها إياه فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه))<sup>(٤)</sup>.

وإذا أطلق لقب على أحد في عكاظ عرف صاحبه به، وجرى له مجرى اسمه واسم أبيه : قاتل أبو ربيعة بن المغيرة من قريش يوم شرب (وهو من أيام عكاظ) برمحين فسمي ذا الرمحين وبه يعرف، وثبت في هذه الحروب من قريش أولاد أمية بن عبد شمس الستة وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو فسموا (العنابس) والعنيس الأسد<sup>(٥)</sup>. وأمثال ذلك.

وغني عن البيان أيضاً ما يدخره الصغار الذين يصطحبهم أهلهم إلى عكاظ من ذكريات عن تلك السوق لا تنسى ، هذه خولة بنت ثعلبة<sup>(٦)</sup> تستوقف عمر بن الخطاب في خلافته فيقف لها فتقول : ((إيه يا عمر، عهدتك الأيام حتى سميت عمر، ولم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين!))<sup>(٧)</sup> وخير ما يعطينا صورة واضحة عن عكاظ أن نعرض لأهم الأحداث التي جرت فيها، فنتمثل بوساطتها أحوال العرب في هذه السوق الكبرى، في بيعهم وشرائهم وتخاصمهم وتفاجرهم وحربهم وسلمهم، فإن في ذلك تفصيل ما أجملت<sup>(٨)</sup>.

(١) الأغاني ٣٧/١٤.

(٢) بلوغ الأرب ٣٦٨/١.

(٣) لم يقتصر هذا على عكاظ، بل نجد نحواً منه في عامة المواسم ولاسيما مواسم الحج، فإذا غدر الرجل بجاره أوفدوا النار بمنى أيام الحج على أحد الأخشيين ثم صاحوا: هذه غدره فلان ليحذره الناس، بلوغ الأرب ١٦٢/٢ وهدد زهير بن أبي سلمى بني عبد الله بن غطفان إن لم ينصفوا بقوله:

وتوقد ناركم شرراً ويرفع

العقد الثمين ص ٣١

(٤) الأغاني ٢٠/١٢.

(٥) القاموس مادة (عنيس).

(٦) التي سمع الله كلامها من فوق سبع سماوات وأنزل فيها إله قد سمع الله قول التي تُجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله} [المجادلة: ١/٥٨] انظر خبرها في كتابي (الإسلام والمرأة) ص ٣٩.

(٧) اجتماع الحيوش الإسلامية لابن قيم الجوزية ص ٦٨.

(٨) هذه الأخبار مبنوثة في بطون الأسفار، وقد لقيت في جمعها وتبويبها من المصابرة والعناء نصيباً غير يسير، فإنه ليس لدينا تفصيل جلي عن عكاظ مجموع في موطن واحد، وأوسع فصل عنها هو ما ذكره الألويسي رحمه الله في بلوغ الأرب، ويكاد يقتصر هذا الفصل على ذكر حروب عكاظ وتنفق تتعلق بالمفاخرة وهو شيء لا ينفع غلة، ولا يكاد يرسم الخطوط الأولى للصورة. ونحن نعلم أن الكلمة والكلمتين والثلاث، والسطر والسطرين.. مما يكون عرضاً في خبر من الأخبار، قد يكون له من البلاء الحسن في الكشف عن الحقائق والدلالة على العادات، مالا يكون للفصل المطول تفرؤه في موضوع واحد.

وأشد ما يثير الاستغراب، هذا الشبه الكبير بين عكاظ ومعارض هذا العصر، بل إن عكاظ لأوسع مدى فيما يعرض، فإنه لا يقتصر على مواد التجارة والصناعة، بل يتعداهما إلى الأدب والشعر والحرب والسلم والعادات... فإذا أنا أفضت في وصف عكاظ وما فيها، فإن ذلك إفاضة في وصف سائر أسواق العرب أيضاً، فليس فيهن سوق تساميهما، وما جرى في عكاظ جرى قريب منه في بقية الأسواق مع مراعاة صغر هذه واقتصارها أحياناً على أهل ناحية واحدة، فليكن تاريخ عكاظ إذن تاريخاً لكل أسواق العرب، وتاريخاً لكثير من عاداتهم الاجتماعية أيضاً.

\* \* \*

عكاظ نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق، هذا زبدة ما يستخلص من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ<sup>(٤)</sup> تقوم السوق في مكان منه يعرف بالأثدياء فيه مياه ونخل، وهو مستو لا علم فيه ولا جبل إلا ما كان من الأنصاب التي كانت لأهل الجاهلية، وبها من دماء البدن كالأرحاء العظام<sup>(٥)</sup>. كانوا يطوفون حول صخور فيها، وربما كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد ذكروا أنهم كانوا يحجون إليها. وبالأثدياء كانت أيام الفجار.

والظاهر أن ما يطلق عليه (عكاظ) من الأرض متسع فسيح فيه حرار وفيه أرضون مسقية ذات نخيل. وقد مر في حروب الفجار أن (شرباً) من عكاظ، وأن

(٤) من حسن الحظ أن ذهب فتحري موضعها بنفسه باحث عربي فوصفه لنا. وهو السيد خير الدين الزركلي الشاعر في كتابه (ما رأيت وما سمعت) ص ٧٩ قال: ((على مرحلتين من مكة للذاهب إلى الطائف في طريق السيل، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين، فيسير نحو نصف الساعة فإذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها (القانس- بالكاف المعقودة) وهي موضع سوق عكاظ... وهذه الباحة هي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن... والواقف فيها يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدمة (بكسر ففتح) والآخر البهيتة (بصيغة التصغير) وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل إلى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل.. وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون: إن عكاظاً كان في مكان يعرف اليوم باسم (القهاوي) في وادي لية من الطائف. غير أن الشيوع يؤيد ما قلناه أنفاً من أنه هو (القانس) نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار)).

هذا وقد نشر الدكتور محمد حسين هيكل كتابه (في منزل الوحي) بعد صدور الطبعة الأولى من كتابنا هذا بنحو سنة، فإذا فيه بحث عن عكاظ وقد رجح المؤلف أن موضعها جنوب الطائف مستنداً إلى قول (ابن رسته) في الأعلام النفيسة وإلى أن (مولر) رسم خريطة الإدريسي الغامضة وحل ألغازها فكانت عكاظ جنوب شرقي الطائف، أما قول ابن رسته فليس فيه تصريح بذلك وأما حل مولر ألغاز خريطة الإدريسي فلن يقف بحال لما تضافر عليه باحثو العرب قدماءهم ومحدثوهم، وخريطة الإدريسي نفسها حافلة بالأغلاط، ثم ينقل عن المستر فليبي رأيه في أن عكاظ في مكان السيل الصغير ص (٣٨٠)، وقد مضى المؤلف بالسيارة إلى حيث قيل له ورجح أن السوق كانت في موضع السيل الكبير ص ٣٨١. وخلو مصادر الدكتور هيكل من (أسواق العرب) دليل على أن هديتنا إليه لم تصله وقد أرسلناها إليه بعنوان (مجلة السياسية الأسبوعية) قبل صدور كتابه (في منزل الوحي) بعشرة أشهر. وكان الظن بمثله أن يطلع على الكتاب وقد كتب عنه في المجلات العلمية قبل طبع بحثه المذكور.

وفي شهر رمضان ١٣٧٠ هـ (تموز ١٩٥١ م) أي بعد صدور الطبعة الأولى من (أسواق العرب) بدءاً سنة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ص ٢٦/٣٧٧) محاولة للسيد حمد الجاسر في تحديد السوق فإذا به يجعلها شرقي الطائف أي لا على طريق القاصد من مكة إلى الطائف (في نحو ثلثي الطريق) على ما في تعاريف القدماء. ومع ما بذل من جهد فإن النفس لا تظمن إلى مذهبه مع اعترافه بأن أغلب الأعلام التي كانت حول عكاظ لا تعرف اليوم. ومع هذا فقد يوفق باحث في المستقبل إلى الصواب المقنع.

ولما زرت الطائف بعد أيام الحج سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) حرصت أن أرجع بما يشفي النفس وتفرجت على المسيل الذي وصفوه، وسألت العارفين وخرجت بصحبة وجيه الطائف السيد محمد صالح نصيف وعرفت منه أن الذي استقر عليه رأي الباحث المرحوم السيد رشدي ملحس وابن بليهد وسمو الأمير فيصل في عكاظ: أنها منتقلة على أرض تمتد من جنوبي العشييرة إلى المسيل الصغير و(الحاوية).

وأظهر جهداً يبذلها الأفاضل العارفون من أهل تلك الناحية موصل إلى الكشف عن موضع عكاظ بما يزيل كل ريب إن شاء الله.

(٥) معجم ما استعجم للبكري ٦٦٠ ومراصد الإطلاع وياقوت.

(العبلاء) إلى جنب عكاظ، وأن (شمطة) موضع في عكاظ وأن (الْحُرَيْرَة) حرة إلى جانب عكاظ مما يلي مهب جنوبها، وعرفت أن بني نصر صبروا مع ثقيف لأن عكاظ بلدهم وذلك الذي أحماهم.

ولا شك أن أرضاً اتسعت بعض أجزائها لمعارك عدة أرض فسيحة واسعة، وبذلك نفهم كيف كانت السوق تنتقل في عكاظ فلا تلازم بقعة واحدة لا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً على مدى السنين المتطاولة.

وهي وما جاورها ديار قيس عيلان وهوازن منهم خاصة.

وقد عرفت من حرب الفجار ص ١٧٠ أن قریشاً بادرت من عكاظ مسرعة إلى الحرم خوفاً من هذه القبائل بعد قتل البراض، إذ كانت عكاظ في ديارهم، وهم بها أكثر ما يكونون منعة وعدداً.

أما اشتقاق عكاظ ولم سميت بهذا الاسم، فقد ذهب اللغويون فيه مذاهب، وقلبوا الكلمة على معانيها المختلفة: فالقهر والحبس وردّ الفخر والتجادل والتجاج... كل هذه معان للعكظ وكلها صالحة لأن يعلل بها التسمية فيقول قوم: سميت عكاظ لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة أي يقهره ويعركه، وقال آخرون إنها من تعكظ القوم إذا تحبسوا لينظروا في أمورهم، وذهب غيرهم إلى أنها من التعاكظ بمعنى التفاخر.

تقوم هذه السوق في ذي القعدة، وللعلماء بعدُ خلاف في تعيين أيامها من هذا الشهر، فالمرزوقي يجعلها تبدأ من نصفه حتى آخره، وآخرون يجعلون وقتها في شوال<sup>(٣)</sup> إلا أن الأكثرين على أنها تبدأ من أول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه، إذ تبدأ سوق مجنة فيرتحل إليها الناس وهي أقرب من مكة فإذا أهل ذو الحجة انقشع الناس من مجنة إلى ذي المجاز قرب عرفة وبقوا فيها حتى يوم التروية فيبدأ الحج.

ويمكن جمع الأقوال المتقدمة بأن عكاظ قد تحفل بالناس في شوال، ويتم تقاطرهم إليها في ذي القعدة: الزمن الرسمي للسوق. وحين تذهب جماعاتهم إلى مجنة في العشرين من ذي القعدة يتخلف كثير ممن لم يكن أنهى بيعه وشراؤه فلا يتم خلوّ السوق تماماً إلا في غرة ذي الحجة عند اقتراب الحج<sup>(١)</sup>.

والسوق لقيس بن عيلان وثقيف وهي بمعكد هوازن، وأرضها لنصر، حتى لقد منعت هوازن قریشاً مرة من حضور عكاظ، فقد روى الهمداني أنه لما طرد عبد الله بن جدعان القرشي مئة ناقة لكلاب ابن ربيعة من هوازن، أرسل هذا إلى قریش: ((إن سفيهم أغار عليّ فطردنا<sup>(٢)</sup> مئة ناقة، فليس لكم أن تشهدوا عكاظ، ولي عليكم ترة، وكان عكاظ في وسط أرض قيس عيلان<sup>(٣)</sup>)) ونوت قریش قتل ابن جدعان لعدم استغنائها عن حضور السوق.

(٣) ذكره صاحب مرصد الإطلاع وياقوت في إحدى روايته.

(١) هناك من نقل: أن لعكاظ غير تلك السوق السنوية التي تجتمع بها القبائل، لها أيضاً سوق أسبوعية تقوم كل يوم أحد للبيع والشراء. انظر (مدنية العرب في الجاهلية والإسلام) لرشدي ص ٥٩.

(٢) كذا ولعلها (طرد لي).

(٣) الإكليل ١٨٤/٨.

ينزل السوق ((قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحابيش وعضل والمصطلق وطوائف من أفناء العرب<sup>(٤)</sup>)) يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان والشحر واليمن وسائر أطراف الجزيرة.

فهي عامة حتى إنه ليس فيها مگاس ولا عشار، لأنه لم تكن في ملك أحد من الأمراء. وقربها من مكة ومشاعر الحج ألبسها حرمة تنقص دونها مطامع الكبراء، ولعل من أهم ميزاتها صفتها العامة هذه، أما الفصل بين الناس فيها فزعم المرزوقي ((أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان في بني تميم يكون ذلك في أفخاذهم : الموسم على حدة، وعكاظ على حدة، وكان من اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدواني وسعد بن زيد مائة من تميم، وقد فخر المخبل بذلك في شعره فقال :

ليالي سعد في عكاظ يسوقها له كل شرق من عكاظ ومغرب

ثم وليه (فلان وفلان...) حتى جاء الإسلام فكان يقضي بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، وكان أبوه قاضيها في الجاهلية، فمات فصار ذلك ميراثاً لهم، وكان آخر من قضى منهم ووصل إلى الإسلام الأقرع بن حابس)).

وكان الناس ينزلونها منحازين على مداعيمهم وراياتهم في المنازل، تضبط أمور كل قبيلة أشرافها وقادتها. ويختلط بعض الناس في بعض إذا هبطوا بطن السوق للبيع والشراء.

تقيم العرب هؤلاء الأيام في عكاظ يتهبؤون للحج ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتقارعون ويتنافرون ويتعاضمون<sup>(٥)</sup>.

ولم يكن مجمع للعرب أحفل من عكاظ، فكانون يضربون بكثرة أهلها المثل، وبقيت لها هذه الشهرة بعد الإسلام، فقد جاء في الأمالي: أن عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب لما سئل عن قتله علياً قال : ((ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلتهم<sup>(١)</sup>)).

وكما كان يقوم بأمر الحكومة عامة فيها بنو تميم<sup>(٢)</sup>. كانت الحكومة في الشعر للنابغة الذبياني.

لا عاشر لهذه السوق، وأما بيعهم فيها فهو السراء وجس اليد<sup>(٣)</sup>. وإليك الآن مُثلاً مما كان في عكاظ سياسة ومنافرة وفداء أسرى، وأدباً وحرماً ومتاجرة:

## ١ - منافرة

(٤) الأزرقى ١٣١.  
(٥) المفخرة أن يتحاكم اثنان في : أيهما أبواه أكثر مفاخرة. والمنافرة أن يتحاكما في : أيهما أعز نفرأ من صاحبه. والمعظمة أن يتحاكما في : أيهما أعظم مصيبة. والمقارعة شبيهة بالمنافرة. هذا وقد يكتفي المتنافران بالحكم مجرداً وقد يجعلان بينهما جعلاً للذي حكم له بالغلبة، إبلاً أو جارية أو مالاً...  
(١) ٢٥٦/٢.

(٢) انظر كتاب (المحبر) ص ١٨٢.

(٣) انظر فصل (بيوع الجاهلية) من هذا الكتاب ص ٤٦.



اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ، وقدم أمية بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر. فقالت أم كلاب امرأة أمية:

((من هذان الرجلان؟)) فقال : ((هذا يزيد بن عبد المدان، وهذا عامر بن الطفيل)). فقالت : ((أعرف بني الديان، ولا أعرف عامراً. فقال: ((هل سمعت بملاعب الأسنة؟)) فقالت: ((نعم)) قال: ((فهذا ابن أخيه)) واقبل يزيد يفاخر خصمه فقال: ((يا أمية إن ابن الديان صاحب الكتبية ورئيس مذبح ومكلم العُقَاب، ومن كان يصوب أصابعه فتنتطف دماً، ويدلك راحتيه فتخرجان ذهباً)).

فقال أمية: بخ بخ! مرعى ولا كالسعدان<sup>(٤)</sup> (فأرسلها مثلاً):

فقال يزيد: يا عامر! هل تعلم شاعراً من قومي سار بمدحة إلى رجل من قومك؟  
قال : اللهم لا .

قال: فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي؟

قال: اللهم نعم.

قال: فهل لكم نجمٌ يمان أو برد يمان أو سيف يمان أو ركن يمان.

قال: لا

قال : فهل ملكناكم ولم تملكونا؟

قال: نعم

فنهض يزيد وأنشأ يقول مخاطباً أبا البنت

أمي بابن الأسكر بن لا تجعلن هوازناً كمدحج  
مُدلج

إنك إن تلهج بأمر تلجج ما النبع في مغرسه  
كالعوسج

ولا الصريح المحض كالمزج

فزوج أمية يزيد بن عبد المدان ابنته. ثم لجج التهاجي بين الرجلين.

## ٢- في سبيل بغية

وافى معاوية بن عمرو بن الشريد، عكاظ في موسم من مواسم العرب، فبينما هو يمشي بسوق عكاظ إذ لقي أسماء المريّة، وكانت جميلة، وزعم أنها كانت بغياً فدعاها إلى نفسه فامتنعت عليه وقالت: ((أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة؟)) فأحفظته فقال: ((أما والله لأقارعه عنك)). قالت: ((شأنك وشأنه)).

<sup>(٤)</sup> في مجمع الأمثال للميداني ((السعدان أكثر العشب لبناً، وإذا خثر لبن الراعية كان أفضل ما يكون وأطيب وأدسم. ومنابت السعدان: السهول. وهو من أنجع المراعي في المال، ولا يحسن على نبت كما يحسن عليه)). ثم ذكر روايتين في أول من أرسل هذا المثل: الأولى أنه الخنساء الشاعرة، والثانية - رواه عن المفضل -: أن قائله امرأة من طيئ كان تزوجها امرؤ القيس. وارجع إلى القصة هناك.

فرجعت إلى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له فقال هاشم:  
(العمرى لا نريم أبياتنا حتى ننظر ما يكون من جهده)).

ثم مضى عام وأصاب قوم هاشم غرة من معاوية فقتل في خبر طويل، وكان بين  
الحيين يوم حوزة الأول ويوم حوزة الثاني ويوم ذات الأثل ويوم ملحان وهي من أيام  
العرب المشهورة الطافحة أدباً وشعراً ورجزاً. ولها الفضل في إتحاف اللغة العربية  
بأكثر قصائد الخنساء لأنها أخت معاوية هذا وأخيه صخر، فلهذه الأيام قالت الخنساء  
ابلق الرثاء في الشعر العربي.

### ٣- خطة غدر

لقي زُرعة بن عمرو بن خويلد النابغة بعكاظ، فأشار عليه أن يشير على قومه  
بقتال بني أسد وترك حلفهم، فأبى النابغة الغدر، فبلغه أن زرعة يتوعدده فقال من  
قصيدة:

ينهدى إليّ غرائب الأشعار	نبثت زرعة والسفاهة كاسمها
رجل يشق على العدو ضراري	فحلفت يازرع بن عمرو إنني
تحت العجاج فما شققت غباري	أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني
فحملتُ برّةً واحتملت فجار <sup>(١)</sup>	أنا اقتسنا حُطّينا بيننا
جيشاً إليك قوادم الأكوار <sup>(٢)</sup>	فلتأتيناك قصائد وليدفعن
فيهم ورهط ربيعة بن حذار..	رهط ابن كوز محقي أدراعهم
غلبوا على خبت إلى تعشار	وبنو جذيمة حي صدق سادة
يدعو بها ولدانهم عر عار <sup>(٣)</sup> إلخ	متكنفي جنبي عكاظ كليهما

وهكذا لم يخنع للتهديد قاضي الشعراء في عكاظ، بل التزم الوفاء وشهر هذا الذي  
يريد أن يحمله على الغدر تشهيراً يدرك عاره كل من في عكاظ.

### ٤- معازمة في المصائب

أيام حوزة والأثل وملحان، ذهبت بوالد الخنساء عمرو بن الشريد وبأخويها صخر  
ومعاوية، فطفقت الخنساء تبكي قتلاها ولا تزداد على الأيام إلا إعظاماً لمصيبتها  
فقرحت أجفان الناس بما بكت على هؤلاء وخاصة أخاها صخرأ.

انحدرت هذه الشاعرة العظيمة إلى عكاظ تسجل فيها رسمياً أنها أعظم العرب  
مصيبة، فليس أحد أصيب بما أصيبت، فكانت تنزل كل عام على هودج سوّمته لتلقت  
إليها الأنظار، وجرت على هذه العادة أعواماً.

(١) برة اسم معرف للبر. وفجار: اسم للفجور.

(٢) الكور: رحل الناقة. والقادمة مقدمته.

(٣) عر عار: لعبة لصبيان الأعراب، كانوا يتداعون بها ليجتمعوا للعب. يعني أنهم أمنوا، وصبيانهم يلعبون في عكاظ.

ثم كانت وقعة بدر، التي انتصف فيها الإسلام من مناوئيه وقتل فيها من أعدائه صناديد قريش: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد ابن عتبة. ((فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم. وبلغها تسويم الخنساء هودجها في الموسم ومعاضمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية، وأنها جعلت تشهد الموسم وتبكيهم، وقد سومت هودجها براية وأنها تقول: ((أنا أعظم العرب مصيبة)) وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك، فلما أصيبت هند بما أصيبت به وبلغها ذلك قالت: ((أنا أعظم من الخنساء مصيبة)). وأمرت بهودج فسوم براية وشهدت الموسم بعكاظ وجعلت تندب قتلاها بقولها:

من حس لي الأخوين كالـ	غصنين أو من رأهما
قرمان <sup>(١)</sup> لا يتظالما	ن ولا يرام حماهما
ويلي على أبوي والـ	قبر الذي واراها
لا مثل كهلي في الكهو	ل ولا فتى فكتاهما... إلخ

وقالت: ((اقرنوا جملي بجمل الخنساء)) ففعلوا، فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء: ((من أنت يا أختي؟)) قالت: ((أنا هند بنت عتبة، أعظم العرب مصيبة، وقد بلغني أنك تعاضمين العرب بمصيبتك فبم تعاضمينهم؟)).

فقالت الخنساء: ((بعمر بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو، وبم تعاضمينهم أنت؟)).

قالت: ((بأبي عتبة بن ربيعة وعمي شيبة بن ربيعة وأخي الوليد ابن عتبة)).

قالت الخنساء: ((أو سواء هم عندك؟!)) ثم أنشدت تقول:

أبكي أبا عمراً بعين غزيرة	قليل إذا نام الخلي هجودها
وصنوي، لا أنسى معاوية الذي	له من سراة الحرثين وفودها
وصخراً، ومنذا مثل صخر إذا غدا	بساومه الأطل قباً يقودها <sup>(٢)</sup>
فذلك ياهند الرزية فاعلمي	ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها:

أبكي عميد الأبطحين كليهما	وحاميهما من كل باغ يريدها
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي	وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب	وفي العز منها حين يُنمى عديدها

وأمر هند والخنساء هذا في عكاظ، من أغرب ما يؤثر في باب التنافس واعتناء الناس بمصائبهم واهتمامهم بالتتويه بها وتخليدها في آدابهم ومحافلهم العامة. ولعل هذا المنظر، منظر تينك السيدتين بلباسهما الأسود وجمليهما المسومين، أطرف منظر شهدته عكاظ.

(١) القرم: الفحل، السيد.

(٢) الساهمة: الضامرة. والأطل جمع إطل: وهو الخاصرة. والقب جمع اقب وهو الدقيق الخصر الضامر البطن.

## ٥- الفجار الأول

جلس بدر بن معشر الغفاري في مجلس له بعكاظ - وكان بدر رجلاً حدثاً منيعاً  
مستظيلاً بمنعته على من ورد عكاظ - فجعل يقول ورجل على رأسه قائم:

نحن بنو مدركة بن خندف      من يطعنوا في عينه لا يطرف  
ومن يكونوا قومه يغطرف      كأنهم لجة بحر مسدفة<sup>(١)</sup>

وهو باسط رجله يقول: ((أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضرب هذه  
بالسيف فهو أعز مني)). فوثب رجل من بني نصر ابن معاوية فضربه على ركبته  
فأندرها ثم قال له: ((خذها إليك أيها المخندف)) وأنشد وهو شاهر سيفه:

نحن بنو دهمان ذي التغطرف      بحر لبحر زاخر لم ينزف  
نبنني على الأحياء بالمعرف

فتحاور الحيان عند ذلك وثارا حتى كادت تكون فتنة ودماء. ثم تراجعوا ورأوا أن  
الخطب يسير.

وهذا الذي هاج أول أيام الفجار بين كنانة وهوازن.

## ٦- إتاوة

كان لزهير بن جذيمة العبسي إتاوة على هوازن، وكان إذا كانت أيام عكاظ أتاها  
زهير، ويأتيها الناس من كل وجه، فتأتيه هوازن بالإتاوة التي كانت له في أعناقهم،  
فيأتونه بالسمن والأقط والغنم... ثم إذا تفرق الناس عن عكاظ نزل زهير بالنفرات.

أنت زهيراً يوماً عجوز من هوازن، بسمن في نحي، واعتذرت إليه، وشكت  
السنين التي تتابعن على الناس، فذاقه زهير فلم يرض طعمه، فدعسها (طعنها) بقوس  
في يده عطل في صدرها فاستلقت على قفاها فانكشفت وبدت عورتها، فغضبت من  
ذلك هوازن واضطغنتها عليه، مع ما كان في صدرها من الغيظ والحسد. فتذامرت  
عامر بن صعصعة يومئذ، وتآلى خالد بن جعفر (من سراة هوازن) وقال: ((والله  
لأجعلن ذراعي في عنقه حتى يقتل أو أقتل)). وجعلوه من شأنهم في حروب وأيام  
حتى ظفروا به فقتلوه.

## ٧- ظفر بثأر

((أقبل شأس بن زهير العبسي من عند النعمان بن المنذر، وكان قد حباه بحباء  
جزيل، وكان فيما حباه قطيفة حمراء ذات هدب، وطيلسان وطيب، فورد منعجاً  
(وهو ماء لغني) فأناخ راحلته إلى جانب الردهة، وعليها حباء لرياح بن الأسل  
الغنوي، وجعل يغتسل، فناده الغنوي: ((استتر)) فلم يحفل بما قال، فقال: استتر  
ويحك، البيوت بين يديك، فلم يحفل، وامرأة رياح تنظر إليه وهو مثل الثور الأبيض،  
فانتزع به سهم فقتله ونحر نافته فأكلها وضم متاعه وغيب أثره.

(١) العَطْرَفَة: الخيلاء والعبث. والمُسْدِف: المظلم.

فقد شأس بن زهير، ومكث قومه كذلك ما شاء الله حتى رأوا امرأة رياح هذه باعت بعكاظ قطيفة حمراء أو بعض ما كان من حباء الملك، فعرفوها وعلموا أن رياحاً صاحب ثأرهم. فغزت بنو عبس غنياً قبل أن يطلبوا قوداً أو دية. وهرب رياح منهم، وكان لعكاظ الفضل في معرفة القاتل إذ عملت في ذلك عمل رجال التحري اليوم.

بقي قوم شأس ووالده زهير خاصة يكثرون القتل في غني ولا يشتفون، وضرب الزمان ضرباته فالتقى خالد بن جعفر بن كلاب، هو ووالد شأس القتل العبسي في عكاظ في الشهر الحرام، فقال خالد لزهير: ((لقد طال شرنا منك يا زهير أما أن لك أن تشتقي وتكف؟)) قال زهير: ((أما والله مادامت لي قوة أدرك بها ثأراً فلا انصرام له)). وأغلظ له زهير وحقره. وكان ذلك الكلام بينهما أمام رجال من قريش كانوا في عكاظ، فلما حقره زهير وسبه قال خالد:

((اللهم أمكن يدي هذه، الشقراء القصيرة من عنق زهير بن جذيمة ثم أعني عليه)).

فقال زهير: ((اللهم أمكن يدي هذه البيضاء الطويلة من عنق خالد ثم خلّ بيننا)). فقالت قريش: ((هلكت والله يا زهير)). فقال: ((إنكم - والله- الذي لا علم لكم)). وكانت هوازن توتي زهير بن جذيمة الإتاوة كل سنة بعكاظ وهو يسومها الخسف وفي أنفسها منه غيظ وحقد.

ومضى الرجلان وتفرق الجمع عن عكاظ وبقى خالد وقوم يتربصون بزهير حتى وجدوا منه غرة فقتلوه.

وفي ذلك يقول خالد بن جعفر بن كلاب:

بل كيف تكفرني هوازن بعدما	أعنتتهم فتوالدوا أحرارا
وقتل ربهم زهيراً بعدما	جدع الأنوف وأكثر الأوتارا
وجعلت مهر نسائهم ودياتهم	عقل الملوك هجاننا وبكارا

## ٨- سيف يثار لصاحبه

قتل الحارث بن ظالم- وكان أحد الجبارين الفتاكين الذين أضرمو الجزيرة فتنأ ودماء-، قتله ابن الخنس التغلبي، ثأراً بأبيه الذي كان كاهن يزيد بن عمرو الغساني أمره بقتله الملك في خبر طويل..

فأخذ ابن الخنس سيف الحارث بن ظالم، فأتى عكاظ في الأشهر الحرم، فجعل يعرضه على البيع ويقول: ((هذا سيف الحارث ابن ظالم)). فاشتراه قيس بن زهير بن جذيمة، فأراه إياه فعلاه به حتى قتله ثم أنشد قيس يرثي الحارث:

وما قصرت من حاض دون أبر وأوفى منك حار بن ظالم  
سترها

أعز وأحمى عند جار وذمة وأضرب في كاب من النقع

قاتم (١)

## ٩- شريف غير مقتنع

كانت الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً تفتّعوا كيلاً يعرفوا، وكذلك كان حال الشرفاء، فإنه لا يوافي عكاظ شريف إلا على وجهه برقع، مخافة أن يؤسر يوماً فيكبر فداؤه، وكان طريف بن تميم العنبري من مشهوري شجعان العرب وفرسانهم، لا يتفنع كما كانوا يتفنعون.

فوافي عكاظ يوماً وقد قتل رجلاً من بني شيبان. وتطوع منهم رجل للأخذ بثأره من طريف فقال لقومه: ((أروني طريفاً)).

فأروه إياه، فجعل كلما مر به تأمله ونظر إليه فأمعن النظر. ففطن طريف فقال: ((مالك تنظر إلي؟))، فقال: ((أتوسمك لأعرفك، فله علي إن لقيتك يوماً أن أقتلك)).

فقال طريف في ذلك:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة	بعثوا إليّ عريفهم يتوسم
فتوسموني إنني أنا ذلكم	شاكى سلاحي في الحوادث معلم
تحتي الأغر، وفوق جلدي نثرة	زغف ترد السيف وهو مثلم (١)
حولي أسيد والهجيم ومازن	وإذا حللت فحول بيتي خضم (٢)
ولك بكري لدي عداوة	وأبو ربيعة شاني ومحلّم

فمضى لذلك ما شاء الله ثم ظفر الرجل بطريف في يوم من أيام العرب فقتله ثاراً لقتيله.

## ١٠- تأديب سفية

كان عبد الله بن جعدة سيداً مطاعاً، وكانت له إتاوة بعكاظ يؤتي بها: يأتيه بها هذا الحي من الأزدي وغيرهم، فجاء سمير بن سلمة القشيري وعبد الله جالس على ثياب قد جمعت له من إتاوته.

فأنزله عنها وجلس مكانه، فجاء رباح بن عمرو بن ربيعة بن عقيل - وهو الخليع، سمي بذلك لتخلعه عن طاعة الملوك لا يعطيهم الطاعة - فقال للقشيري: ((مالك ولشيخنا تنزله عن إتاوته ونحن ها هنا حوله؟)).

فقال القشيري: ((كذبت، ما هي له)). ثم مد القشيري رجله فقال: ((هذه رجلي فاضربها إن كنت عزيزاً)). قال: ((لا لعمرى، لا أضرب رجلك)). فقال له القشيري: ((فامدد لي رجلك حتى تعلم أضر بها أم لا؟)) فقال: ((ولا أمد لك رجلي، ولكن

(١) حار في البيت الأول. مرخم حارث. وكبا الغبار: علا.  
(٢) النثرة: الدرع الواسعة. والزغف: الدرع اللينة أو الرقيقة الحسنة السلاسل. والشانيء: الكاره.  
(٣) قبيلة العنبر بن عمرو بن تميم، والجمع الكثير من الناس. وانظر تفصيل هذا الخبر ومقتل طريف في يوم مبايض في العقد الفريد ٢٠٨/٥، (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٥ هـ) وبلوغ الأرب ٣٦٨/١.

أفعل ما لا تنكره العشيرة، وما هو أعزّ بي، وأذلّ لك)) ثم أهوى إلى رجل القشيري فسحبه على قفاه ونحاه وأقعد عبد الله بن جعدة مكانه.

## ١١- إغاثة

أغار قيس بن عاصم المنقري على بني مرة بن عوف بن ذبيان، فأسر أحد رجلين من هوازن، جاورا في بني مرة. ففدى كل قوم أسيرهم من قيس بن عاصم، وتركوا الهوازني فاستغاث أخوه بوجوه بني مرة فلم يغيثوه.

ركب الهوازني إلى موسم عكاظ فأتى منازل مذحج ليلاً فنادي يذكر أسيره ومن استغاث بهم فردوه:

دعوت سناناً وابن عوف وحاتناً  
أعيذهم في كل يوم وليلة  
حليفهم الأدنى وجار بيوتهم  
فصمّوا وأحداث الزمان كثيرة  
فياليت شعري من لإطلاق غمة  
وعاليت دعوى بالحصين وهاشم  
بترك أسير عند قيس بن عاصم  
ومن كان عما سرهم غير نائم  
وكم في بني العلات من متصامم  
ومنذ الذي يحظى به في المواسم

فسمع صوتاً من الوادي ينادي بهذه الأبيات:

ألا أيهذا الذي لم يجب  
عليك بذأ الحي من مذحج  
فناد يزيد بن عبد المدان  
يفكوا أخاك بأموالهم  
أولاك الرؤوس فلا تعدهم  
عليك بحي يجلي الكرب  
فإنهم للرضا والغضب  
وقيساً وعمرو بن معد يكرب  
وأقل بمثلهم في العرب  
ومن يجعل الرأس مثل الذنب؟

فاتبع الصوت فلم ير أحداً. فغدا على المكشوح قيس بن عبد يغوث المرادي فقص عليه قصته وأمر الأبيات التي سمعها ثم قال له: ((بدأت بك لتفك أخي)). فقال المكشوح: ((والله إن قيس بن عاصم لرجل ما قارضة معروفاً قط ولا هو لي بجار، ولكن اشتر أخاك منه وعلي الثمن، ولا يمنعك غلاؤه)). ثم أتى عمرو بن معد يكرب فقال له مثل ذلك وسأله: ((هل بدأت بأحد قبلي؟)) قال: ((نعم، بقيس المكشوح)). قال: ((عليك بمن بدأت به)). فتركه وأتى يزيد بن عبد المدان فقال: ((يا أبا النضر إن من قصتي كذا وكذا...)) فقال له: ((مرحباً بك وأهلاً، أبعث إلى قيس بن عاصم: فإن هو وهب لي أخاك شكرته، وإلا أغرت عليه حتى يتقيني بأخيك، فإن نلتها وإلا دفعت إليك كل أسير من بني تميم بنجران فاشتريت به أخاك)). فقال أخو الأسير: ((هذا الرضا)) فأرسل يزيد إلى قيس ابن عاصم بهذه الأبيات:

يا قيس أرسل أسيراً من بني جشم  
لا تأمن الدهر أن تشجى بغصته  
فأفكك أخا منقر عنه وقل حسناً  
إني بكل الذي تأتي به جازي  
فاختر لنفسك إحمادي وإعزازي  
فيما سئلت وعقبه بانحياز

فبلغه الرسول ذلك وقال: ((إن يزيد بن عبد المدان يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن المعروف قروض ومع اليوم غد، فأطلق لي هذا الجسمي فقد استعان بأشراف بني جشم، فلم يصب حاجته فاستجار بي. ولو أرسلت إليّ في جميع أسارى مضر بنجران لقصيت حقك)). فقال قيس بن عاصم لمن حضره من تميم:

((هذا رسول يزيد بن عبد المدان سيد مذحج وابن سيدها ومن لا يزال له فيكم يد، وهذه فرصة لكم فما ترون؟)) قالوا: ((نرى أن نغليه عليه ونحكم فيه شططاً فإنه لن يخذله أبداً ولو أتى ثمنه على ما له كله)). فقال قيس:

((بئسما رأيتم، ألا تخافون سجال الحروب، ودول الأيام، ومجازاة القروض؟)) فأبوا عليه فقال: ((بيعوني)). فاشتطوا بالثمن فتركه بأيديهم واعتذر إلى يزيد قائلاً: ((إن الأسير بيد رجل من سعد وقد اشتطوا في ثمنه)). فأسل يزيد إلى السعدي وقال له: ((احتكم)).

فقال: ((مئة ناقة ورعاؤها معها)). فقال يزيد: ((إنك لقصير الهمة، قريب الغني، جاهل بأخطار بني الحارث، أما والله لقد غبنتك يا أبا بني سعد، ولقد كنت أخاف أن يأتي ثمنه على جلّ أموالنا، ولكنكم يا بني تميم قوم قصار الهمم)). وأعطاه ما احتكم. وفك الأسير الذي بقي هو وأخوه مجاورين لمن فكه حتى ماتا بنجران.

## ١٢ - حروب الفجار

اختلاط أحياء العرب بعضها ببعض، وجمع عكاظ للأعداء المتنافرين في صعيد واحد، وتحريمها قتال بعضهم بعضاً في أيامها التي هي في الأشهر الحرم، لم يمنع الشغب بين الناس ولا الخصومة والنضال بالكلام أو الشعر. وكثيراً ما كان يهان أحد أفراد قبيلة بكلمة يثلبه بها خصمه من القبيلة المعادية فينادي: يال فلان، وينادي الآخر: يال فلان، ويهيج الشر بين القبيلتين. وكم جرّ من حروب على الحيّ سفهاؤه، وما أكثر ما ألقى أراذل قوم كلمات غير مبالين، فجرت من أجلها الدماء حتى أشرف الحيان على الفناء والهلكة. وهذا ما وقع في أكثر أيام الفجار وهي حروب كانت في عكاظ بين قريش وكنانة من جهة، وهوازن من الجهة الثانية. وقد تعددت الوقائع فيها مرة بعد مرة ولذلك يقول دريد بن الصمة:

تغيبت عن يومي عكاظ كليهما وإن يك يوم ثالث أتغيب

وإن يك يوم رابع لا أكن به وإن يك يوم خامس أتجنب<sup>(١)</sup>

تعرف كتب الأدب والتاريخ من أحداث الفجار أربعة، فأما الرابع الذي هو أهمها وأكبرها فقد تقدم الكلام عليه في فصل مخصوص أول الكتاب ص ١٦٢.

ونتكلم هنا على أيام الفجار الثلاثة الأولى وهي جميعاً لم تنته بحروب وإن كادت تشرف عليها، لأن أسبابها تافهة ولأن عقلاء الفريقين حالوا دون الشر، وبذلك نلّم بأحوال سوق عكاظ إماماً شافياً.

(١) بلوغ الأرب ١/٣٦٨.



الفجار الأول: تقدم أنفاً وهو حادث بدر بن معشر الغفاري (ص ٣٠٠)

الفجار الثاني: كان بين قريش وهوازن<sup>(٢)</sup>. وكان الذي هاجه أن فتية من قريش جلسوا في سوق عكاظ إلى امرأة وضيئة من بني عامر بن صعصعة، وقيل بل أطاف بها شباب من بني كنانة لا من قريش، وعليها برقع وهي في درع فضل، فأعجبهم مارأوا من هيئتها فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم. فأتى أحدهم من خلفها فشد ذيلها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تدري. فلما قامت تقلص الدرع من خلفها فضحكوا وقالوا: ((منعتنا النظر إلى وجهها فقد رأسينا خلفها)). فنادت المرأة: ((يا آل عامر!)) فتحاور النار وكان بينهم قتال ودماء يسيرة فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم.

الفجار الثالث: ((وهو بين كنانة وهوازن، وكنانة هم حلفاء قريش. وكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية. وكان الكناني فقيراً، فرآه دائنه النصرى بسوق عكاظ، ومع النصرى قرد وافى به السوق. فوقف في السوق ونادى: ((من يبيعي مثل هذا القرد بمالي على فلان الكناني؟)) وجعل يعيد النداء حتى أكثر، تعبيراً للكناني ولقومه. فمر به رجل من بني كنانة فسمعه فحمي وضرب القرد بسيفه فقتله. فهتف النصرى: يا آل هوازن! وهتف الكناني: يا آل كنانة! فتهايج الناس حتى كاد يكون بينهم قتال. ثم رأوا أن الخطب أيسر مما تكلفوا له فترجعوا ولم يقم الشر بينهم)).

### ١٣- واعظ

احتشد الناس في ناحية من عكاظ يتوسطهم شيخ وقور، على وجهه سمات اليقين والخير، وهو على جمل أورك، قد أرهف الناس إليه أذانهم مصغيين، وأعينهم إلى وجهه، وقد شدتهم الحيرة من أفاظ تجري على لسانه من خبر السماء وما بعد الممات، وعظمت لا عهد لهم بمثلها في أحياتهم النائية وأوطانهم الشاحبة، وإذا هو يخطبهم ويقول:

((أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهّر، وبحار تزخر، وجبال مرسة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا؟  
يقسمُ قس بالله قسماً لا إثم فيه: إن لله ديناً هو أَرْضَى لَكُمْ وَأَفْضَلُ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ مِنَ الْأَمْرِ مِنْكَرًا:

ن من القرون لنا بصائر	في الداهيين الأولي
للموت ليس لها مصادر	لما رأيت موارداً
تمضي الأكابر والأصاغر	ورأيت قومي نحوها
لما حيث صار القوم صائر	أيقنت أنني لا محا

(٢) العقد الفريد.

سمع الناس هذا ثم أخذت أبصارهم أولئك الذي يطوفون حول الصخور في السوق، فانصرفوا حيرى، في أنفسهم شيء. وكان بين المنصرفين غلام حدث، هو صاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم . بقي يذكر هذا المشهد حتى بعد أربعين سنة وقد طبقت الجزيرة دعوة الإسلام فأغارت وأنجدت، وقدمت على صاحبها وفود الأقطار بالطاعة والإجابة، وكان منهم وفد من إياد قوم قُس، وفدوا على رسول الله فسمع منهم وقال لهم: ((ما فعل قس بن ساعدة؟)) قالوا: ((مات يارسول الله)). قال: ((كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة، ما أجدني أحفظه)).

فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا رسول الله. فتلاه عليه فلما انتهى قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((يرحم الله قساً، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده)).<sup>(١)</sup>

### ١٤ - تنافس الشعراء

كان نابغة بني ذبيان تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ: يجتمع إليه فيها الشعراء. فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى قد أنشده شعره وحكم له، ثم أنشدته الخنساء قولها:

قذى بعينك أم بالعين عوار

حتى انتهت إلى قولها:

كأنه علم في رأسه نار

وإن صخرأ لتأتم الهداة به

وإن صخرأ إذا نشتو لنحار

وإن صخرأ لكافينا وسيدنا

فقال النابغة: لولا أن أبا بصير (كنية الأعشى) أنشدني قبلك لقلت: إنك أشعر الناس، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة.

قالت : ((والله ومن كل ذي خصيتين)).

فقال حسان: ((أنا والله أشعر منك ومنها)). قال: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحي

فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

ولدنا بني العنقاء وابني محرّق

فقال النابغة: ((إنك لشاعر لولا أن قلت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك!))<sup>(١)</sup>.

### ١٥ - ترويح بنات

(١) قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: ((لقس ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله ﷺ روى كلامه وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته وعجب من حسن كلامه وأظهر تصويبه. وهذا شرف تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال)).

(١) وفي رواية ثانية: ((إنك قلت (الجففات) ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت (يلمعن في الضحي) ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً، وقلت (يقطرن من نجدة دماً) فدالت على قلة القتلى ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك)) فقام حسان منكسراً. وأي الروايتين كانت فإن حكم عكاظ خليق بنفوذ البصر وصحة النظر وقوة البديهة، فما عن قليل رضيته العرب يحكم في شعراء عكاظ.

كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة. وكان المحلق الكلابي مثنائاً مملقاً، فقالت له امرأته: ((يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر؟ فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلا وأكسبه خيراً)).

قال: ((ويحك ما عندي إلا ناقتي وعليها الحمل)).

قالت: ((الله يخلفها عليك)). قال: ((فهل له بد من الشراب والمسوح؟)).

قالت: ((إن عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها)).

مرّ الشاعر فتلقاه المحلق قبل أن يسبق إليه أحد، وابنه يقوده، فأخذ الخطام فقال الأعشى: ((من هذا الذي غلبنا على خطامنا؟)).

قال: ((المحلق))، قال: ((شريف كريم)).

ثم سلمه إليه فأناخه فنحر له ناقتة وكشط له عن سنامها وكبدها ثم سقاه، وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه، فقال: ((ما هذه الجواري حولي؟)) قال المحلق: ((بنات أخيك وهن ثمان شريدتهن<sup>(٢)</sup> قليلة)).

ثم خرج الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً.

فلما وافى المحلق عكاظ، إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا الأعشى ينشدهم قصيدته التي مطلعها:

أرقت وما هذا السهاد المؤرقُ  
ولكن أراني لا أزال بحادث  
وما بي من سقم وما بي تعشق  
أغادي بما لم يمس عندي ويترك  
\* \* \*

ومنها:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة  
تشب لمقرورين يصطليانها  
إلى ضوء نار باليفاع تحرق  
وبات على النار الندى و(المحلق)  
بأسحم داج: عوض لا تتفرق<sup>(٣)</sup>  
كما زان متن الهندواني رونق  
تري الجود يجري ظاهراً فوق  
وجهه

يداه يدا صدق: فكف مبيدة

ومنها:

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم  
فأنجد أقوام به ثم أعرقوا<sup>(٤)</sup>.. إلخ  
فما أتم الأعشى قصيدته إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه.

(٢) أي بقية أموالهن.

(٣) اليفاع: الأرض المرتفعة. تشب النار: تضرم. والمقروور: من أصابه البرد، وتقاسما: حلفا الأيمان. والأسحم: الأسود. والداجي: المظلم (يعني بالأسحم الداجي: الليل) عوض: ظرف لاستغراق الزمن المستقبل.

(٤) الكف المبيدة: المهلكة التي لا تبقى على مال. أنجد: أتى نجداً، أعرق: سار إلى العراق.

ثم أتى المحلق الأعشى فسلم عليه فقال الأعشى:

((مرحباً بسيد قومه)) ثم نادى: ((يا معشر العرب هل منكم مذكرار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم)).

فتسابق الأشراف إليه جرياً، يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى، فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها. ولم تمس واحدة منهن إلا في عصمة رجل خير من أبيها وأفضل.

فما قولك بفتنة امرأة المحلق، وحسن دعاية الأعشى، وهذا النوع من البضاعة التي روجتها عكاظ.

## ١٦- منحة محررة

حضر عكاظ من سراة الناس في أحد المواسم عمرو بن الشريد السلمي، وابناه معاوية وصخر أخوا الخنساء الشاعرة. وحضرها معمر بن الحارث جد جميل الشاعر الغزل. فلما نظر معمر إلى عمرو صافنه (قام حذاءه) وأمر ولده أن يخدموه ففعلوا.

فلما تفوّضت السوق دعا عمرو بن الشريد ابنه معاوية وصخرأ فقال لهما:

((إن معمرأ قد طوقني ما لم يطوقني أحد من العرب، وقد أحببت أن أكافيه)).  
فقالا: ((افعل ما بدا لك)). فدعا بكاتب وصحيفة فكتب:

(هذا ما منح عمرو بن الشريد السلمي، معمر بن الحارث العذري):

منحه ماله بالوحيدة من أخلاف يثرب، أطلال ذاك ومغانيه ورسومه وأعراصه ودواويه وزحاليفه وقريلانه وبرادعه وقسوره وعجْرُمه وبشامه وينعه وتاليه وحماطه وشيحه وأراكه وأحزته وحذارية وآكامه وبرقه وعلجانه، وكل ماصاء وصمت فيه، وبكت السماء عليه وضحكت الأرض عنه فهو لمعمر دون عمرو. وممنوح به من نيات الصدر، لا يشوبه كدر الامتتان ولا أمارات الامتهان، مستنزل من هضاب الجندل وجرثومة ود بعيد المحل لا تخلق الأيام جدته ولا يركد لمتنسم بارحه ما دام الزمان، وتوقد الحران وسمر ابنا سميم وأقام حراء وثبير<sup>(١)</sup>.

(١) الوحيدة: من أعراض المدينة بينها وبين مكة. الخلف: ما أنبت الصيف من العشب والجمع أخلاف. الأطلال جمع طلل: وهو ما شخص من آثار الدار. والمغنى: المنزل الذي غني به أهله ثم طعنوا. والرسم: ركيّة تدفنها الأرض، وما لا شخص له من الآثار. والأعراص جمع عرصة: وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. الدويّة: الأرض غير الموافقة، والدو والدويّة والداويّة: الفلاة. والزحاليف جمع زحلوقة: وهي (هنا) المكان المنحدر الممّلس. والقري: مسيل الماء من التلاع، ومدفعة من الربو إلى الروضة، والقرو، حوض طويل ترده الإبل والأرض لا تكاد تقطع، ومسيل المعصرة، وأسفل النخلة ينقر فينتبذ فيه والجمع قري. والبراذع جمع برذعة: وهي الأرض لا غليظة صلبة ولا سهلة. والقسورة: نبات سهلي، والجمع قسور، وقسور النبت: كثر. والعجرم، جمع عجرمة: وهي شجر. والبشام: شجر عطر الرائحة يسود الشعر ويستاك بقضيبه. والبنع: جل الشجر. والحماط جمع حماطة: شجر شبيه بالتين أحب شجر إلى الحيات أو التين الجبلي أو الأسود الصغير أو الجميز. الشبج: الباب العالي البناء وأشباح المال: ما يعرف من الإبل والغنم وسائر المواشي. والأراك: القطعة من الأرض، وشجر من الحمض يستاك به. والأحزة جمع حزيز: وهو الموضع الغليظ المنقاد، كثرت حجارتها وغلظت كأنها سكاكين. والحذاري جمع حذرية: وهي الأكمة الغليظة، والقطعة الغليظة من الأرض، وحررة لبني سليم وهم قوم عمرو صاحب هذا القول. والبرق جمع برقة: غلظ من الأرض فيه حجارة ورمل وطين مختلطة، وبرق ديار العرب تنيف على مئة ذكر صاحب القاموس كثيراً منها فارجع إليه. والعلجان: كل شجر ذي شوك، وكل عظيم طويل من الشجر. وماصمت من المال: الذهب والفضة. وماصاء منه: الإبل وما إليها. ووذ: الوتد،

وكتب لخمس وثلاثين عاماً خلت من عام الفيل.  
ثم بعث بالكتاب مع طرف من طرائف اليمن وعدد إلى معمر.  
قال الأصمعي: فهي باقية إلى الآن يفيض على ولده دخلها وذلك في أيام الرشيد  
رحمه الله<sup>(١)</sup>.  
وهذا سند تمليك محرر، صدر عن عكاظ ليعرفنا كم تهز الأريحية من نفوس  
الكرام.

### ١٧- صفقة خاسرة

((أخسر صفقة من شيخ مهو))  
كانت إياد تسبّ بالفسو وتعيّر به، فقام رجل من إياد بسوق عكاظ ومعه بردا حبرة  
فقال:  
((من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين؟)).  
فقام عبد الله بن بيدرة أخو مهو (ومهو حي من عبد القيس) فقال:  
((هاتهما، واشهدوا أنني اشتريت عار الفسو من إياد لعبد القيس بهذين البردين)).  
فلما أتى رحله وسئل عن البردين قال: ((اشتريت لكم بهما عار الدهر)). فوثبت  
عبد القيس وقالت:  
إن الفساة قبلنا إيادُ ونحن لا نفسو ولا نكاد  
وتفرق الناس عن عكاظ بابتياح عبد القيس عار الفسو حتى قال الشاعر:  
يامن رأى كصفقة ابن بيده من صفقة خاسرة مخسره  
المشتري الفسو ببردي حيرَه شلت يمين صافق ما أخسره  
وسارت هذه الصفقة الخاسرة مثلاً بين الناس.  
قال ابن دارة:

وإني إن صرمت حبال قيس وحالفت المزون على تميم  
لأخسر صفقة من شيخ مهو وأجور في الحكومة من  
سدوم<sup>(٢)</sup>  
وتلك غريبة في بابها بين جميع مآتي القوم في عكاظ.

### ١٨- فتنة جمال

واسم جبل، واسم صنم معروف. والبارح: الريح الحارة في الصيف. وابنا سمير: الليل والنهار تقول: لا أفعله ما  
سمر السمير وابن سمير وابنا سمير: أي ما اختلف الليل والنهار.  
<sup>(١)</sup> الأزمنة والأمكنة ١٦٨/٢.  
<sup>(٢)</sup> ثمار القلوب للثعالبي ص ٨٢، الأصل (ضربت حبال قيس).

زعموا: ((أن جارية بن سليط كان أحسن الناس وجهاً وأمدهم جسماً، وأنه أتى عكاظ فأبصرته امرأة من خثعم فأعجبها، وتلطفت له حتى وقع عليها، فلما فرغ قالت: ((إنك قد أتيتني على طهر، وإني لا أدري لعلي سأعلق لك ولدًا، فموعدك فصال ولدي إن حملت لك)). فسمي لها اسمه.

ثم وافى عكاظ لرأس ثلاثة أحوال. وأقبلت المرأة مع أمها وخالتها يلتمسنه بعكاظ حتى رأته المرأة فعرفته وقالت لأمها: ((هذا جارية)). قالت أمها: ((بمثل جارية، فلتزن الزانية، سرًا أو علانية)).

ووجد الرجل أن المرأة قد ولدت غلاماً وفطمته. ثم دفعن إليه الغلام فسماه عوفاً فشرّف وساد قومه وهو عوف الأصم<sup>(١)</sup>.

## ١٩- راية غدر

والذي يثلج الصدر ويشفي النفس من مآثر عكاظ، مشهد نستطيع أن نفيد فيه درساً بليغاً. ومثالاً فعالاً وأسلوباً ناجحاً في محاربة الخائنين، ووددت- والله - لو أخذنا به في أيامنا العصبية هذه، واحتذينا مثاله، إذن لبقى كل ساع في فساد يذوق الموت ألواناً حتى يلاقي ربه بالموت المريح. قال المرزوقي:

((كانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة، انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ، فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول: ((ألا إن فلان بن فلان غدر. فاعرفوا وجهه ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه)).

فإن أعتب وإلا جعل له مثل مثاله في رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم!! وهو قول الشماخ:

ذعرت به القطا ونصبت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين))

وهي خطوة حاسمة موفقة في السياسة السلبية لمحاربة الرذائل، ما أظن أن أحداً اهتدى إليها قبل العرب ولا بعدهم.

لم يغفل العرب في عكاظ أن يرفعوا مقابل ذلك راية وفاء لمن أتى مكرمة كلفته المغارم ثم مضى فيها ولم ينكص، فقد ذكروا: أن عامر بن جوين رفعت له كندة راية غدر في صنيعه بامرئ القيس ابن حجر في وجهه إلى قيصر، ورفعت له فزارة راية وفاء في صنيعه بمنظور بن سيار حيث أقحمته السنة فصار بماله وإبله وأهله إلى الجبلين فأجاره عامر ووفى له. وصار الناس بين حامد له وذام<sup>(٢)</sup>.

## ٢٠- داعية الإسلام

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين في عكاظ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة. وقد لزمه قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله، وآلمه ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم، فعزم ليقصدنّ المواسم وليأتين فيها القبائل، كل قبيلة بمنزلها، وكل جماعة في حيهم، يعرض عليهم

(١) أمثال الضبي ص ١٨.

(٢) انظر كتاب الأزمنة والأمكنة ١٧٠/٢.

هذا الدين الجديد. ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا، وكان أسفه يشتد كلما ألح قومه بالصد، قام في عكاظ يقول:

((يا أيها الناس: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا)) ويتبعه رجل له غدירתان كأن وجهه الذهب وهو يقول:

((يا أيها الناس! إن هذا ابن أخي وهو كذاب فاحذروه)).

فعرف الناس أن هذا (الصادّ عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب بن عبد المطلب، يكذبها كلما قال كلمة الحق.

عاود الدعوة مراراً فلم يُجب ولم ييأس، ورجا أن يجد فيهم الحامي والمجير على الأقل إذ لم يجد المجيب، فكان يقول للحي في موسم عكاظ:

((لا أكره منكم أحداً على شيء، من رضي الذي أدعوه إليه قبله، ومن كرهه لم أكرهه، إنما أريد أن تحوزوني مما يراد بي من القتل، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربي ويقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء))<sup>(٣)</sup>.

كان الناس يعجبون من أمره وأمر عمه، وهم بين راض وغازب ومتعجب يرى بعينه ثم يمضي كأن الأمر لا يهمه، منهم من لا ينكر ما يسمع ومنهم من يرد أقبح الرد، ومنهم من يقول: قومه أعلم به.

كان هذا دأبه أبداً يوافي به القبائل سنة بعد سنة، حتى إن منهم من قال له: ((أيها الرجل، ما أن لك أن تيأس؟)) من طول ما يعرض نفسه عليهم.

\* \* \*

انتهى رسول الله في تطوافه على القبائل في عكاظ إلى بني محارب ابن خفصة. فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومئة سنة، فكلمه ودعاه إلى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه فقال الشيخ: أيها الرجل قومك أعلم بنبئك، والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلا أب بشر ما يؤوب به أهل الموسم، فأغن عنا نفسك. وإن أبا لهب لقائم يسمع كلام المحاربي. ثم وقف أبو لهب على المحاربي فقال: ((لو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذي هو عليه، إنه صابئ كذاب)). قال المحاربي: ((أنت والله أعرف به، هو ابن أخيك ولحمتك)). ثم قال المحاربي: ((لعل به يا أبا عتبة لممأ، فإن معنا رجلاً من الحي يهتدي لعلاجه)). فلم يرجع أبو لهب بشيء<sup>(١)</sup>.

روى عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا:

[أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ فقال: ((ممن القوم؟)). قلنا: ((من بني عامر بن صعصعة)). قال: ((من أي بني عامر؟)).

قلنا: ((بنو كعب بن ربيع)). قال: ((كيف المنعه فيكم؟)) قلنا: ((لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنارنا)). فقال:

(٣) دلائل النبوة ص ١٠٢.

(١) دلائل النبوة ص ١٠١.

((إني رسول الله فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم أكره أحداً منكم على شيء؟)) قالوا: ((ومن أي قريش أنت؟)) قال: ((من بني عبد المطلب)) قالوا: ((فأين أنت من بني عبد مناف؟)).

قال: ((هم أول من كذبني وطردي)). قالوا: ((ولكننا لا نطردك ولا نؤمن بك ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك)).

فنزل إليهم والقوم يتسوقون إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري فقال: ((من هذا الذي أراه عندكم أنكره؟)) قالوا: ((هذا محمد بن عبد الله القرشي)). قال: ((وما لكم وله؟)) قالوا: ((زعم لنا أنه رسول الله، يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه)). قال: ((فماذا رددتم عليه؟)) قالوا: ((قلنا: في الرحب والسعة، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع به أنفسنا)). قال بجرة: ((ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشد من شيء ترجعون به، وبدأتم لتنايذكم الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة، قومه أعلم به، لو أنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به، تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه؟ فبئس الرأي رأيتم)). ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((قم، الحق بقومك فوالله لو لا أنك عند قومي لضربت عنقك)).

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها، فغمر الخبيث بجرة شاكلتها فقمصت برسول الله فألقته. وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة، جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت: ((يال عامر ولا عامر لي! أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم؟!)).

فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بجرة، وثلاثة أعانوه، فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض ثم جلس على صدره ثم علقوا وجوههم لطماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء)).

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه سألهم عن كان في الموسم فقالوا:

جاءنا فتى من قريش ثم حدث أنه أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به معنا إلى بلادنا.

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال:

((يا بني عامر! هل لها من تلاف؟ هل لدناباها من تطلب؟ فالذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط، ألا إنها الحق، فأين كان رأيكم؟!))<sup>(١)</sup>.

## ٢١- خمر

(١) دلائل النبوة ص ١٠٠.



بعث رجل من بني جشم امرأته- واسمها عبلة بنت عبيد بن خالد... بن حنظلة- إلى عكاظ بأنحاء سمن تبيعها له فيها ، فباعته السمن وراحتين وشربت بثمانها الخمر، فلما نفذ الثمن رهنه ابن أخيه وهربت، فطلقها فقالت في شربها الخمر:

شربت براحتي محجن                      فيا ويلتي، محجنٌ قاتلي  
وبابن أخيه على لذة                      ولم أحتفل عدلة العاذل  
وتزوجها عبد شمس بن عبد مناف فولدت له أمية الأصغر، وعبد أمية ونوفلاً، وهم العبلات.

## ٢٢- تلقيب

ساوم ربيعة بن عمرو بقدر في عكاظ فاستصغره فقال لصاحبه: ((لو وضعت فيه حوثرتي (حشفتي) لمأته)). فسمي حوثره بذلك.

## ٢٣- تصاريف القدر

وهذا غلام وقع في الأسر وبيع في عكاظ وكان له في هذا البيع وذلك الأسر كل الخير، إذ افتتح لنفسه صفحة في التاريخ مجيدة فأصبح من أعلامه، ولنترك الطبري يقص كيف بدأ أمره في عكاظ في مواسم الحج:

زارت أم زيد بن حارثة قومها من بني معن بن طيئٍ وزيد معها، فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية، فمروا على أبيات بني معن رهط أم زيد، فاحتملوا زيدياً وهو يومئذ غلام يفعة قد أوصف، فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع، فاشتراه منهم حكيم بن حزام لعتمته خديجة بنت خويلد بأربع مئة درهم، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له ، فقبضه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، وقد كان أبوه حارثة بن شراحيل حين فقده قال:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل                      أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل  
فوالله ما أدري وأن كنت سائلاً                      أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل  
فيا ليت شعري هل لك الدهر رجعةً                      فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل  
تذكرنيه الشمس عند طلوعها                      وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل  
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره                      فيا طول ما حزني عليه وما وجل  
سأعمل نص العيس في الأرض                      ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل  
جاهداً

حياتي أو تأتي علي منيتي                      وكل امرئ فان وإن غره الأمل  
وأوصي به عمراً وقيساً كليهما                      وأوصي يزيداً ثم من بعدهم جبل  
قال : (يريد جبلة بن حارثة أخا زيد، وكان أكبر من زيد، ويعني بيزيد أخا زيد لأمه وهو يزيد بن كعب بن شراحيل).

وحج ناس من كلب فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه، فقال أبلغوا أهلي هذه الأبيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا عليّ وقال:

الكني إلى قومي وإن كنت نائياً  
فكفوا من الوجد الذي قد شجاكم  
بأني قطين البيت عند المشاعر  
ولا تعملوا في الأرض نص الأباغر  
فإني بحمد الله في خير أسرة  
كرام معد كابرأ بعد كابر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه، فقال: ابني ورب الكعبة، ووصفوا له موضعه وعند من هو، فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل بفدائه وقدماً مكة فسألوا عن النبي صلى الله عليه وسلم فقيل هو في المسجد، فدخلا عليه فقالا: يا بن عبد الله يا بن عبد المطلب يا بن هاشم يا بن سيد قومه!

أنتم أهل حرم الله وجيرانه وعند بيته تفكون العاني وتطمعون الأسير، جنناك في ابنا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه، فإننا سنرفع لك في الفداء) قال: ((من هو؟)) قالوا: ((زيد بن حارثة)) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلا غير ذلك؟ قالوا وما هو؟ قال أدعوه فأخبره فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً، فقالا قد زدتنا على النصف وأحسننت..

فاختار زيد محمداً وقال: ((إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً)) فما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجته إلى الحجر فقال: ((يا من حضر: اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني)) فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفاً<sup>(١)</sup>.

## ٢٤- نداء

وهذا منادي عامر بن الطفيل وهو واحد من منادين كثيرين، قائمين وطوافين، نستمع إليه فإذا هو يقول:

((هل من راجل فنحمله، أو جائع فنطعمه، أو خائف فنؤممه..))<sup>(٢)</sup>.

## ٢٥- منهب المعزى

في ناحية من عكاظ، وقف شيخ همّ حطمه السنون فلا يكاد يستقل واقفاً، ومن ورائه معزى كثيرة تكاد تملأ السهل، وأسارير الشيخ ناطقة بالغضب وخرج الصدر، وإن الناس يتساءلون- وقد عرفه بعض وجهله بعض-: ما باله؟

فيجيب المجيب: ((ذلك سعد بن زيد مناة بن تميم الملقب بـ(الفرز) أكثر قومه مالا وولداً))، ويجتمع عليه الناس وقد علموا أن له لشأناً، فإذا به يقول:

((أيها الناس، ألا إن هذه معزاي، فلا يحل لرجل أن يدع أن يأخذ منها شاة، ولا يحل لرجل أن يجمع منها شاتين)).

(١) المنتخب من (ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين) للطبري ص ٣-٥.  
(٢) تاريخ دول العرب والإسلام لمحمد طلعة حرب ٩٩/١.

فاندفع الناس على الغنم ينتهبونها ويذهب كل لطيته، فما هو أن يسأل سائل عما حمل سعداً على إتهاب معزاه حتى يعلم أنه طلب يوماً إلى ابنه هبيرة أن يسرح في معزاه فيرعها فأجاب هبيرة: ((والله لا أرها سنّ الحسل<sup>(١)</sup>)): فنأدى سعد ولده الآخر صعصعة قائلاً: ((يا صعصعة اسرح في غنمك)).

قال: ((لا والله لا أسرح فيها، ألوة<sup>(٢)</sup> الفتى هبيرة)).

فغضب سعد وسكت على ما في نفسه حتى إذا أصبح ساق المعزى كلها إلى عكاظ، فكان منه ما رأى الناس.

\* \* \*

سار هذا الحديث في عكاظ بين العرب واشتهر حتى صار مثلاً يضرب، إذا أراد أحدهم قطع أمل صاحبه من أمر قال: لا أفعله ((حتى يجتمع معزى القزْر)) وأصبحت هذه القولة من أمثال العرب.

قال شبيب بن البرصاء:

ومرة ليسوا نافعيك ولن ترى لهم مجعاً حتى ترى غنم الفزر<sup>(١)</sup>

## ٢٦- منهب الرزق

أما هذا ففتى المشرق نهيك بن مالك، ((قدم مكة بطعام ومناخ للتجارة، فرأهم مجهودين، فأنهب العير بما عليها)) وهاهم أولاء الناس يتهافتون على أرزاقه في عكاظ يأخذ كل ما يقشع به عن نفسه وأهله والجوع والفقر. فلما انكشف الناس ولم يبقوا في أرض عكاظ من مال نهيك شيئاً، وكان الخبر قد طار في أقطار عكاظ، أقبل خاله عليه يعاتبه على إتهاب ماله، فقال نهيك:

يا خال ذرني ومالي: ما فعلت به  
وما يصيبك منه ، إنني مودي  
إن نهيكاً أبى إلا خلائقه  
حتى تبديد جبال الحرة السود  
فلن أطيعك إلا أن تخلدني  
فانظر بكيدك: هل تستطيع تخليدي  
الحمد لا يشتري إلا له ثمن  
ولن أعيش بمال غير محمود<sup>(٣)</sup>

## ٢٧- فرسان العرب

((اجتمع العكاظيون على أن فرسان العرب ثلاثة:

ففراس تميم عتيبة بن الحارث بن شهاب أحد بني ثعلبة بن يربوع ابن حنظلة: صياد الفوارس وسم الفرسان.

وفارس قيس: عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب.

(١) انظر أمثال الضبي ص ٢٢ طبعة الجوائب - الحسل: ولد الضب، ولم توجد دابة قط أطول عمراً منه، وسن كل دابة يسقط إلا سن الحسل والمعنى: لا أرها أبداً.

(٢) ألوة: يمين، قسم.

(٣) الإصابة ٨٤/٦ آخر الترجمة ٨٩١١.

وفارس ربيعة بسطام بن قيس... بن بكر بن وائل)).  
(ثم اختلفوا فيهم حتى نعو عليهم سقطاتهم))<sup>(٤)</sup>

## ٢٨- ما رأيت شيخاً أكذب

مر المستوغر بن ربيعة، شاعرٌ معمرٌ، بعكاظ يوماً وعلى ظهره ابن ابنه شيخاً هرمًا، فأعيا من حمله فوضعه بالأرض وقال: ((عنيتني صغيراً وكبيراً)) فسمعه رجل فسأه ذلك فالتفت إليه ناصحاً:

- يا عبد الله أتقول هذا لأبيك؟! أحسن إليه فطالما أحسن إليك.

قال : أو تدري من هو!

قال : نعم ، هو أبوك أو جدك.

قال: هو والله ابن ابني

قال الرجل: : ما رأيت شيخاً أكذب، لو كنت المستوغر بن ربيعة مازدت . قال:  
فأنا المستوغر بن ربيعة!<sup>(١)</sup>

## ٢٩- امتحان عقل إحدى فصيحيات

أنت ابنة الخس عكاظ، فأتاها رجل يمتحن عقلها ويمتحن جوابها، فقال لها: إني أريد أن أسألك، قالت: هات،

قال ((كاد)) قالت: ((المنتعل يكون راكباً.

قال ((كاد)) قالت: الفقر يكون كفوياً.

قال: ((كاد)) قالت: ((العروس يكون ملكاً)).

قال: ((كاد)) قالت: ((النعامة تكون طائراً)).

قال: ((كاد)) قالت: ((السّرار يكون سحراً)).

ثم قالت للرجل: ((أسألك؟)) قال: ((هاتي))، قالت: ((عجبت)) قال: ((للسياخ لا ينبت كلؤها ولا يجف ثراها)).

قالت: ((عجبت)) قال: ((للحجارة لا يكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها)).

قالت: ((عجبت..)) إلخ<sup>(٣)</sup>.

(٤) هذا قول أبي عبيدة - الكامل للمبرد ص ٨٩ طبعة ليدن.

(١) عمّر طويلاً جداً وأدرك صدر الإسلام، ولقد بالغوا في عمره حتى بلغوا به (٣٢٠) سنة ورووا قوله: مئة أنت من بعدها مئتان لي

وقد سئم حياته حين كان أحفاده صغاراً ووصف حاله بقوله: وازددت من عدد الشهور سنينا

إذا ما المرء صم فلم ينجي ولم يك سمعه إلا ندايا

ولا عب بالعشي بني بنيه كفعل الهر يحترش العظايا

فذاك الهم ليس له دواء سوى الموت المنطق بالمنايا

العظايا جمع عظاية وعظاءة: دابة على خلقة سام أبرص، أعظم منه قليلاً- المنطق المحاط في موضع النطق.

انظر : معجم الشعراء للمرزباني ص ٢١٣، والشعر والشعراء ص ٣٤٤ ومختلف تأويل الحديث لابن قتيبة ص ٣٦٠.  
(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/٢١٤.

الآن وقد استعرضت هذه المشاهد، وذكرتك هذه الفقرات جواً خاصاً تتصوره  
عكاظ كلما مرت بك في نقلة من نقل الأدب أو التاريخ، الآن تستطيع أن تفهم: لم يعد  
مؤرخو الأدب عكاظ في أول ما وحد لهجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم  
بأكثر من قرن، وهياً لقريش خاصة تلك الزعامة والتحكم في اللغة والانتقاء فسلمت  
من عيوب اللهجات، وعرفت أيضاً أن عكاظ دنيا تعج بالقاصدين من كل فج عميق،  
وأن فيها الخطباء المصاقع يخطبون، والشعراء الفحول ينشدون، والأعزة والأشراف  
يتفاخرون ويتنافرون ويتسابقون<sup>(٢)</sup>، والموتورين يؤمنونها للبحث عن واتريهم، ومن  
له أسير سعى إلى عكاظ في فكاكه، ومن أراد أن يأتي عملاً تعرفه له العرب عامة  
أتاه في عكاظ، ومن أتى مكرمة في قطر فأحب أن تخلد جاء إلى عكاظ فشهر فيها  
أمره.

قال أبو ذؤيب:

إذ بني القباب على عكاظ  
وقام البيع واجتمع الألوفاً  
وقال آخر يضرب بها المثل:  
فإنك ضحاك إلى كل صاحب  
وهجا أمية بن خلف الخزاعي حسان وأراد إيلامه فعنونها إلى عكاظ فقال:  
ألا من مبلغ حسان عني  
مغلغلة تدب إلى عكاظ  
أليس أبوك فينا كان قبينا  
لدى القينات فسلاً في الحفاظ  
يمانياً يظل يشد كبيراً  
وينفخ دائماً لهب الشواظ<sup>(٣)</sup>  
فيجيبه حسان:  
أتاني عن أمية زور قول  
وما هو بالمغيب بذني حفاظ  
سأنشر ما حبيت لهم كلاماً  
ينشر بالمجامع من عكاظ<sup>(١)</sup>  
فأنت إذ تجول في عكاظ يتقسم سمعك خطب وقصائد ومفاخرات ومنافرات  
وخصومات وأنماط من البيع لا تتشابه، وأزياء في اللبس والتكلم والمراكب.. تجمعت  
من كل صوب.  
ولما قال عمرو بن كلثوم قصيدته:

(٢) جلس القلمس في عكاظ يسابق بين ابنتي الخس قائلًا: ((إني سائلكما لأعلم أيكما أبسط لساناً وأظهر بياناً وأحسن  
للصفة إتياناً))، ثم كانت الأسئلة لكل منهما حول الإبل والخيل والمعزى والسحاب والرجال والنساء "أيها أحب  
إليك؟" ثم ((أيها أبغض إليك؟)) ثم استنشدهما فأنشدتهما في الحكم وتجارب الحياة. في حوار طريف وحديث  
مسهب، ثم ختم المجلس بقوله: ((أحسنتما وأجملتما فبارك الله فيكما)) ووصلهما وحباهما. وانظر المجلس بطوله  
في (بلاغات النساء) ص ٥٨-٦٤ فهو قيم حافل.

(٣) المغلغلة: الرسالة السريعة. والقين: الحداد. والغسل: الرذل الساقط.

(١) ديوان حسان ص ٢٤١، وتاريخ النقائض ص ٩٧، وبعده:

من الصم المعجرفة الغلاظ قوافي كالسلام إذا استمرت

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا.....

في العراق، أحب أن تسير في الناس، ويكتب لها الخلود، فسعى إلى عكاظ في الموسم، فقام بهذه القصيدة خطيباً ثم قام بها أيضاً في موسم مكة.

وكذلك قل في بقية القصائد الطوال التي يسمونها (المعلقات)، فما كان الإجماع ليعقد على أنها أجود الشعر لولا أن المحكمين في عكاظ شهدوا لها بذلك وأقر السامعون بتفوقها.

تلك مشاهد عامة مما كان يجري في عكاظ، وكان العرب الذين عرضوا في هذه السوق متاجرهم وأموالهم وأنعامهم، وعرضوا فيها أديبهم وشعرهم، أبوا إلا أن يعرضوا بقية مقوماتهم فرأينا مشاهد عن سياستهم وصلحهم وحربهم. ولو كان لعربي أن يصبر على ضيم قريب أو بعيد لصبر هؤلاء الجيران في هذه السوق العامة، ولكن طرح الخسف وردّ الضيم في نفس العربي هو قبل التجارة والأدب، ورفع الذل عنده أهون وسائله إهراق الدماء وقطع وريد الحياة، لأنه لا يفقه عيشاً بقيد ولا يتصور حياة بذل.

والظاهر أن احتفال الناس بعكاظ لم يكن واحداً دائماً، فقد كان في بعض السنين يربي على الغاية في الازدحام والحركة، حتى تضيق السوق بمن فيها وحتى يربح التاجر والجالب إليه ربحاً عظيماً لا يتأتى إلا في الفرط النادر. قال المرزوقي: ((فلما دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا أنه حضر مثله في سائر السنين، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر والعراق والشام...)).

هي إذن معرض عام للجزيرة العربية : فيها عرض لتجارات جميع الأقطار وعرض للبيوع وعرض للعادات وللأديان واللغات والآداب ، وللسياسة... وفيها لجان رسمية على نحو ما نألف في معارضنا اليوم، تحكم للمتفوق بتفوقه حكماً نافذاً من أقصى الجزيرة إلى أقصاها. وتزيد على معارضنا بميزة جلييلة، وهي صهرها لعادات القبائل ولغاتها ومواضعاتها لتنتقي منها أحسنها وأخلقها بالبقاء.

لسنا نعلم لهذه السوق بداية محدودة إلا أنا نرجح وجودها قبل القرن السادس الميلادي<sup>(١)</sup>، ولما جاء الإسلام وتوطدت أركانها في الجزيرة والعراق والشام بدأ

(١) في بعض المراجع القديمة والحديثة تخبط في تعيين سنة افتتاحها وتناقض ظاهر: خذ لك مثلاً هذه المصادر: بلوغ الأرب للألوسي، دائرة معارف وجدي، الوسيط للأستاذين الإسكندري والعناني، فإنها اتفقت على أن عكاظ افتتحت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة مع أن هناك حديثاً صحيحاً يفيد أن رسول الله ﷺ كان ينبل على أعمامه في حروب الفجار وعمره أربع عشرة سنة أي بعد الفيل بأربع سنة فتكون الفجار ونبيل الرسول فيها قبل وجود عكاظ بسنة وهو تناقض بين. والغريب حقاً أن ينقل صاحب الوسيط - وهما ما هما فضلاً وتحققاً - هذا التحديد عن بلوغ الأرب على علاقة في الطبعة الخامسة للوسيط ص ١٢، ثم ينقضها هما نفساهما ص ٢٧ من الكتاب المذكور فيذكرنا نبيل الرسول وعمره أربع عشرة. كما فعل الألوسي تماماً. ولو نجا أحد من زلل لنجا هؤلاء الأفاضل الثقاة.

أما دائرة معارف وجدي فمع ارتكابها الخطأ نفسه فقد عززته بثان فقالت: ((عكاظ اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة (٥٤٠ ميلادية؟)) وهذا غير صحيح لأن حادث الفيل كان سنة (٥٧٠-٥٧١)م. ولعل الألوسي رحمه الله أراد ((قبل الفيل بـ ١٥ سنة)) فغيرت في الطبعة كلمة (قبل) بـ(بعد) ثم تابعه على الخطأ من بعده. ثم اطلعنا بعد صدور الطبعة الأولى بسنة فإذا الدكتور محمد حسين هيكل يقول في كتابه (في منزل الوحي ص ٣٦٤ الطبعة الأولى): أدق ما يروي (!) أنها اتخذت بعد الفيل بـ ١٥ سنة وقد عرفت أنفاً مبلغ هذا الثقل في الدقة.

شأنها يضؤل، ولم تزل قائمة إلى أن خرجت الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف بمكة سنة (١٢٩) للهجرة فنهبوا فتركت إلى الآن.  
وعلى هذا تكون هذه السوق قد عمرت أكثر من قرنين ونصف القرن.

### سوق مجنة

مَجَنَّة موضع (وقيل بلد) قرب مكة على أميال منها، تقع بمر الظهران، قرب جبل يقال له الأسفل وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها، ميمها بالفتح وتكسر<sup>(٢)</sup>. والظاهر أنها من المواطن التي لا ينساها أهل مكة لبعض جمال فيها ولأنها ذات مياه، فقد جاء في كتب السيرة: أن بلالاً لما هاجر إلى المدينة وأصيب بالحمى، تشوَّق إلى مكة ومواطنها وتعنى بقوله:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة  
وهل أردن يوماً مياه مجنة  
بفحٍّ وحولي إذخر وجليل  
وهل يبدون لي شامة وطفيل<sup>(٣)</sup>

هذه السوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة، تقوم في العشر الأخير من ذي القعدة<sup>(١)</sup> ويقصدها العرب بقضهم وقضيضهم بعد أن تنفض سوق عكاظ، يتممون فيها ما قصدوا له من تجارة وفداء وتفاخر و... على شبه التفصيل المتقدم في عكاظ. ويجلب إليها ما يجلب إلى تلك من متاع وعروض، ولم تكن الخمر لتقلَّ فيها شأنًا عن بقية الأسواق، فقد كانت تحمل إليها من معادنها من الشام، ومن بصرى وغزة حتى صار يشيد بذكرها الشعراء، قال أبو دؤيب الهذلي:

سُلافة راح ضمننتها إداوة  
تزودها من أهل بصرى وغزة  
مقيِّرة ردفٌ لمؤخرة الرحل  
على جسرة مرفوعة الذيل والكفل  
فوافى بها عسفان ثم أتى بها  
(مجنة) تصفو في القلال ولا تغلي<sup>(٢)</sup>

وإذا تأملت أحداث عكاظ التي عرضنا لها عرفت أن بعضها يرتفع إلى ما قبل جميع هذه التواريخ التي ذكروها: فالمرأة التي باعت أنحاء السمن بعكاظ تزوجت بعد ذلك بعبد شمس، وعمرو بن كلثوم الذي أنشد قصيدته في عكاظ عاش حول سنة (٥٠٠م). وإذا أضفت إلى هذا ما فطن له الأستاذ أحمد أمين (الرسالة: السنة الأولى: العدد ١٣ ص ٢٥) في بحوثه عن عكاظ والمربد، من أن المرزوقي في عد عشرة ولو القضاء بعكاظ قبل الإسلام، استظهرت أن السوق مضى على إنشائها زمن قبل أن تصير فيه هذه الأحداث كلها. من كل ذلك تعرف صحة ما ذهبنا إليه من أنها كانت قبل سنة (٥٠٠م) حتماً.

<sup>(١)</sup> لهم في اشتقاقها أكثر من مذهب، فقد جاء في تاج العروس أن المجنة الكثيرة الجن، وفي الصحاح: أرض مجنة: ذات جن. قال ابن جني: ((يحتمل مجنة وزنين، أحدهما أن يكون مفعلة من الجنون كأنها سميت بذلك لشيء يتصل بالجن أو بالجنة أعني البستان أو ما هو سبيله، والآخر أن يكون فعلة من مجن بمجن كأنها سميت بذلك لأن ضرباً من المجون كان بها. هذا ما توجهه صنعة علم العربية، فأما لأي الأمرين وقعت التسمية فذلك أمر طريقة الخبر)).

<sup>(٢)</sup> أخبار مكة للأزرقي ص ١٣١. الإذخر والجليل: نبتان. وشامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة.  
<sup>(٣)</sup> هذا قول جمهرة العلماء، أما ياقوت فمع أنه وافقهم على هذا عند كلامه على (مجنة)، خالفهم وناقض قوله هو نفسه فقال عند الكلام على عكاظ هذا القول الغريب: ((كانت العرب تقيم سوق عكاظ في أول شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج)).  
<sup>(٤)</sup> السلافة: الخمر وكذا الراح. والإدارة: المطهرة. والمقيِّرة: المطلية بالقار. الردف: الراكب خلف الراكب وكل ما تبع شيئاً فهو ردف. والرحل: مركب للبعير. والجسرة: الناقة العظيمة الماضية. والكفل: مركب للرجال يؤخذ من كساء فيعقد طرفاه فيلقي مقدمه على الكاهل ومؤخره مما يلي العجز. القلال جمع قلة: وهي الجرة العظيمة.

ومجنة وعكاظ وذو المجاز تستوي في نظر المحرمين من العرب وتتمتع منهم جميعاً باحترام واحد حتى إن بعضهم لا يردها إلا محرماً.  
قال الأزرقى:

كانت قريش وغيرها من العرب تقول: ((لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز إلا محرمين بالحج)). وكانوا يعظمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم<sup>(٣)</sup>.

ومجنة - وإن قرنت في أغلب الأحيان مع عكاظ وذي المجاز - دون هاتين السوقين شأناً حتى إن المرزوقي لم يذكرها مستقلة كما ذكر غيرها بل اكتفى بقوله: ((وزاد بعضهم في الأسواق المجنة وهو قريب من ذي المجاز)).

### سوق ذي المجاز

لهم في تحديدها قولان: أحدهما أنها على فرسخ من عرفة بناحية كَبْكَب، وككب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام إذا وقف. ذكره ياقوت وغيره وهو أحد قولين نقلهما الزبيدي، والثاني: أنها موضع بمنى؛ ومنى بين مكة وعرفات في نصف الطريق تقريباً، والذين نقلوا الأول أكثر عدداً وإن كان القول الثاني أدنى إلى القبول. وسمي ذا المجاز لأن إجازة الحاج كانت منه، ولعل السوق أحياناً تمتد أو ينتقل الناس فيها: يقتربون ويبتعدون حتى تشغل هذه المسافة<sup>(١)</sup>. وذو المجاز من ديار هذيل، هم أهلها وجيرانها الأدنى.

يكثر ورود ذي المجاز في شعر العرب ولاسيما شعراء هذيل، لأنها من أسواقهم الكبرى، ومن المواسم أيضاً قال أبو ذؤيب الهذلي:

وراح بها من ذي المجاز عشية      يبادر أولى السابقات إلى الحبل  
وقال الليثي:

للغانيات بذي المجاز رسوم      في بطن مكة عهدهن قديم

أما التي ذكرها الحارث بن حلزة في معلقته:

واذكروا حلف ذي المجاز وما      قدم فيه العهود والكفلاء

فالغالب أنها التي في شمال الجزيرة، لأن مقام قبيلته يشكر والأحداث بينها وبين غيرها كانت هناك.

\* \* \*

إذا انقشع الناس عن مَجَّة حين يهل ذو الحجة ساروا بأجمعهم إلى هذه السوق وأقاموا بها حتى اليوم الثاني من ذي الحجة، وهو يوم التروية، سمي بذلك لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء ويملؤون أوعيتهم لما بعده إذ لا ماء بعرفة، وإلى هذه

(٣) أخبار مكة ص ١٣٢.

(١) وذو المجاز علم أيضاً على موضع قريب من العراق لا شأن لبحثنا به.



السوق تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب ممن شهد الأسواق قبلها، أو لم يشهدها وأتى للحج خاصة، إذ إن ذا المجاز من مواسم الحج عندهم.

تحفل<sup>(١)</sup> ذو المجاز لوقوعها أيام الحج بجموع العرب وتجارهم وأشرفهم، وهي تلي عكاظ في الشأن، ويجري فيها ما يجري في هذه من تبايع وتناشد وتفاخر وفداء أسرى وطلب ثأر.. إلخ، يقصدها صاحب الثأر ليتعرف فيها واثرة، فيتربص به انقضاء الشهر الحرام إن كان من المحرمين وإلا عاجله فأخذ بثأره وإليك بعض أحداثها:

١

روى الأصفهاني: ((أن قيس بن الخطيم لم يزل يلتمس غرة من قاتل أبيه وجده في المواسم حتى ظفر بقاتل أبيه بيثرب فقتله، وظفر بقاتل جده بذي المجاز، فلما أصابه وجده في ركب عظيم من قومه، ولم يكن معه إلا رهط من الأوس، فخرج حتى أتى حذيفة بن بدر الفزاري فاستنجده فلم ينجده، فأتى خدّاش بن زهير فنهض معه ببني عامر حتى أتوا قاتل عدي (جد القيس) فإذا هو واقف على راحلته في السوق، فطعنه قيس بحربة فقتله ثم استمر. فأراد رهط الرجل فحالت بنو عامر دونه.. إلخ)).

٢

حالف أبو الأزيهر الدوسي وكان عظيم الشأن في الأزديين ابن حرب عظيم بني أمية، وكان بين أبي الأزيهر هذا وبين الوليد بن المغيرة محاكمة في مصاهرة؛ فإن أبا الأزيهر لقاعد في مقعد أبي سفيان بسوق ذي المجاز إذ جاء هشام بن الوليد فضرب عنقه في مقعده ذلك بذي المجاز وانتظر الناس أن يأخذ أبو سفيان بثأر حليفه من هشام فلم يفعل ولم يدرك به عقلاً ولا قوداً من بني المغيرة، وتحدث بذلك أهل السوق من قبائل العرب وراجت في الناس حتى عيروا بها أبا سفيان، وحتى قال حسان بن ثابت فيها:

غدا أهل حضني ذي المجاز بسحرة      وجارُ ابن حرب لا يروح ولا يغدو  
كسالك هشام بن الوليد ثيابه      فأبل وأخلق مثلها حدداً بعد<sup>(١)</sup>

٣

كثيراً ما يغير قوم على قوم فيسبون من ذراريهم فيستعبدونهم. فينشأ هؤلاء الذراري أرقاء في غير قومهم، فيباعون في الأسواق أيام المواسم، فكانت الجواري والأطفال من جملة العروض التي يقتنيها العرب في الجاهلية ويبيعها ويشترها كما

(١) خير تعبير عن ازدحام هذه السوق بالناس كلمة فاه بها أبي بن خلف دلت على أنهم يضربون المثل بمن فيها كثرة، وذكر أنه قصد الرسول ليقته وهو يقول: ((أين محمد؟ لآنجوت إن نجا)) فلما دنا تناول الرسول حربة من أحد أصحابه وانتفض بها انتفاضة أطارت من حوله من الأصحاب ثم استقبل بها أياً فطعنه طعنة وقع بها عن فرسه فكسر ضلعاً من أضلاعه، ولم يخرج له دم، فلما رجع أبي إلى قريش قال: ((قتلني والله محمد)) فقالوا: ((ليس عليك بأس، ما أجزعك! إنما هو خدش لو كان يعين أحدنا ما ضره)) فقال: ((واللات)) لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين!!!، انظر شرح الزرقاني للمواهب ٤٥/٢.

(١) رسائل الجاحظ (جمع السندوبي) ص ٧٦ بتصرف يسير.

يفعل بالتمر والثياب والسلاح حتى جاء الإسلام فأبطل سبي العربي، جاء في الأغاني (٧٥/١١):

((أن أبا وجزة لحق أباه عبيداً - وهو صبي - سباء في الجاهلية، فبيع بسوق ذي المجاز، فابتاعه رجل من سعد واستعبده، فضرب عبيد هذا يوماً ضرع ناقة لمولاه فادماه، فلطم المولى وجه العبد، فخرج عبيد إلى عمر مستعدياً فلما قدم عليه قال: ((يا أمير المؤمنين أنا رجل من بني سليم ثم من بني ظفر أصابني سباء في الجاهلية كما يصيب العرب بعضها من بعض، وأنا معروف النسب، وقد كان رجل من بني سعد ابتاعني فأساء إلي وضرب وجهي، وقد بلغني أن لا سباء في الإسلام)). فما فرغ من كلامه حتى كان مولاه قد أتى عمر على أثره فقال: ((يا أمير المؤمنين هذا غلام قد ابتعته بذئ المجاز، وقد كان يقوم في مالي، فأساء، فضربته ضربة والله ما أعلمني ضربته غيرها قط، وإن الرجل ليضرب ابنه أشد منها فكيف بعده؛ وأنا أشهدك أنه حر لوجه الله)). فقال عمر لعبيد: ((إنه لا سباء على عربي، وإن هذا الرجل قد امتنّ عليك، وقطع عنك مؤونة البينة، فإن أحببت فاقم معه فله عليك منة، وإن أحببت فالحق بقومك)) فأقام عبيد مع السعدي وانتسب في بني سعد بن بكر بن هوازن اهـ.

وعمر نفسه اشترى خادمه (أسلم) من سوق ذي المجاز، وكان أسلم هذا حبشياً أسود مشروطاً<sup>(١)</sup>

\* \* \*

هذه الأسواق الثلاث: عكاظ ومجنة وذو المجاز التي كانت تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حذب وصوب، شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء، والمفاخرة والإنسداد، مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم وابتلعت تلك الأسواق بضجيجها وما كانت تعج به من حوادث، صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات، وغاب صوت صاحبها في ذلك الرُغاء والصخب والزحام، فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين ثم أعلن في الرابعة، ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذئ المجاز، يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة فيردون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون له: ((قومك أعلم بك))<sup>(١)</sup>.

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج، موزع السمع بين داع إلى ثار وناشد ضالة، ومنشد قصيدة، وخطيب، وعارض بضاعة، وحامل مال لفك أسير، وقاصد شريف لإجازة أو حمالة، وداع إلى عصبية، وأمر بمنكر... فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا. لكنه بعد عام الفيل بثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط، ولا سمع بمثله: رجلاً كهلاً وضيعاً عليه سمات الوقار والخير، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة: هذه بنو عامر بن صعصعة، وهذه محارب، وتلك فزارة، والرابعة غسان،

<sup>(١)</sup> تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٣ و(أسلم) هذا أروى الناس لسيرة عمر رضي الله عنه، وكان ابن عمر يعظمه، ومن طريف ما يذكر ابن عساكر عنه أن (أسلم) وعاصم بن عمر حكما عمر في: أيهما أحسن غناء!.

<sup>(٢)</sup> شرح المواهب ٣٠٩/١، وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/١٥٤.

وهناك مرة وحنيفة، وسليم وعبس، وهنا بنو نصر وكندة، وكعب، وعذرة، وهؤلاء الحارث ابن كعب وأولئك الحضارمة.. إلخ.

يوم منازل كل قبيلة، ويقصد إلى شريفها يدعوه بالرفق إلى الله، وفعل الخير، فيتجهم له هذا، ويعبس ذلك، ويجبهه ذلك ويحقره آخر.. فيلقى من الصد ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم، فلا يؤيسه مألقي، ولا يكفه ما أودى، فيمضي متنداً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر: يعرض نفسه عليهم ويقول: ((هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي)). فلا يجد مجيباً، حتى تدارك الله نبيه بوفد الأنصار.

هذا ما حفظته لنا كتب السير والأدب من مشاهد مؤثرة، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى خير، فقد تردد في أجوائها الصوت الضعيف الخافت، يطلب حماية وإجابة. ولئن صدف عنه الناس وازوروا في أسواق الجاهلية لقد ملأ هذا الصوت فيما بعد ما بين المشرق والمغرب، وطبق الخافقين بآثاره التي بثها في العالمين رحمة وعدلاً وعلماً وإنسانية وسعادة ومثلاً علياً. وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم، أفواج من أمم الحضارة والعرفان، في آسية وأوربة وأمريكة، صدّ عنه قديماً أجلاف البادين، وهرع إليه اليوم زُمر المتحضرين من كل عالم ومخترع ومصالح وأديب وسياسي، ومفكر يستضيء بعلمه وفكره الملايين من الخلائق.

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة، ولنحفظ بهذا الدرس، فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياً صائلاً، لا بد أنه ظافر في النهاية عليه. ولنعلم أن اليأس لا ينبغي أن يجد سبيلاً إلى قلب المؤمن، وأنه: **{ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ }** [يوسف: ٨٧/١٢].

## سوق نطاة خيبر

خيبر قرية شمالي المدينة، بينها وبين تبوك. وهي عدة حصون لليهود وفيها مياه ومزارع. ونطاة اسم حصن بها واسم عين أيضاً. وقيل هي خيبر نفسها. وحول القرية نخيل كثير يسقى بعين فيها والبلدة وبئة معروفة في العرب بحمّاها.

أهلها يهود استوطنوا الحجاز منذ القديم واشتغلوا بالزراعة والتجارة<sup>(١)</sup>.

ونظراً لوقوع هذه القرية على الطريق التجارية الكبرى بين اليمن والشام أسهم أهلها بتجارة الجزيرة، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية في سفرها إلى الشام. ونجح أهلها في متاجرهم حتى أفادوا منها غنى واسعاً، واستفاضة لهم ثروات طائلة، ونشأت فيهم رؤوس الأموال الضخمة. ولا نبعد إذا قلنا: إن خيبر مصرف الجزيرة المالي. ولما فتحها الرسول صلى الله عليه وسلم صالح أهلها على الشطر من الثمر والحب. ويذكر أصحاب السيرة غنائم خيبر وما وجدوا فيها من كنوز، فيذكرون أموالاً جمّة ودنيا عريضة. بنى اليهود فيها حصوناً عديدة جعلوا فيها أموالهم وميرتهم من طعام وحب وثمر. وهم في الجملة أهل بأس وشكيمة قاموا كثيراً قبل أن يفتح المسلمون حصونهم، ثم غلبوا على أمرهم فافتتح المسلمون حصن ناعم ثم القموص ثم حصن الصعب بن معاذ، وهو أعظم حصونها غناء وأكثرها طعاماً وودكاً، ثم الوطيح، ثم السلالم ثم الشق. وكان في الغنائم ذهب كثير وفضة كثيرة، فجعل الصحابة يتبادلونها حتى نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبتاع الذهب بالذهب والفضة بالفضة. بين تلك الحصون حصن الشق وحصن نطاة وحصن الكتيبة. كان لكل حصن خازن يخبئ أموال أهله، وكان كنانة بن الربيع عنده كنز بني النضير فلما أسر سئل عنه فانكر فاهتدى الفاتحون إليه فوجدوا أموالاً طائلة.

اتسعت تجارات اليهود في خيبر وغيرها، حتى استطاع الرجل الواحد منهم كأبي رافع الخيبري أن يسير قوافل تجارية لحسابه إلى الشام. وهم نشروا في الجزيرة التعامل بالربا كما تقدم في أول الكتاب وأثروا إثراء ضخماً. وكلما مرت غير لقريش أو لطيمة من لطائم النعمان قامت لها سوق في خيبر. وقد جعل المرزوقي زمنها بعد زمن سوق ذي المحاز أي بعد أشهر الحج وقبل أن تتبدئ سوق حجر.

(١) انظر ص ٢٢ وما بعدها في هذا الكتاب.

## سوق حجر

تقع بلاد اليمامة إلى غربي البحرين وجنوبي العراق. والطريق إليها من العراق وغيره طويلة شاقة. وقصبتها وأم قراها (حجر) وذكر اللسان أنها (الحجر) بالتعريف وحكى فيها الكسر أيضاً.

ينزل أمراء اليمامة وولاتها في حجر، حيث السوق وحيث تجلب إليها الأشياء، إذ هي مصر اليمامة عامة وفي وسطها. وهي في قاع فيه نخيل وماء وكان به قصور في القديم حين كانت البلدة ذات شأن. وأصلها لبني حنيفة إلا أنها شركة كالبصرة والكوفة: لكل قوم فيها خطة. لكن العدد فيها لبني عبيد من بني حنيفة وكان قد تحصن فيها مسيلمة الكذاب لما تبعته سجاح المتنبئة قبل أن يتزوجها ويقتسما الأرض بينهما. وهي ذات شهرة في العرب، اشتهرت منها زرقاء اليمامة التي ضرب المثل بحدة بصرها، واشتهر أيضاً منها عرافها الذي كان يقصد من بعيد، والذي روي فيه بيت عروة بن حزام:

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

حجر من الأسواق المتوسطة، يقصدها العرب لما يقصدون إليه بقية الأسواق من بيع وشراء وتناشد. ثم صار لها في الإسلام ذكر مكرر في أحاديث الأدب والأخبار، لأنها دار جرير بن الخطفي الشاعر، وكثيراً ما كان ينزلها أيضاً ذو الرمة، وكانت في مأمن من السلطان، لبعدها. وبقيت سوقها حتى آخر العصر الأموي، وذكروا أن عمران بن حطان هرب من الحجاج إلى اليمامة فنزل بحجر. كان يجري في هذه السوق قريب مما يجري في عكاظ من المفاخرة.

### ١- منافرة

قال علي بن شفيع: إني لواقف بسوق حجر، إذ أنا برجل عليه مقطعات خضر وهو على نجيب مهري، رجل من هيئته وحالته.. لم أر قط أحسن منه وهو يقول: ((من يفاخرني؟، من ينافرني ببني عامر بن صعصعة، فرساناً وشعراء وعدداً وفعالاً؟)) قلت: ((أنا)). قال: ((بمن؟)) قلت: ((ببني ثعلبة بن.. بن بكر بن وائل)). فقال: ((أما بلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المنافرة؟)) ثم ولى هارباً. فقلت من هذا؟ فقيل: ((عبد العزيز الكلابي)).

### ٢- جرير يبكي الفرزدق

ولعل أفحل من بها (وبغيرها) من الشعراء في الإسلام جرير، كان إذا انتهى من أحداثه الشعرية في العراق أو الشام وملاً الأجواء بهجائه وفخره، أوى إلى بلده وقومه الذين ينافح عنهم، فأكرموا مثواه وطاروا بأشعاره، وإن مجلس جرير ليعد أحد المشاهد في سوق حجر:

((كان يوماً جالساً بفناء داره في حجر فإذا راكب أقبل فقال له جرير: من أين وضح الراكب؟)) قال: ((من البصرة)) فسأله عن الخبر فأخبره بموت الفرزدق، فقال:

هلك الفرزدق بعدما جدّعته<sup>(١)</sup> ليت الفرزدق كان عاش قليلاً

فقال له المهاجر: ((بئس ما قلت، أتهدجو ابن عمك بعدما مات، لو رثيته كان أحسن بك)). ففكر قليلاً ثم قال: ((والله إني لأعلم أن بقائي بعده لقليل، وإن كان نجمي ليوافق نجمه، أفلا أرثيه..)) فقيل له: ((لو كنت بكيته ما نسيتهك العرب)).

ثم قال جرير من أبيات يرثيه:

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاس تبّلت<sup>(١)</sup>

هو الوافد المأمون والواثق الرضى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت

### ٣- شاعر يطاف به مجلوداً

هجا البعيث بطناً من باهلة يقال لهم: بنو أصخب، فاستعدوا عليه إبراهيم بن عدي عامل الوليد بن عبد الملك، فضربه بالسياط وأمر به فطيف به في سوق حجر، ويراه جرير فيقول:

لئن هجوت (بني صخب) لقد تركوا للأصبحية في جنبك آثاراً

قوم هم القوم لو عاد الزبير بهم لم يسلموه وزادوا الحبل إمراراً<sup>(٢)</sup>

وهكذا كانت سوق حجر خاتمة المطاف لهذه النقائض الممتعة والحرب السجال الطويلة بين فحلين من أفحل شعراء العرب، استأثر سوق المربد بالبصرة بأكثرها وختمت هنا في حجر.

ففي هذه السوق إذن، أثارات مما كان يكون في عكاظ من بيع وشراء ومفاخرة ومجالس أدب.

كانت تقوم هذه السوق بين عاشوراء وآخر المحرم.

(١) جدّعه: قطع أنفه.

(٢) صحّت وعوفيت.

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٢٢/٥، الأصبحية: السياط.

## سوق دير أيوب

دير أيوب قرية بحوران من نواحي دمشق يزعمون أنها مسكن أيوب النبي عليه السلام، وأن الله ابتلاه فيها ويزعمون أيضاً أن العين فيها هي التي ركضها برجله.

هذا ما ذكره ياقوت. أما القرية فهي إلى شمال بصرى وغرب أذرعات (درعا) وتعرف اليوم باسم (شيخ سعد)<sup>(١)</sup> ولا يزال إلى اليوم فيها مقام للنبي أيوب، وفيها العين التي أشار إليها ياقوت، وهي من القرى الصغيرة في حوران قليلة النفوس والشأن.

ويظهر أن لها في القديم خطراً كبيراً يقارب ما لبصرى فقد هبطتها منذ سنين بعثة أثرية (تشيكوسلوفاكية) ونقبت في تربتها فعثرت على آثار رومانية قديمة، حملت منها إلى بلادها قسماً مهماً وكان في جملة ما عثرت عليه آثار حثية ومصرية وأبقيت منها نصباً في دار العظم بدمشق.

فالبلدة إذن ذات مكانة قديمة لعهد الجاهلية وصدر الإسلام ويذكر الطبري<sup>(١)</sup> أنه لما ((انصرف مروان (الجعدي) منهزماً، جمع قومه وجنده، ومضى إليه أبو الورد فهزمه ثانية، وتفرق من معه وأسر ثلاثة رجال من ولده وهم نعيم، وبكر، وعمران فبعث بهم إلى مروان.. وهو بدير أيوب فأمر بمداواة جراحاتهم)). ثم ذكر ما يفيد أن مروان جعلها قاعدة حربية لتجهيز جنده وبعثهم إلى الأطراف المنتقضة فيقول: ((فأقبل نحو من عشرة آلاف ممن كان مروان قطع عليه البعث بدير أيوب لغزو العراق مع قوادهم حتى حلوا بالرصافة))<sup>(٢)</sup>.

وبقيت دير أيوب من القرى المهمة في حوران حتى ضؤل شأنها كما ضؤل شأن بصرى وأذرعات وسائر حوران.

وهذه السوق أول أسواق الشام قياماً. فكان العرب وقريش إذا انتهوا من أسواقهم الموسمية: عكاظ ومجنة وذي المجاز، وأنهوا حجهم ورجعت وفود البلدان، نظموا غيرهم وتهيؤوا للسفر إلى الشام فأقاموا تجارتهم فيها وبدؤوا بسوق دير أيوب هذه. ومتى انتهوا منها وانتقضت اعتدوا سبعين يوماً<sup>(٣)</sup> ثم أقاموا سوق بصرى.

(١) انظر في ذلك (الطوبوغرافية الأثرية لسورية وفلسطين) لدوسو ص ٢٤٤.

(٢) ١٨٩٤/٢.

(٣) ١٨٩٧/٢.

(٣) الأزمنة والأمكنة ١٦٩/٢.

## سوق بصرى

بصرى من مشارف الشام وهي عاصمة حوران ومن كبار مدن الشام منذ الزمن الأطول قبل الإسلام، حتى إن اسمها ليتردد في كثير من أشعار العرب. وكان أهل الشام عامة على علاقات متواصلة مع سكان الحجاز، لكثرة أسفار هؤلاء إلى الشام. وكان النبط كثيراً ما يحملون تجارتهم بين الحجاز والشام وينقلون الأخبار بين البلدين. بل إننا نجد لبصرى من الشهرة في الجاهلية ما لا نجد لدمشق نفسها، لأنها كانت محط رحال تجار العرب من بلاد الشام يقدمون إليها بحاصلات الحبشة والهند واليمن فكانت هذه العلائق سبباً في جريان الألسنة بذكرها دون دمشق التي لا نكاد نعثر على ذكر لها في الأشعار القديمة.

كانت بصرى أيام الرومان على جانب من العظمة والمكانة، وقد أنجبت أحد أباطرة الرومان: ((فيليبس)) الذي نصب إمبراطوراً سنة (٢٤٤) من الميلاد فقد كان عربياً من بصرى حوران. جاء في خطط الشام<sup>(١)</sup> في صدد الكلام على حوران وعمرانها:

((ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران وأحصن مدن (باشان) ومعقل الرومان، شاهدة بما كان في بلاد تلك المدينة من الفخامة والعظمة. وكان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً. ويحيط بالسور ربض كثير المباني، ومحيطها خمسة أميال، لها سور عالي الجدران وثيق البنيان، وقلعة لا أحصن منها في عامة بلاد الشام. ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه، وشوارع رحبة، وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة. وبدائع البناء، وأساليب النفش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح، ورُكام الأنقاض وبيوت الأقدمين. وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذي صار إمبراطوراً وهو من أهالي بصرى. والمشهد نصف دائرة قطره (٢٧١) قدماً وهو مكشوف من الأعلى مثل كل المشاهد الرومانية. وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس. عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات وأقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة، وبعضها ما يصلح أن تزدان به أعظم عواصم أوربة الآن)) اهـ.

ونظراً لمركزها التجاري المهم وكونها سوقاً عامة للقوافل الآتية من جزيرة العرب وتوسطها بين أماكن قبائل النبط والبدو وغيرهم حصنها الرومانيون وعنوا بها عناية فائقة وجعلوا فيها الحاميات القوية لمراقبة قبائل الصحراء وحركاتهم، فهي قلعة الرومان في وجه البادية والصحراء، ومعقلهم يصدون منها ما قد تتعرض له الشام من هجمات القبائل.

انتظم سير القوافل التجارية العربية إلى بصرى قبل الإسلام بزمن طويل. وكان رحل إلى الشام فسكنها وما حولها: عرب من اليمن بعد حادث سيل العرم. وكانت تُزعم لها الشهرة قبل هذا الحادث أيضاً فقد جاء في الأغاني:

(١) ٢٥٨/٥



لما أرسل الله سيل العرم. على أهل مأرب قام رائدهم فقال: من كان يريد الخمر والخمير، والأمر والتأخير، والديباج والحريز، فليلحق ببصرى والحفير، وهي من أرض الشام فكان الذين سكنوه غساناً.

ولما عظم أمر قريش صارت غيرهم ترد بصرى في مقدمة ما تردمن مدن الشام وتعددت أسفارهم إليها، وليس في قريش تاجر إلا رحل إليها مراراً وعرفها حق المعرفة، كما عرف أغلب مدن الشام، فاستفادوا من خبرتهم بهذه الديار فوائد جلياً لما بدأت الفتوحات بعد الإسلام. وفيما يذكر رواية الأخبار دليل على احتفال العرب ببصرى وسوقها، فيروي الحافظ ابن عساكر مثلاً عن الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله أحد العشرة أنه قال: كنت في سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: ((سلوا أهل هذا الموسم: أفيهم أحد من أهل الحرم؟)) فقال طلحة: ((نعم أنا)) فقال: ((هل ظهر أحمد بعد؟)) إلخ<sup>(١)</sup> فالموسم جامع للناس من أقطار شتى وأهل الحرم ممن يرد.

وكتب السيرة تذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سافر إليها مرتين: مرة طفلاً ومرة تاجراً ابن خمس وعشرين سنة<sup>(٢)</sup> وتزعم اجتماعه بأحد الرهبان في دير<sup>(٣)</sup> هناك، وأن الراهب دعا إلى وليمته جميع من في العير.. مما يدل على وجود العلائق بين الفريقين وتفاهمهم معاً باللغة العربية، بحيث يجوز لنا أن نعد كورة بصرى قطراً عربياً في الجاهلية. وقد راسل رسول الله ملك بصرى عاصمة حوران فأرسل إليه كتاباً مع الحارث بن عمير كما بعث إلى غيره من الملوك. ولما كانت خلافة أبي بكر لم يفت المسلمين شأن بصرى وعظمتها، فكانت أول ما فتحت صلحاً بعد حصار قليل، لما سار خالد بن الوليد من العراق لمدد أهل الشام وقدم على المسلمين وهم نزول ببصرى، وضايقوا أهلها فصالحوهم، على أن يؤدوا عن كل حالم ديناراً وجريب حنطة، ثم افتتح المسلمون حوران جميعها، وقد تم ذلك سنة ١٣ للهجرة. قال القعقاع بن عمرو يذكر أمر بصرى هذا وقد كان في الجيش المحاصر.

بدأنا بجمع الصُّفْرين فلم ندع  
صبيحة صاح الحارثان ومن به  
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة  
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت  
لغسان أنفاً فوق تلك المناخر  
سوى نفر نجتذهم بالبواتر  
فألقت إلينا بالحشا والمعادر  
بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٧٣.

(٢) انظر ص ١١٣ من هذا الكتاب.

(٣) جاء في مسالك الأبيصار ١/٣٤٧ ما يأتي: دير بصرى: هو بالشام، وقيل هو الذي كان فيه بحيرى الراهب، حكى المازني: قال: نزلت بدير بصرى. فرأيت في رهبانه فصاحة، وهم عرب متنصرة من طيئ من بني الصادر، أفصح من رأيت، فقلت لهم: مالي لا أرى فيكم شاعراً مع فصاحتكم، فقالوا والله ما فينا رجل ينطق بالشعر، إلا أمة لنا كبيرة السن. فقلت: جيئوني بها. فجاءت، فاستنشدتها فأشددتني لنفسها:

أيا رفقة من آل بصرى تحملت  
إذا ما بلغتم سالمين فبلغوا  
وقولوا: تركنا الصادري مكبلاً  
فياليت شعري هل أرى جانب الحمى  
وهل أردن الدهر ماء وقية  
فوهبت لها دريهمات. وبت في ديرهم وأكرموا ضياقتي.  
تؤم الحمى لقيت من رفقة رشدا  
تحية من قد ظن أن لا يرى نجدا  
بكبل هوى من حبكم، مضمراً وجدا  
وقد أنبتت أجراءه بقلأ جعدا  
كان الصبا تسدى على منته بُردا

ونحن - وإن لم يكن في يدنا نص عربي قديم يشير إلى غناها وكثرة أرزاقها - نجد في شروط الصلح ما يدل على وفرة خيراتها، حتى لقد ادعى صاحب بصرى مرة أنه صالح المسلمين على طعام وخل وزيت فكذبه أبو عبيدة<sup>(١)</sup>. كما أن في كثرة ورودها على ألسنة الشعراء ما يدل على شأنها، فإننا إذا أردنا التقصي تعدد علينا إحصاء ما في الشعر القديم من مثل:

أيا رفقة من آل بصرى تحملوا  
رسالتنا لقيت من رفقة رشدا  
وقول الصمة بن عبد الله القشيري:

نظرت وطرف العين يتبع الهوى  
بشرقي بصرى نظرة المتطاول  
وقول المتلمس (وهذا كان له ولد يقال له عبيد المنان هلك ببصرى ولا عقب له):  
لم تدر بصرى بما آليت من قسم  
ولا دمشق إذا ديس الكراديس  
وقول آخر:

ولو أعطيت من ببلاد بصرى  
وقنسرين من عرب وعجم  
وورد في كتب السيرة ذكر لقصور بصرى هذه.

\* \* \*

لم ينقطع قيام سوق بصرى بعد الإسلام بل زاد أمد قيامها. وكان العرب في جاهليتهم إذا انتهوا من سوق دير أيوب أقاموا سوق بصرى حيث كان يشرف عمال الرومان. وتطول مدة هذه السوق طويلاً يتناسب هو وما قطعوا في سفرهم إليها من زمن. وقد بقيت تلك السوق حتى زمن المرزوقي (القرن الخامس الهجري) إذ ذكر أنه أدركها تقوم خمساً وعشرين ليلة، ونقل أنها كانت تقوم بولاية بني أمية من ثلاثين ليلة إلى أربعين وهي مدة طويلة ليس للعرب مثلها في عامة أسواقهم.

اشتهر لبصرى نوعان من البضاعة اختصت بهما. أما الأول فالخمر لأنها كانت من مدن الشام التي يحمل منها الخمر<sup>(١)</sup> ويتبجح العرب بذكرها. قال أبو ذؤيب الهذلي يذكر خمرتها:

سُلَافَة راح ضُمْنَتها إِداوَة  
مقيرة ردف لمؤخرة الرحل  
تزودها من أهل بصرى وغزة  
على جسرة مرفوعة الذيل والكفل<sup>(١)</sup>

وأما الثاني فالسيوف وقد اشتهرت بصنعها بصرى كما اشتهر كثير غيرها من قرى الشام التي تدنو من الريف حتى قيل للسيوف ((مشرقي)) نسبة إلى مشارف الشام وبصرى أحدها فتنتسب إليها السيوف البصرية قال الشاعر:

يعلون بالقلع والبصري هامهم<sup>(٢)</sup>

وقال الحصين بن حمام المري يصف خيل الغارة:

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) كذلك صرخد، وجليون كانتا مشهورتين بخمرهما أيضاً.

(٣) مر شرحهما ص ٣٤٥.

(٤) القلع: فأس صغيرة تكون مع البئاء، ومعدن ينسب إليه الرصاص الجيد.

عليهن فتيان كساها مُحَرَّق  
صفائح بُصرى أخلصتها قيونها  
وكان إذا يكسو أجاد وأنعما  
ومطرداً من نسج داوود معلماً<sup>(٢)</sup>  
وأمر هذه السوق من إشراف ومكس، إلى عمال الروم عليها وكثيراً ما يكونون  
عرباً من غسان.

---

<sup>(٢)</sup> الصفائح: السيوف. والقيون: الحدادون. والمطرد: الدرع. والمُعلم: ما عليه علامة.

## سوق أذرعات

أذرعات بلد بالشام قرب البلقاء (وهي اليوم تعرف بدرعا) أمرها قريب من أمر بصرى وتليها في الشأن، وعلائق العرب التجارية بها في الجاهلية كعلائقهم ببصرى، واستفاضتها على ألسن شعرائهم تشبه ما لبصرى، من مثل قول امرئ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها      بيثرب أدنى دارها نظر عالي<sup>(١)</sup>  
وقول الآخر:

وهيجتني من أذرعات وما أرى      بنجد على ذي حاجة طرباً بعداً؟  
واشتهرت بخرمها في الشعر فقال أبو ذؤيب الهذلي:  
فما إن رحيقٌ سبَّتها التجا      ر من أذرعات فوادي جَدْرُ  
وقال:

فما فضلة من أذرعات هوت بها      مذكرةٌ عنس كهادية الضحل<sup>(١)</sup>  
سلافة راح... إلخ، وتنسب إليها فيقال خمر أذرعية.

كان يحكمها في الجاهلية عمال للروم فلما جاء الإسلام صولح أهلها ونالوا عهداً لأنفسهم وبلدهم. فلما كانت جيثة عمر إلى الشام استقبلوا. قال عبد الله بن قيس:

((كنت ممن لقي عمر مع أبي عبيدة مقدمه الشام، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلسون<sup>(١)</sup> من أهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال عمر: ((مه، امنعوهم)). فقال أبو عبيدة: ((يا أمير المؤمنين هذه سنتهم، وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم)). فقال عمر: ((دعوهم)).

تقوم هذه السوق بعد سوق بصرى بسبعين ليلة<sup>(٢)</sup>. ويطول أمدها. والغالب أنهم يقيمونها مدى الصيف. وبقيت هذه السوق قائمة بعد الإسلام بكثير، فقد أدركها المرزوقي ووصف طول قيامها بقوله: ((وسوق أذرعات اليوم أطولها قياماً وربما لقيت الناس صادرين منها وأنا وارد)).

(١) تنور الناس من بعيد: أبصرها.  
(١) المذكرة: الناقة العظيمة الرأس. والعنس: الناقة الصلبة. والضحل: الماء القليل. وهادية الضحل وأتانه: صخرة على قم الركبة، ملساء أو بعضها وبعضها غائر. ديوان الهذليين ٣٩/١ (طبعة دار الكتب المصرية).  
(١) النقاليس: الضرب بالدف والغناء واستقبال الولاة عند قدمهم بأصناف اللهو، وأن يضع الرجل يديه على صدره ويخضع - القاموس.  
(٢) الأزمنة والأمكنة ١٧٠/٢.

## سوق الحيرة

لم يذكر هذه السوق أحد ممن تعرض لذكر أسواق العرب مع عظم شأنها وقصد تجار العرب إليها. وليس من المعقول أن تقصد قریش وأهل الطائف، فارس للتجارة فيها ولا يكون لهم أسواق موسمية في العراق وهي طريقهم وأهلها عرب.

إلا أن في الأغاني ما يدلنا على أن بها سوقاً عظيمة موسمية، قال أبو الفرج: ((خرج الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ومعه عطر يريد الحيرة، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنة))<sup>(١)</sup>.

وبلدة كالحيرة بعيدة الصيت في جزيرة العرب، يتحدثون بخصبها وعظمتها ومنازلها.. وأحداث ملوكها بني نصر، وعلائقهم مع من جاورهم من العرب، ويتحدثون عن الشعراء العظام الذين قصدوا ملوكها للنوال والهيئات كالنابغة الذبياني والأعشى وحسان بن ثابت وغيرهم.. بلد كهذا لا بد أن يكون مرتبطاً بما جاوره من الأقاليم ارتباطاً تجارياً وثيقاً، وهي أولى من بصرى وأذرعان بأن يكون فيها للعرب أسواق عامة.

ويطلعنا التعمق في التنقيب على أسواق ثانية تقام في أماكن من العراق ولا تقتصر على العرب وبضائعهم، بل يخالطهم فيها أجانب من فرس وغيرهم ويحمل إليها متاع الهند وفارس كما يحمل إليها أمتعة الشام واليمن والبحرين فقد جاء في الطبري عند كلامه على فتوح العراق:

((سوق الخنافس سوق يتوافى إليها الناس ويجتمع بها ربيعة وقضاعة يخفرونهم.. قال رجل من أهل الحيرة للمثنى: ((ألا ندلك على قرية يأتيها تجار مدائن كسرى والسواد وتجتمع بها في كل سنة مرة، ومعهم فيها الأموال كبيت المال؟ وهذه أيام سوقهم)).. فصبحهم في أسواقهم فوضع فيهم السيف.. وأخذوا ما شاؤوا. وقال المثنى: ((لا تأخذوا إلا الذهب والفضة، ولا تأخذوا من المتاع إلا ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابته، وهرب أهل الأسواق وملاً المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء والحر من كل شيء..))<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

الحيرة مدينة واسعة الشهرة منذ القديم، ذكروا أن بانيتها بختنصر، وأنه بناها لتجار العرب الذين وجد بحضرته ثم صارت من بعده عاصمة ملوك العراق حتى إن الطبري ليذكر أن لها قبل الإسلام أكثر من خمسة قرون<sup>(١)</sup>. وموضعها إلى شمال الكوفة على ثلاثة أميال منها. طيبة الهواء كثيرة البساتين. ردد ذكرها الشعراء منذ الجاهلية وفتنوا بها وبخمرها وحاناتها وأديارها فكانت بحق مقصف العرب عامة. ونسبوا إليها فقالوا: (حاري) على غير القياس؛ وقالوا: (حيري) على القياس، فمن الأول قول عمرو بن معد يكرب:

(١) الأغاني ٩٥/١٦.  
(١) تاريخ الطبري ٢٢٠٣/١ طبع أوربة.  
(١) تاريخ الطبري ٧٤٨/١ طبع أوربة.

كأن الإثمد الحاري منها  
ومن الثاني قول بعضهم:

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا  
إلى كل حاري قشيب مشطب<sup>(٣)</sup>

ولها تاريخ طويل يدل على قدمها وشهرتها قبل الإسلام وأنها كانت ميداناً لحوادث  
جسام ليس هذا مقام سردها فليرجع إليها في مظانها.

وذكر ياقوت في سبب بنائها أن: ((يختصر قد جمع من كان في بلاده من العرب  
بها فسمتها النبط أنبار العرب.. فصار في الحيرة من جميع القبائل من مذحج وحمير  
وطيئ وكلب وتميم وتنوخ.. فأهل الحيرة ثلاث أصناف: فثلث: تنوخ وهم كانوا  
أصحاب المظال وبيوت الشعر ينزلون غربي الفرات بين الحيرة والأنبار فما فوقها.  
والثلث الثاني: العباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها، وهم قبائل شتى تعبدوا  
لملوكتها وأقاموا هناك، وثلث: الأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها)).  
وأشار إلى بعض هؤلاء الشاعر:

وغزا تبغ في حمير حتى  
نزل الحيرة من أهل عدن

واشتهر في ظاهر الحيرة بناءان عظيمان هما قصر الخورنق وقصر السدير،  
وبقيت مسكن ملوك العرب من بني نصر ولخم حتى كان آخرهم المناذرة الذين  
انقضى ملكهم بالإسلام.

ارتباط هذه البلدة بفارس وخضوع أمرائها لهم وكثرة العلائق بين البلدين، وسَّع  
أفقها التجاري وأكثر فيها الغنى والترف وأحدث فيها نوعاً من الثقافة ليس في غيرها.  
فقد مرَّ بك أن قريشاً تعلمت الكتابة من أهل الحيرة، وأن الذي قرأ صحيفة المتلمس  
غلام حيري، وأن النضر بن الحارث شيطان قريش تعلم من الحيرة أخبار ملوك  
فارس وأحاديث دياناتهم وأساطيرهم فكان إذا جلس رسول الله يدعو قريشاً إلى  
الإسلام ويحذرهم، خلفه في مجلسه فقص عليهم من أحاديثه التي نقلها من الحيرة،  
وعلمت أن لقريش رحلات وقوافل تجارية إلى الحيرة، وأن للنعمان ملك الحيرة  
لطائم يجهزها إلى عكاظ كل سنة. وهذا الاختلاط الشديد بين أهلها والفرس والأنباط  
جعل أنساب الحيريين في منزلة دون منزلة بقية أنساب العرب، حتى إن من العرب  
من يُعير بالنسب إلى الحيرة. وانظر إن شئت ما كان بين قيس بن عاصم وعمرو ابن  
الأهتم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد جاء في الأغاني أن قيس ابن  
عاصم قال في عمرو: ((والله يا رسول الله ما هم منا، وإنهم لمن أهل الحيرة!!))  
وقال فيه:

لولا دفاعي كنتمُ أعبداً  
مسكنها الحيرة فالسيلحون

فقال عمرو بن الأهتم متأثراً بهذا التعبير الذي لم يجد له ما يفي به إلا أن ينسب  
خصمه إلى الروم: ((بل هو يا رسول الله من الروم وليس منا)). ثم قال:

إن تبغضونا فإن الروم أصلكم  
والروم لا تملك البغضاء للعرب<sup>(١)</sup>

(٢) الإثمد: حجر للكحل. وأسف الجرح دواءً: أدخله فيه.  
(٣) الحاري: السيف، والمعنى أنهم احتبوا بالسيوف، لسان العرب، مادة (حير).

هذا وإن نحن استرشدنا بنتفٍ من الأخبار تأتي عرضاً في مطاوي الكلام، عرفنا أن للحيرة شأنًا تجاريًا ممتازاً، وأن عادة العرب جرت منذ القديم بالتجارة إلى الحيرة، وأنها كانت تؤمها القوافل الكبرى التي تقصد البر حاملة متاجر الهند من عمان إلى الشام، فكانت الحيرة محطة كبرى لتلك القوافل المحملة. وكان أكثر الطراء عليها تجاراً يختلفون إليها<sup>(١)</sup>.

ولما قتل الشيزم بن الحارث الغساني رجلاً من قومه وهرب إلى الحيرة تظاهر بأنه ((رجل من خيبر أقبل إلى هذه البلدة بتجارة))<sup>(٢)</sup>.

وخرج خمسة نفر من طيئ من ذوي الحجا والرأي يريدون سواد بن قارب الدوسي ليمتحنوا علمه.. فأهدوا إليه طرفاً من طرف الحيرة فضرب عليهم قبة ونحر لهم<sup>(٣)</sup>..

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن الأعشى باع في سوق الحيرة كرشاً مدبوغة مملوءة عنبراً بثلاث مئة ناقة حمراء<sup>(٤)</sup>.

مما تقدم، ومما سنذكره بعد قليل، يتبين أن للحيرة مع شأنها التجاري شأنًا صناعياً راقياً حتى صارت طرفها مما يتهادى به، وليس هذا بغريب فإن اختلاطها الواسع بفارس جعل أهلها يحذقون صناعات كثيرة مما أفادوه من الإيرانيين، والمعروف أن سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في الحيرة قبيل الإسلام<sup>(٥)</sup>.

يعرض في هذه السوق الأدم والعطر والبرود والجواهر والخيل والأموال وسائر ما يعرض في بقية أسواق العرب، مما يحمل من الشام أو اليمن أو عمان أو الحجاز أو البحرين أو الهند وفارس، عدا ما يحمل الأعراب إليها من إبل وشياه وقرود أحياناً<sup>(٦)</sup>.

وفيها أيضاً إلى هذا، أدب وشعر وخطابة ومنافرات ومما جدة كما يكون في غيرها من الأسواق، وسنعرض لبعض ما يجري فيها بعد قليل.

فلما كان الإسلام تضاءل شأنها التجاري، وانصرف الناس إلى الفتوحات فلم يمض القرن الأول للهجرة حتى صارت الحيرة ذات لون أخاذ يفتن الشبان وأهل اللهو والمجون. فطار لها صيت بعيد ساحر في منازلها وخمرها وحاناتها<sup>(٧)</sup> وأديارها، وصرنا بعد هذا الزمن لا نجد ذكراً للحيرة إلا حيث مجلس شراب، وجماعة قصف وبذخ، وخليفة يخرج للترويح عن النفس، وفتيان سئموا حياة الجد فخرجوا إلى الحيرة فنزلوا أحد أديرتها أو إحدى حاناتها فذبحوا وطعموا وشربوا وغنوا وأنشدوا. وأثري أصحاب الحانات من وراء ذلك إثراء عظيمًا، فصاروا يتنافسون بتجويد الخمر،

(١) الأغاني ١٢/١٥٠.

(٢) الطبري ١/٢٦٧٧.

(٣) الأمالي: النوادر ص ١٧٩ طبعة دار الكتب المصرية.

(٤) المصدر نفسه ٢/٢٨٩.

(٥) الأغاني ٩/١٢٥ دار الكتب.

(٦) زكي حسن (مجلة المقتطف، عدد يوليو ١٩٣٨، ص ٢٣٣).

(٧) الأمالي ٢/٤٤. وانظر تاريخ ملوك الحيرة للأعظمي ص ١٣٦.

(٨) عقد صاحب مسالك الأبصار فضلاً في كتابه عن حانات الحيرة فارجع إليه في ٣٨٩-٣٩١ وكذلك فعل في أديارها.

وجذب الزائرين حتى كثر الذين ذهبوا لثرواتهم وفدحهم الدين من جراء خمرة الحيرة.

((ولما حرم بعض أمراء الكوفة بيع الخمر على خماري الحيرة وركب فكسر نبيذهم.. جاء بكر بن خارجة يشرب عندهم على عادته، فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق، فبكى طويلاً وقال شعراً<sup>(١)</sup> ويظهر أن الأمراء لم يشددوا على الخمارين حتى رأوا من إقبال الفتیان عليهم الشر المستطير، وحتى كان رجال كأبي حية النميري يشربونها في الحيرة بنسيئة، وصارت السكرة في الحيرة إحدى المنى الغالية:

هل إلى سكرة بناحية الحيد      مرة يوماً قبل الممات سبيل؟!

أما بساتين الحيرة فحدث ولا حرج عما فيها من منازة نضرة وفتنة تحير اللب وتأسر العقل، وحسبك أن تعلم أن إبراهيم الموصلي خرج في ركب الرشيد إلى الحيرة، فلما نام الرشيد اغتتم غفلته فركب يدور في ظهر الحيرة فنظر إلى بستان فقصدته ((فإذا على بابه شاب حسن الوجه.. وإذا جنة من الجنان في أحسن تربة وأغزرها ماء.. فقال فيه:

جنان شماری ليس مثلك منظر      لذي رمدٍ أعيا عليه طبيب  
ترايبك كافور ونورك زهرة      لها أرج بعد الهدو طبيب

ثم صنع فيه لحناً وغناه الرشيد، فأعطاه ثمن البستان أربعة عشر ألف دينار.

لم نهتد إلى الزمن الذي تقوم فيه هذه السوق. أما ربيع الطريق فقد جعله النعمان طعمة لبني لام من طيئ لأنهم أصهاره<sup>(١)</sup> ونظراً لوقوع هذه السوق في سلطة المناذرة كانت عشورها إليهم لأنهم هم المسيطرون عليها. والأمر فيها على كل حال أكمل وأتم من بقية الأسواق من حيث النظام والأمن لأنها في أرض مملكة.

وإليك الآن مشاهد مما كان يجري في تلك السوق على سبيل المثال، ولا تعجب إذا كان أكثرها في الخمرة، لأن الخمرة والنضرة والعزف والشعر والغناء، هن الطابع الخاص للحيرة:

### ١ - منافرة حامية

خرج الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، ومعه عطر يريد الحيرة، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليها العرب كل سنة. فمر بحاتم بن عبد الله الطائي، فسأله الجوار في أرض طيئ حتى يصير إلى الحيرة، فأجازه. ثم أمر حاتم بجزور فنحرت وطبخت أعضاء فأكلوا.

ومر حاتم بسعد بن حارثة بن لام (وكان النعمان جعل ربيع الطريق لبني لام لأنهم أصهاره) وليس من بني أبيه غير ابن عمه ملحان، فوضع حاتم سفرته وقال: ((اطعموا حياكم الله)). فقالوا: ((من هؤلاء معك يا حاتم؟)) قال: ((هؤلاء جبراني)). قال له سعد: ((أفأنت تجير علينا في بلادنا؟)) قال له: ((أنا ابن عمك وأحق من لا

(١) الأغاني ٨٧/٢٠.  
(١) المصدر نفسه ٩٥/١٦.



تخفرون ذمته)). فقالوا: ((لست هذا)). وأرادوا أن يفضحوه كما فُضح عامر بن جوين قبله، فوثبوا إليه، فتناول أحدهم حاتم فأهوى له حاتم بالسيف فأطار أرنبة أنفه، ووقع الشر حتى تحاجزوا، فقال حاتم:

وددت وبيت الله لو أن أنفه  
ولكنما لاقاه سيف ابن عمه  
هواءً كما مت المخاط عن العظم  
فأب ومرّ السيف منه على الخطم<sup>(١)</sup>

فقالوا لحاتم: ((بيننا وبينك سوق الحيرة فما جدك ونضع الرهن)).

ثم نفذوا ما قالوا فوضعوا تسعة أفراس رهناً على يد رجل من كلب، ووضع حاتم فرسه ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة.

وسمع بذلك إياس بن قبيصة الطائي، فخاف أن يعينهم النعمان ويقويهم بماله، وسلطانه للصر الذي بينهم وبينه، فجمع إياس رهطه من بني حية وقال:

((يا بني حية إن هؤلاء القوم أرادوا أن يفضحوا ابن عمكم في مجاده)). فقال رجل منهم: ((عندي مئة ناقة سوداء، ومئة ناقة حمراء أدماء)) وقام آخر فقال: ((عندي عشرة حصن، على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منه إلا عيناه)) وقال حسان بن جبلة الخير:

((قد علمتم أن أبي قد مات وترك مالا كثيراً، فعلي كل تمر أو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة!)).

ثم قام إياس فقال: ((علي جميع ما أعطيتكم كلكم)).

وكان حاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا. فذهب إلى مالك بن جبار ابن عم له بالحيرة، كان كثير المال، فقال: ((يا بن عم، أعني على مخايلتي (مفاخرتي))) فقال مالك: ((ما كنت لأخرب نفسي ولا عيالي وأعطيك)) فانصرف عنه.

ثم أتى حاتم ابن عم له يقال له وهم بن عمرو، وكان حاتم يومئذ مصارماً له لا يكلمه، فقالت له امرأته: ((أي وهم! هذا والله أبو سفانة حاتم، قد طلع..)) فقال: ((مالنا ولحاتم، أثبتني النظر)) فقالت: ((حاتم!)) قال: ((ويحك، هو لا يكلمني، فما جاء به إلي؟)) فنزل حتى سلم عليه فرد سلامه وحياه ثم قال: ((خاطرت على حسبك وحسبي)) قال: ((في الرحب والسعة، هذا مالي (وعدته يومئذ تسع مئة بغير) تأخذها مئة مئة، حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد)).

فقالت له امرأته: ((أنت تخرجنا عن مالنا وتفضح صاحبنا (تعني زوجها؟)) قال:

((أذهبني عني فوالله ما كان الذي غمك ليردني عما قبلي)).

ثم إن إياس بن قبيصة قال: ((احملوني إلى الملك)) وكان به نقرس، فحمل حتى أدخل عليه. فقال: ((أنعم صباحاً أبيت اللعن)) فقال النعمان: ((وحيّاك إلهك)) فقال إياس:

(١) الخطم: الأنف.

((أتمد أختانك بالمال والخيل وجعلت بني ثعل في قعر الكنانة؟))<sup>(١)</sup> أظنّ أختانك أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جُوين، ولم يشعروا أن بني حية بالبلد؟ فإن شئت والله ناجزناك حتى يسفح الوادي دماً، فليحضروا لمجادهم غداً مجمع العرب)).

فعرف النعمان الغضب في وجهه وقال له:

((يا أحلمنا لا تغضب فإني سأكفيك)).

وأرسل النعمان إلى سعد بن حارثة وإلى أصحابه: ((انظروا ابن عمكم حاتماً فأرضوه، فوالله ما أنا بالذي أعطيك مالي تبذرونه، وما أطيق بني حية)).

فخرج بنو لام إلى حاتم فقالوا له: ((أعرض عن هذا المجاد)) وتركوا أرش أنف صاحبهم وأفراسهم وقالوا:

((قبحها الله وأبعدها، فإنما هي مقاذيف)).

فغدا إليها حاتم فعقرها وأطعمها الناس<sup>(١)</sup>.

## ٢- حرمة شاعر في ولده

قدم لبطة بن الفرزدق الحيرة فمر بقوم من بني تغلب فاستقراهم فقروه ثم قالوا له: ((من أنت؟)) قال: ((ابن شاعركم ومادحكم، أنا ابن الذي يقول:

أضحى لتغلب من تميم شاعر

إن غاب كعب بني جُعيل عنهم

يتباشرون بموته ووراءهم

فقالوا له: ((أنت ابن الفرزدق إذن؟)) قال: ((أنا هو)) فتنادوا: ((يا آل تغلب، اقصوا حق شاعركم والذائد عنكم في ابنه)).

فجعلوا له مئة ناقة وساقوها إليه فانصرف بها<sup>(١)</sup>.

## ٣- حلق لمة

شرب طُخيم الأسدي بالحيرة، فأخذه العباس بن مَعْبُد المري، وكان على شُرط يوسف بن عمر، فحلق رأسه، فقال:

وبالحيرة البيضاء شيخ مسلط

لقد حلقوا منا غداً كأنها

يظلّ العذارى حين تحلق لمتي

إذا حلف الأيمان بالله برت

عناقيد كرم أينعت فاسبطرت<sup>(٢)</sup>

على عجل يلقطنها حين جُزّت<sup>(٣)</sup>

## ٤- خمارة وشرطي

(١) الأختان: الأصهار، والكنانة: جعبة السهام.

(٢) الأغاني: ٩٥/١٦.

(٣) ثقله: نثره بمرة واحدة. وثقل الرحي: وضع تحتها ما يقيها من الأرض ولا يتفلون الرحي إلا إذا كانت طاحنة.

(٤) الأغاني ١٣/١٩.

(٥) الغداف الأسود: يعني شعره. واسبطرت: طالت وامتدت.

(٦) الأغاني ١٧٩/٨ (دار الكتب). واللمة: الشعر المجاوز شحمة الأذن، وجز الشعر: قصه.

كان الأقيشير الشاعر يكتري بغلة أبي المضاء المُكاري فيركبها إلى الخمارين بالحيرة، وكان لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم: يجعل درهمين في كري بغل إلى الحيرة ودرهمين للشراب ودرهماً للطعام. فيقال إنه دفع ثمن البغل في الكراء<sup>(٤)</sup>.

شرب يوماً في بيت خمار بالحيرة فجاء شرطي من شرط الأمير ليدخل عليه، فغلق الباب دونه، فناداه الشرطي: ((اسقني نبيذاً وأنت آمن)) فقال: ((والله ما آمنك، ولكن هذا ثقب في الباب فاجلس عنده، وأنا أسقيك منه)). ثم وضع أنبوباً من قصب في الثقب وصب فيه نبيذاً من داخل، والشرطي يشرب من خارج الباب حتى سكر فقال الأقيشير:

سألني الشرطي أن نسقيه  
فسقيناها بأنبوب القصب  
إنما نشرب من أموالنا  
فسلوا الشرطي ما هذا الغضب<sup>(١)</sup>

## ٥- مسخ

قد جرت الطير أيا منينا  
قالت - وكنت رجلاً فطينا -:  
هذا ورب البيت إسرائينا<sup>(٢)</sup>.

قال أبو بكر في كتاب المتناهي في اللغة: ((هذا أعرابي أدخل قرداً إلى سوق الحيرة ليبيعه، فنظرت إليه امرأة فقالت: ((مسخ)) فقال هذه الأبيات.

## ٦- وطنية صادقة

أختم الكلام عن الحيرة بهذا الدرس البليغ الذي ألقاه علينا أحد فتيان الحيرة منذ ثلاثة عشر قرناً في حب الوطن ونصرته. وهو درس عملي يخلق بقيادة الفكر وزعماء العرب أن يستفيدوا منه فيكونوا قدوة في الوطنية العملية الحقيقية.

بلغ العرب في الاعتماد على أنفسهم والاقتصار على صناعاتهم في جميع شؤونهم أمراً عجبياً، حتى إن بلدة كالحيرة ليست من البلدان الكبرى حينئذ في الأقطار الإسلامية، استطاع أهلها أن يعتمدوا على محصول بلدتهم ويكتفوا به في كل حاجاتهم حتى الكمالية منها. نرى ذلك في هذا الخبر الطريف الذي سنرويهِ لك عن الأغاني ونودّ لو جرؤنا على تقليد أسلافنا في مكرمتهم تلك، إذن لكنا حذقنا درساً في الإخلاص الصادق للوطن، ولما استعبدتنا أموال الغرب وشركاته، ولما كنا جميعاً رجالاً ونساءً وأطفالاً، جنوداً لهم - على رغم أنوفنا - نوطد أقدامهم في بلادنا بما نتهافت على استهلاكه من بضائعهم، وبما يطير من جيوبنا إلى خزائنهم ومصانع

(٤) الأغاني ٨١/١٠.

(١) الأغاني ٨٦/١٠. هذا وقد قال عبد الملك بن مروان للأقيشير: ((أنشدني أبياتك في الخمرة)) فأنشده:

تريك القذى من دونها وهي دونه  
لوجه أخيها في الإناء قطوب  
كميت إذا فضت في الكأس وردة  
لها وفي عظام الشاربين دبيب  
فقال: ((أحسنت، ولقد أجدت وصفها، وأظنك قد شربتها!!)) فقال: ((والله يا أمير المؤمنين إنه ليربيني منك معرفتك بهذا!!)).

والقذى: الوسخ في الشراب. والكميت: الأشقر.

(٢) الأمالي ٤٤/٢ وإسرائيلين: إسرائيل، أوردها القالي في فصل (ما تتعاقب فيه اللام والنون).

أسلحتهم من أموال باهظة، لا داعي إلى تبذيرها إلا التقليد الأعمى وقشور التمدن السخيف والترف الكاذب، وإليك هذه الطرفة الثمينة:

((كان بعض ولاية الكوفة يذم الحيرة أيام بني أمية، فقال له رجل من أهلها وكان عاقلاً ظريفاً: ((أعيب بلدة بها يضرب المثل في الجاهلية والإسلام؟)).

قال: ((وبماذا تمدح؟)) قال: ((بصحة هوائها وطيب مائها ونزهة ظاهرها: تصلح للخف والظلف، سهل وجبل، وبادية وبستان، وبر وبحر. محل الملوك ومزارهم ومسكنهم ومثواهم، وقد قدمتها أصلحك الله مُحَفّاً فرجعت مثقلاً وزرتها مقلاً فأصارتك مكثرأ)) قال: ((فكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل؟)) قال: ((بأن تصير إليّ، ثم ادع ما شئت من لذائذ العيش فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه!)).

قال: ((فاصنع لنا صنيعاً واخرج من قولك)) قال: ((أفعل)).

فصنع لهم طعاماً وأطعمهم من خبزها وسمكها، وما صيد من وحشها: من ظباء ونعام وأرانب وحبارى. وسقاها ماءها في قلالها، وخرها في أنيتها، وأجلسهم على رقمها (وكان يتخذ بها من الفُرُش أشياء ظريفة). ولم يستخدم لهم حراً ولا عبداً إلا من مولديها ومولداتها من خدم ووصائف كأنهم اللؤلؤ، لغتهم لغة أهلها. ثم غناهم حنين (الحيري) وأصحابه في شعر عدي بن زيد شاعرهم وأعشى همدان، لم يتجاوزهما، وحياهم برياحينها، ونقلهم على خمرها، وقد شربوا بفواكهها. ثم قال له: ((هل رأيتني استعنت على شيء مما رأيت وأكلت وشربت واقترشت وشممت وسمعت بغير ما في الحيرة؟)).

قال: ((لا والله، ولقد أحسنت صفة بلدك ونصرتة فأحسنت نصرتة والخروج مما تضمنته، فبارك الله لكم في بلدكم))<sup>(١)</sup>.

قال الدكتور زكي حسن أستاذ التاريخ في الجامعة المصرية:

((إن ما نجده في كتب التاريخ من وصف بساط كسرى الذي غنمه العرب في (المدائن)، لأكبر دليل على براعة الإيرانيين في هذه الصناعة القديمة. ومن المحتمل أن يكون أهل الحيرة قد نقلوا عنهم أسرار هذه الصناعة، والمعروف أن سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في (الحيرة) قبل الإسلام))<sup>(٢)</sup>.

## ٧- شهر خليع

مما يدخل في باب الأمن العام، ما جرت عليه القبائل حين يرتكب خليعوها الشرور، من إعلان البراءة منهم رسمياً على ملاء الناس في الأسواق العامة، متبرئين من جرائمه، وحينئذ ينحاز [المجرم] عن قبيلته ويلتحق بغيرهم.

هذا قيس بن الحداية كثرت جرائمه، فلم يعد قومه بنو خزاعة يعترفون به، وكان من شعراء الجاهلية، فاتكأ، شجاعاً، صعلوكاً، خليعاً؛ فخلعته خزاعة بسوق عكاظ،

(١) الأغاني ٣٥١/٢ (دار الكتب).

الظلف: اللبقر كالحف للبعير وكالحافر للفرس. والحبارى: طائر طويل العنق رمادي اللون في منقاره بعض طول. والرقم: ضرب مخطط من الوشي أو الخمر. والوصائف جمع وصيفة: وهي الجارية البالغة حد الخدمة وكذلك الوصيف. ونقلهم: أطعمهم النقل، والنقل: ما ينتقل به على الشراب من فستق وتفاح وغيرهما.  
(٢) مجلة المقتطف عدد يوليو ١٩٣٨ ص ٢٣٣.

وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه، فلا تحتمل جريرة له، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه.. ولما خلعت خزاعة قيساً تحوّل عن قومه، ونزل عند بطن من خزاعة يقال لهم بنو عمرو بن عدي بن خالد، فأووه وأحسنوا إليه. وكان مما أثنى عليهم به هذه الأبيات:

رجالاً حموه آل عمرو بن خالد	جزى الله خيراً عن خليع مطرد
وأبنائها من كل أروع ماجد	وقد حَدَبَتْ (عمرو) عليّ بعزها
عظام مقيل الهام، تُعز السواعد <sup>(٢)</sup>	مصاليت يوم الروع كسبهم العلى

---

(٢) الأغانى (طبعة الساسي) ٣/١٣ و ٥.

## أسواق العرب ب- في الإسلام

### أسواق الكلام

لاحظ الجاحظ أن للعرب أسواقاً ((كانت بين دورهم ودور العجم، يلتقون فيها للتسوق والبياعات، وهي كانت أوسع أبواب الدخيل والمغرب [في التسلل والعلوق] في هذه اللغة العربية. وذكر منها الجاحظ في كتابه (الحيوان) سوق الأبلّة وسوق الأنبار وسوق (لقة) [كذا] وسوق الأنبار وسوق الحيرة))<sup>(١)</sup>.

ختم الرافعي - في آخر ص ٨٩ من الجزء نفسه - كلامه على أثر الأسواق في ثراء لغة العرب بهذه الملاحظة القيمة جداً: ((ولا يعرف لهم من أسواق الكلام غير المربد وعكاظ)).

### الأسواق في الإسلام

لم يعد - وقد تحضر العرب - من حاجة إلى مواسم وأسواق على ما كان عليه الحال في الجاهلية، لأن العرب سكنت المدن الكبار من بلاد الشام والعراق ومصر وفارس والروم، ومصرت هي لأنفسها أمصاراً عظم شأنها مع الزمن كالقوفة والبصرة وبغداد والقيروان..

فصارت تستغني كل مدينة بأسواقها الدائمة عن أسواق المواسم، وكفى الله العرب مؤونة الترحال بين أسواق الجزيرة، بما فتح عليهم وسهل من تجارات تأتيهم إلى مدنهم، بحيث يجدون في كل بلد عُرُوض كثير من البلدان. وعدل الذين يعانون التجارة منهم عن أسفار البوادي إلى أسفار البحار. وأصبح من المنتظر تضائل الأسواق الجاهلية بتضائل آثار البداوة من حياة العرب، وانتقلوا إلى حضارة وارقة الظلال ريانة الجنبات يأتيهم فيها رزقهم رعداً من كل مكان، فأمّحت أسواق الجاهلية قبل انقضاء القرن الثاني للهجرة ورسخت أقدم التجارة في المدن والثغور.

ولكن سوقاً واحدة نشأت في الإسلام احتفظت بكثير من خصائص أسواق الجاهلية، وزادت عليها بميزات واسعة أسبغتها الحضارة الجديدة واقتضتها حاجات الرقي الحديث: تلك هي سوق المربد في البصرة، السوق التي استطاعت أن تكون مرآة تعكس حياة العرب في الجاهلية كما تصوّر حضارتهم في الإسلام. وسنرى كيف استطاعت هذه السوق أن تصهر الحياتين معاً في بوتقة واحدة، لتصوغ منهما هذه الحلية العجيبة التي نعرضها عليك الآن:

### البصرة - المربد

يتقاضانا الكلام على المربد أن نصف البصرة، المدينة التي كان المربد سوقها العامة، نظراً لمكانتها التجارية، إذ إنها ثغر العراق في الإسلام. وليس من المستطاع

<sup>(١)</sup> تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعي ٨٧/١ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٠ بعناية محمد سعيد العريان.

أن نفهم المربد على حقه إذا لم نعرف أحوال بلده البصرة، وسيغنيننا هذا التمهيد عن شروح وحواشٍ كثيرة عند كلامنا على المربد نفسه.

مصرت البصرة سنة (١٧) أيام عمر بن الخطاب ((في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم كما أمر الخليفة عمر رحمه الله))، وكانت في الجاهلية من ثغور العراق، فيها خليط من أم شتى، فرس ويونان أحلهم فيها الإسكندر، وهنود انتشروا في بطائعها، وقد نزلها العرب منذ القديم، كما فيها أنباط غير قليلين. وكانت هي والأبلة مركزين للتجارة الداخلية والخارجية، وكان يرتادها تجار العرب، وتردد عليها أبو بكر الصديق في الجاهلية مرات.

ولم تكن على عهد الراشدين بالمدينة الكبيرة، لحدائثة نشأتها العربية، وكانت مستوخمة رديئة الهواء والماء، ليست بالخصبة ولا الغنية، حتى اضطر عمر إلى أن ينظر إلى أهلها نظر رحمة، حينما شكوا إليه أمرهم، فقد جاء في فتوح البلدان<sup>(١)</sup>:

((قدم الأحنف بن قيس على عمر في أهل البصرة فجعل يسألهم رجلاً رجلاً والأحنف في ناحية البيت، في بت<sup>(٢)</sup> لا يتكلم فقال له عمر: ((أما لك حاجة؟)) قال:

((بلى يا أمير المؤمنين: إن مفاتيح الخير بيد الله، إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة، وإننا نزلنا سبخة بشاشة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها، ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج، ومن قبل المغرب الفلاة، فليس لنا زرع ولا ضرع، يأتينا منافعنا وميرتنا في مثل مريء النعام، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة لذلك فتربق<sup>(٣)</sup> ولدها كما تربق العنز يخاف بادرة العدو وأكل السبع، فإلا ترفع خسيستنا وتجبر فاقتنا نكن كقوم هلكوا)).

فألحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء. وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحتقر لهم نهراً.

هذه بداية أمر البصرة وقد ظلت على حالها، لم تترق منها إلى خبر منها، حتى صدراً من أيام الأمويين، ومضت خلافة معاوية ولم ينفرج ضيق أهلها تمام الانفراج فقد قدم الأحنف أيضاً على معاوية وادأ لأهل البصرة يستعطفه لهم، وكان فيما وصف به أهلها قوله: ((أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول واتصال من الذحول، فالمكثر فيها قد أطرق، والمقل قد أملق، وبلغ منه المخنق))<sup>(١)</sup>.

وبانقضاء عهد الفتن فيها واستقرار الأمر بمثل زياد وابنه والحجاج، انصرف أهلها لشؤونهم فعكفوا على الزراعة والتجارة وانتعشوا واستفاض لهم زرع ونخيل وتجارات، فمن ثم عدت البصرة من أكبر ثغور الإسلام قاطبة.

أما الهواء فيها فرديء وكذلك الماء فهو غير عذب، حتى إنهم ليجلبونه من المسافات البعيدة. وقد حفرت فيها أقنية وجداول كثيرة تتشعب عن النهر الأعظم،

(١) ص ٣٥٦.

(٢) البيت: طيلسان من خز.

(٣) ربقه: ربطه بالربق، وهو حبل فيه عدة عُرى.

(٤) زهر الآداب ٨٧/١ (الطبعة الثانية - مبارك) المحول جمع محل: وهو القحط. والذحول جمع ذحل: وهو الثأر: يعني أنهم تقانوا لكثرة الحروب والفتن بينهم. وأطرق: غض بصره حياءً لأنه لا يجد ما يعطي. وأملق: افتقر.

ووصف الأقدمون كثرتها وصفاً نكاد لا نصدقها، جاء في مسالك الممالك للإصطخري:

((البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم، وإنما اختطها المسلمون أيام عمر، ومصرها عتبة بن غزوان وهي خطط وقبائل كلها. ويحيط بغربيها البادية، وليس فيها إلا أنهار. وذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عُدَّت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على (١٢٠٠٠٠) نهر ((كذا!!!)) تجري فيها الزوارق. وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال. حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع، فربما رأيت في مقدار رمية سهم، عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زواريق صغار، ولكل نهر اسم ينسب إلى صاحبه الذي احتفره أو إلى الناحية التي يصب فيها وأشبه ذلك من الأسامي، فجوزت أن يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها. وأكثر أبنيتها بالأجر (هذه على عهد الإصطخري في القرن الرابع الهجري) وهي من بين سائر العراق مدينة عشرية، لها نخيل متصلة من عبدس إلى عبادان نيفاً وخمسين فرسخاً متصلاً لا يكون الإنسان منه في مكان إلا بحيث نهر ونخيل أو يكون بحيث يراهما، وهي في مستوى لا جبال فيه ولا بحيث يقع البصر على جبال.. وبها نهر يعرف بنهى الأبله طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والأبله<sup>(١)</sup>، وعلى حافتي هذا النهر قصر وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدَّت على خيط واحد. ويتشعب هذا النهر إلى أنهار كثيرة، فمنها ما يقارب هذا النهر في الكبر.. وهذه الأنهار مخترقة بعضها إلى بعض وكذلك عامة أنهار البصرة حتى إذا جاءهم مد البحر تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم وجميع أنهارهم من غير تكلف، فإذا جزر الماء انحط حتى تخلو منه البساتين والنخيل ويبقى في الأنهار، إلا أن الغالب على مائهم الملوحة وإنما يستقون إذا جزر الماء إلى حد نهر معقل ثم يعذب فلا يضره ماء البحر)).

ونحن معنيون بأن نعرف عن البصرة ميناء العراق الأكبر، تفاصيل مسهية لأنها سوق العراق العامة يومئذ، فلا غنى لنا عن شاهدها ونعتها لنقف على مكانتها وسعة غناها. ولولا هذه الصفات التي وصلتنا عن الأقدمين في مختلف حالاتها، لما استطعنا أن نعلم التدرج الذي ترقَّت فيه البصرة من الإملاق إلى الثروة. ثم صار لهذه الأرض السبخة الفقرة على عهد عمر، الشأن العظيم والمكانة البعيدة في نفوس الكبار حتى قال زياد: ((لو أضللت البصرة لجعلت الكوفة لمن دنني عليها!))<sup>(١)</sup>.

والذين نعتوها متفقون على رداءة هوائها مع سعة عيشها، فقد روى ابن عبد ربه عن أبي العباس أنه قال: ((إنما مثل الكوفة مثل اللهاة من البدن، يأتيها الماء ببرده

(١) قال في القاموس: الأبله: موضع بالبصرة، أحد جنان الدنيا.  
(١) العقد الفريد ٢٦٥/٤. هذا وقد ألف العلماء في البصرة وخططها وأسواقها وأخبارها تواليف مستقلة لم نطلع عليها. وحسبك أن ابن حزم الظاهري وهو أندلسي في أقصى المغرب يقول في رسالته في فضل الأندلس: ((.. ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة، وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر كريسبي النسب، وصفها وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها)). نفخ الطيب ١٢٩/٢،  
فإذا كان ما اطلع عليه ابن حزم في أقصى المغرب أربعة كتب فقط، فمن المحتمل أن تزخر مكاتب الشرق بالكتب عن البصرة.



وعذوبته، ومثل البصرة مثل المئانة يأتيها الماء بعد تغير وفساد)). وقال الحجاج:  
((الكوفة بكر حسناء والبصرة عجوز بخراء أوتيت من كل حلي وزينة))<sup>(١)</sup>.

وسماها الناس لتقلب هوائها بالرعاء قال الفرزدق:

لولا أبو مالك المرجو نائله  
ما كانت البصرة الرعاء لي وطنا

والرعونة الحمق والاسترخاء.

إلا أن وخامتها لم تمنع أن يتكاثر فيها السكان ويطرّد لها النمو، حتى أصبحت كما وصفها جعفر بن سليمان بقوله: ((العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق)).

انقضى القرن الهجري الأول والبصرة قد قطعت شوطاً بعيداً في الازدهار، ولم تستقر الأمور لبني العباس في عهد المهدي ومن بعده حتى صارت البصرة ((باب<sup>(٢)</sup>) بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا، نظير مرسيلية اليوم بالنسبة إلى فرنسا، أو جنوة لإيطالية، أو ليفربول لبلاد الإنكليز. بل امتازت البصرة على تلك المراسي بنصيب أوفر وحظ أكبر إذا كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب، ومحط رحال الشرق والغرب، من جاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى، ولذلك استقبل بها العمران وكثرت فيها المصانع والصناعات، وصارت واسطة العرب والعجم وحُق لها أن تتلقب ((بقبة الإسلام)) كما سماها عمر بن الخطاب. ناهيك ببلد جمع لحسن الموقع أزداد الأشياء وأشبات الأرزاق ومختلف المكاسب والمطالب..

اشتهر أهل البصرة من قديم بالتطوح في الآفاق والترامي على الأسفار البعيدة والضرب في مناكب الأرض طلباً للرزق والتماساً للثراء (اشتهاراً) جعل الجاحظ يصرّح: ((بأنه ليس في الأرض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من أطراف الدنيا إلا وأنت واجد به البصري والمدني))<sup>(١)</sup> وقد اتفقت كلمة السائحين وأصحاب الرحلات على بعد همة البصريين في الترحال وغورهم في الاغتراب حتى قال أبو بكر الهمداني - وناهيك به من خبير -: ((وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري، ومن دخل فرغانة القسوى [شرقاً] والسوس الأقصى [غرباً] فلا بد أن يرى فيهما بصرياً أو حميرياً<sup>(٢)</sup>)). اهـ ملخصاً.

وكثرت الأصناف المجلوبة إلى البصرة من عامة الأقطار حتى لقيت بحق (بخزانة العرب)<sup>(١)</sup> واستطاع أحد أبنائها وهو الجاحظ، أن يؤلف في بضائع البصرة كتاباً مستقلاً يذكر فيه الأحجار الثمينة كالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد.. إلخ والطيب والعطر والروائح الطيبة والوشى والفرش، وما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجواري، وما يختار من البزاة والشواهين والبواشق والصقور.. بيتدئ بصفة النوع وما يستجاد منه ومن أين يجلب وأين أحسنه. والجاحظ كما نعلم لم يرحل إلى الهند ولا إلى فارس ولكن عنده في بلده تجارات تلك الأمم

(١) المصدر نفسه، وانظر أيضاً ما جاء في أحسن التقاسيم وفي رحلة ابن بطوطة من تقلب هوائها وعنفها. اللهاة:

الهند المطبقة في أقصى سقف الفم. والبخر: نتن ريح الفم.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب (مجلة المجمع العلمي العربي) ٣٢١/١٢.

(١) البخلاء (طبعة مصر سنة ١٣٢٣) ص ١٦٠.

(٢) البلدان للهمداني (لیدن) ص ٥١.

(١) انظر تاج العروس.

كلها. ولا نكون إلى الغلو إذ قلنا: إن البصرة في عصر العباسيين الذهبي كانت سوق العالم قاطبة.

ولم يقصر البصريون في الزراعة، بل عكفوا عليها وجودوها حتى اقتصوا بمعرفة النخيل وضروبه وأصول غراسه اختصاصاً فاقوا به كل أحد. قال الهمداني في كتابه البلدان: ((ولأهل البصرة من النخيل وأنواع التمور ما عدم مثله في جميع كُور النخيل، وذكر الجاحظ أنهم أحصوا أنصاف نخيل البصرة دون نخل المدينة ودون مصر واليمنية والبحرين وعمان وفارس وكرمان ودين الكوفة وسواها وخيبر وذواتها والأهواز وما بها، أيام المعتصم، وإذا ثلاث مئة وستون ضرباً من مُغل معروف وخارجي موصوف وبديع غريب مع طيب عجيب)).

وهذا افتنان غير قليل في إجادة الزراعة يدل على حذق بها ورقي بالغ. وذلك عدا ما شهرت به من الأسماك وأنواع اللحوم والألبان والأقطان وسائر التجارات.

ولها إلى ذلك شهرة أخرى تعيننا هنا في بحثنا كثيراً، وهي ما استفاض فيها من علوم ولغة وأدب وشعر حتى صارت تقصد لذلك دون سائر البلاد، وكثر فيها العلماء والشعراء والأدباء والكتاب والفقهاء والقراء... كثرة تستعصي على الإحصاء، وسنلم بذلك في كلامنا على سوقها الكبرى: المربد.

ولم تخل إبان ازدهارها من أن تكون متعة للناظرين ومنازه للمتفرجين، واشتهر فيها وادي القصر الذي قال فيه الجاحظ:

((ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى أرضاً كالكاפור، ورأى ضباباً تحترش، وغزلاناً وسمكاً وصياداً، وسمع غناء ملاح في سفينته، وحُداء جمال خلف بغيره)).  
وكان هذه الجملة الموجزة نثر ما كان الخليل بن أحمد قاله قبله:

زر وادي القصر نعم القصر والوادي في منزل حاضر إن شئت أو بادي  
ترى به السفن والظلمان حاضرة والضب والنون والملاح والحادي

وليس في أيدينا نعت للبصرة أبلغ ولا أكثر إحاطة ولا أصدق ولا أدق مما قاله خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان، فقد جمع لنا فيه من صفات البصرة وخصائصها ما لم نجده عند غيره، ولا ريب فهو ابن البصرة وأحد بلغاء الناس، وكل من أراد معرفة البصرة في القرن الأول الهجري فهو عيال على صفة خالد هذه، قال:

((يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم ويجيء هذا بالطبي والظليم، ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً، وخزاً وديباجاً، وبرذوناً هملاجاً، وخريدة مغناجاً، بيوتنا الذهب، ونهرنا العجب، أوله الرطب، وأوسطه العنب، وآخر القصب:

فأما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه، كالزيتون عندكم في منابته، هذا على أفنائه، كذاك على أغصانه؛ هذا في زمانه، كذاك في إبانه، من الراسخات في الوحل، المطاعم في المحل، الملحقات بالفحل، يخرجن أسفاطاً عظاماً، وأوساطاً ضخاماً كأنما مثلت رباطاً. ثم ينفلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الأبيض، ثم تتبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الأخضر، ثم تصير ياقوتاً أحمر وأصفر، ثم تصير عسلاً في شنة من سحاء ليس بقربة ولا إناء، حولها المذاب، ودونها الحراب، لا

يقربها الذباب، مرفوعة عن التراب. ثم تصير ذهباً في كيسة الرجال، يستعان به على العيال<sup>(١)</sup>.

وأما نهرنا العجب فإن الماء يقبل عنقاً، فيفيض مندفعاً، فيغسل غثها، ويبيدي مبثها، يأتينا في أوان عطشنا، ويذهب في زمان رينا، فنأخذ منه حاجتنا، ونحن نيام على فرشنا، فيقبل الماء وله عباب وازدياد، ولا يحجبنا عنه حجاب، ولا نغلق دونه الأبواب، ولا يتنافس فيه من قلة، ولا يحبس عنا من علة<sup>(٢)</sup>.

وأما بيوتنا الذهب، فإن لنا عليهم خرجاً في السنين والشهور، نأخذه في أوقاته، ويسلمه الله تعالى من آفاته، وننقله في مرضاته<sup>(٣)</sup>.

هذا ولم تحظ - فيما نعلم - بلدة من بلاد الإسلام، بمثل ما حظيت به البصرة، فقد تشارك في صفتها ثلاثة من فرسان البلاغة والعبقرية: خالد بن صفوان، والخليل بن أحمد، والجاحظ.

### سوق المربد

ننتقل من أسواق العرب في الجاهلية إلى أسواقها في الإسلام. ونلاحظ أننا لا نرى في هذه الأسواق الشأن الكبير الذي كان لأسواق الجاهلية، لأن العرب - كما تقدم - تحضرت وسكنت الأمصار وكثرت فيها الأسواق الدائمة تحوي كل نوع من أنواع البضائع المعروفة لهم. فلم تستجد في الإسلام سوق لم تكن في الجاهلية، إلا ما كان من أمر المربد<sup>(١)</sup> الذي ورث عكاظ، وقضى على ما كانت تتمتع به من ميزات، منذ عصر الراشدين، وأخذ أمر المربد (عكاظ الإسلام) بالازدياد حين بدأ شأن عكاظ (الجاهلية) بالخمول فالانتقاص فالموت.

نزلت العرب البصرة سنة أربع عشرة ومصرتها سنة سبع عشرة على تخطيط وضعه عمر وأرسل من يقف على تنفيذه. وكان المربد على الجهة الغربية من البصرة إلى البادية، ليكون أول ما ينزلون إذا قصدوا البصرة، وآخر ما يتركون إذا رحلوا عنها. ليقضوا فيه متاعاً لهم ومرافق يتبأغون بها في ظعنهم وإقامتهم.

معنى المربد: محبس الإبل ومربطها. والمربد أيضاً بيدر التمر لأنه يريد فيه فيشمس. والرُبدة لون إلى الغبرة.

ومربد البصرة هذا متسع للإبل تُربد فيه للبيع. وكان في الأصل سوقاً للإبل، حتى إذا كان عهد الأمويين صار سوقاً عامة تتخذ فيه المجالس ويخرج إليها الناس كل يوم، كل إلى فريقه وحلقته وشاعره، وتتعدد فيه الحلقات يتوسطها الشعراء والرُجَّاز ويؤمها الإشراف وسائر الناس يتناشدون ويتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون وقد وجدوا فيه مستجماً لأبدانهم وأرواحهم التي نهكتها الفتوحات، وحتت إلى سابق عهدها

(١) الشبوط والشيم: نوعان من السمك. والساج: خشب يجلب من الهند. والهملاج: الحسن السير. والأسفاط مفرها سقط: وعاء يجعل فيه الطيب ونحوه. والرياط جمع ريطه: وهي الملاءة والشنّة: القربة البالية والسحاء: القشر، والمذاب جمع مذبة: وهي من شعر ذنب الفرس يدفع بها الذباب. والكيسة جمع كيس.

(٢) العنق: سير فسيح سريع، والغث: الرديء. والعباب: موج أو ارتفاع الماء.

(٣) المربد على وزن منبر هذا هو المشهور. وكان الأخفش يقول المربد كمسجد- انظر شرح مقصورة ابن دريد ص ٤١ الطبعة الثانية (مصر ١٣٢٨هـ) هذا وللوقوف سوق تعرف بـ(الكناسة) ليس لها ذلك الشأن.

في عكاظ، فجددت منه ما سمح به الدين الجديد. بل غصت النظر فتسامحت أحياناً وأحيت ما أمات يبعثها الناس من تلقاء أنفسهم، أو بتشجيع خفي من بعض خلفاء الأمويين، ليشغلوا الناس بعضهم ببعض عن الخلافة وما يأتي الخلفاء من هنوات.

فالمربد معرض لكل قبيلة تعرض فيه شعرها ومفاخرها كما تعرض عروضها. وهو مجتمع العرب ومحدثهم ومنتزه البصريين، يؤمه منهم من عاف رخاوة المدن. وما زال يعلو شأنه وتستجيب له أسباب الكمال، حتى اشتد ولوع الناس به وارتياحهم له. ويظهر أن الأمر زاد على ما نعرف للمنازه اليوم من خطر، فقد بنيت فيه الدور الجميلة وتفاقم أمره حتى صار من الضروري لكل أحد في عصر العباسيين، أن يغطي المربد، إن لم يكن لحاجة فلترويح النفس وتمتيع البصر وترويض البدن، وحتى قال جعفر بن سليمان الهاشمي جملته المشهورة:

((العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، وداري عين المربد))<sup>(١)</sup>.

ذكر ياقوت في كلامه على (المربد) ما يشعر أن هواءها مستوخم بعض الشيء، وبخاصة للأعراب القادمين من البوادي، حيث الهواء النقي السليم. ونقل أن أعرابياً قدم البصرة فكرها فقال:

هل الله من وادي (البصيرة) مخرجي      فأصبح لا تبدو لعيني قصورها  
وأصبح قد جاوزت (سيحان) سالماً      وأسلمني أسواقها وجسورها  
ومربدها المذري عليه تراه      إذا سجت أبعالها وحميرها  
ففضحي بها عُبر الرووس كأننا      أناسي موتى نُبشَنَ عنها قبورها

وما زال في مجده هذا حتى خرب وخربت البصرة وتقلص العمران بينهما إلى أن صار بين المربد والبصرة ثلاثة أميال خراب على عهد ياقوت<sup>(٢)</sup> الذي ذكره في معجمه فقال:

((مربد البصرة من أشهر محالها. وكان يكون سوق الإبل فيه قديماً ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء والخطباء. وهو الآن بائن عن البصرة نحو ثلاثة أميال وكان ما بين ذلك كله عامراً وهو الآن خراب فصار المربد كالبلدة المنفردة في وسط البرية)).

نقلت قول ياقوت هذا في البصرة ومربدها، لأقول: إن الذي طراً عليها من الخراب والتأخر، طراً على العراق كله فمن يقرأ وصف العراق وبلدانه وجنانه ونعيمه وسكانه وعمرانه وخيراته... في كتب الأدب، وخاصة في المئة الثانية والثالثة والرابعة للهجرة، ثم يرحل إليه أول هذا القرن يجد وصفاً للعراق أصدق من قول ياقوت في تلك الأميال الثلاثة التي كانت عمراناً متصلاً بين البصرة ومربدها وأصبحت على عهده خراباً يباباً أفرد المربد من أمه وكان سوقاً من أسواقها، وجعله قرية بكتفي خطر لها .

(١) ثمار القلوب ص ١٢٨.  
(٢) توفي ياقوت سنة ٦٢٦ هـ.

ولئن كان لعكاظ ذلك الأثر في اللغة العربية: ألفاظها وأساليبها، إن المربد كان له أيضاً في اللغة أثر بعيد يختلف بعض الاختلاف عن أثر عكاظ، لما بين الزمانين والمكانين من التباين، فعكاظ في قلب الجزيرة العربية يحج إليها أشرف العرب وفصحاؤها، لا عجمة فيها ولا أثر لأعجمين البتة. والأمر في المربد على العكس: هو في طرف الجزيرة على الخليج العربي وبينه وبين الفرس قرب قريب. وزاد الإسلام والفتوح اختلاط العرب بالعجم فتطرق إلى اللغة الفساد والعجمة واللحن وغشي هذا الضعف مجالس الخاصة من العرب، وأزرى بلهجات الفصحاء حتى صرت تسمع الأمير على المنبر في المواسم يلحن على ملاء من الأعراب والبلغاء والأشرف، فعيب على الحجاج لحن وأثر عن عبيد الله بن زياد مثله، وكذلك نقلت لحنات عن أشرف العرب<sup>(١)</sup>. فكان المربد يعج بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو، معهم محابرتهم ودفاترهم يكتبون عن فصحاء الأعراب فيه، وهذ الظاهرة لم تكن في عكاظ قط، فهذا أبو عمرو بن العلاء يسأل الأصمعي: ((من أين أقبلت؟)) فيجيبه: ((جنئت من المربد)). فيقول: ((هات ما معك))، فيقرأ عليه الأصمعي ما كتب في ألواح، فإذا ستة أحرف (كلمات) لم يعرفها أبو عمرو، فيخرج يعدو في الدرجة ويقول للأصمعي: ((شمّرت في الغريب)). أي غلبتني<sup>(٢)</sup>.

ويشبه المربد عكاظ في أمر الشعر وحلقاته، بل يزيد عليه، فلكل شاعر حلقة، ولكل متهاجيين مجلس، ولكل قبيلة ناد وشاعر يزود عنها ويرد عدوان قريعه من القبيلة الثانية: فللعجاج ولرؤية حلقة، ولأبي النجم العجلي حلقة، ولجربير والفرزدق وراعي الإبل وذو الرمة، لكل منهم حلقة. وكثر هذا المحصول من الرجز والشعر والنكات الأدبية كثرة ملأت أمهات كتب الأدب بأخبارها، ولاشك في أن المربد في هذا فاق عكاظ مراحل واسعة، وفاته بعدد الشعراء والرجاز وكثرة الرواد وطلاب الأدب. وفي المربد أطفنت ثلاثة جمرات العرب، أطفأها جربير بقصيدته الدماغية. كان لكل من الشعراء رواة ينقلون له ما قاله خصمه وينشرون في الناس جواب شاعرهم عليه، وكان اهتمام الناس بالشعر والأدب من أقوى الأسباب العاملة في غزارته وكثرة المقبلين على تعلمه وروايته.

ويتفرد المربد بأمر علمي محض لم يمكن له في عكاظ من أثر، وهو أنه أرفد اللغة بمادة كثيرة، عليها أسس النحاة قواعدهم وأصلحوها، وذلك بما كانوا يقصدون له فصحاء الأعراب يسألونهم فيما فيه يختلفون، ويأخذون عنهم مستفيدين ومتعلمين. وحسبك أن تقرأ أياً شئت من كتب الأدب الأصول كالأغاني والأمالى والبيان والتبيين والكامل و.. لنجد أن أكثر مادتها فيما يتعلق بالعصر الأول والثاني للهجرة، كان المربد ميدانه وينبوعه.. وخذ إن أردت كتب التاريخ الكبرى كالطبري مثلاً ثم أبلغ في فهرس أماكنه إلى المربد، يأخذك العجب من كثرة المواطن التي ورد ذكر المربد فيها مع أن الكتاب كتاب سياسة وأخبار ملوك لا كتاب عامة وأدب.

فمن المربد وعلى هامشه غذي الأدب بقصص وأساطير كما غذي التاريخ بالأخبار الواقعة، ووضع من وضع من الرواة والأخباريين أحاديث حاكوا بها ما وقع، وفي حلقاته اضطرتت الأهواء المتباينة والنزعات المتضاربة، استغلها

(١) انظر كتابنا في أصول النحو ص ٨-١٤ (مطبعة الجامعة السورية) سنة ١٩٥٧.

(٢) النوادر للقالى ص ١٨٢.

الشعوبيون والمنافحون عن الحقائق على السواء، وشهدت هجوماً من أولئك ودفاعاً من هؤلاء.

والغريب أن هذا المربد لم يكتف بأن يستأثر بكل ميزة كانت لعكاظ، بل جمعها وضم إليها ميزات جديدة أفادها من خصائص عصره وطبيعة اجتماعه، فإن كانت في عكاظ حروب موضوعية بين قبيلتين فإن المربد كان ميداناً لأكبر فتنة وأشد حرب داخلية وقف فيها المسلم أمام المسلم يكافحه بسيفه ويشرع إليه رمحه. كان المربد ميداناً لإحدى مواقع الجمل، أول حرب فرقّت كلمة هذه الأمة المخيفة، وجعلت بأسها بينها، وكانت حلقة أولى في هذه السلسلة الطويلة التي نخرت الجسم الإسلامي، ومكنت عدوه منه، وكانت أفتك به من كل حرب صليبية وغارة تترتية، ووحشية أوربية.

فلأعرض على القارئ مشهداً صغيراً مما جرى في المربد من هذه الحرب ليحمل باقي المشاهد عليه:

خرجت السيدة عائشة مطالبة بدم عثمان، ناقمة على خلافة علي، ومعها مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرين وأنصاراً، منهم الزبير وابنه، وطلحة وابنه، ونفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم، وآخرون غير هؤلاء، فقصدت البصرة لأن لها فيها نفراً على رأيها. وكان على البصرة عثمان بن حنيف والياً لعلي، وقد مهدت لأمرها بكتب أرسلتها إلى رؤساء البصرة وساداتها فأجابها قليل ورد عليها قوم وحايده قوم. بعد هذا التمهيد القصير أنقل وصف هذا المشهد معتمداً على ما جاء في تاريخ الطبري:

((أقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد ودخلوا من أعلاه، أمسكوا ووقفوا وتلقاهم الناس حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان. وخرج عثمان أمير البصرة لعلي فيمن معه، ولحق بعائشة من أهل البصرة من شاء حتى غصّ المربد بالناس واحتل طلحة والزبير وجموعهما ميمنة المربد واحتل عثمان بمن معه ميسرته، فوقف طلحة يتكلم فأنصتوا له:

فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان رضي الله عنه وفضله والبلد وما استحل منه بقتل عثمان الخليفة، وعظم ما أتى إليه. ودعا إلى الطلب بدمه وقال: إن في ذلك إغزازاً لدين الله عز وجل وسلطانه، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه من حدود الله، وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم وإن تركتم لم يبق لكم سلطان ولم يكن لكم نظام. وتكلم الزبير بمثل ذلك، فقال من بميمنة المربد وكانوا يحبطون في حبل الخارجين على علي: ((صدقا وبراً وقالوا الحق وأمرنا بالحق)). وقال من في ميسرته: ((فجرا وغدرا وقالوا الباطل وأمرنا به، قد بعايا ثم جاء يقولان ما يقولان)). وتحاتى الفريقان وتحاصبوا وأزهجوا<sup>(١)</sup>.

فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جلييلة فحمدت الله وأثنت عليه وقالت: ((كان الناس يتجئون على عثمان رضي الله عنه ويؤزرون على عماله ويأتوننا فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم، فننظر في ذلك فنجده بريئاً تقياً وفيماً ونجدهم فجرة غدرة كذبة، يحاولون

(١) تحاتى: ترامى، والحتى: التراب. تحاصبوا: تراموا بالحصبة: وهي الحجارة، وأزهجوا: أثاروا الرهج وهو الغبار.

غير ما يظهرون. فلما قفوا على المكاثرة كاثروا، فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا غدر. ألا إن مما ينبغي - ولا ينبغي لكم غيره - أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه وإقامة كتاب الله عز وجل وتلت: { أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْثُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُتَوَلَّى فُرُيقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [آل عمران: ٢٣/٣].

فماج الناس وافترق أصحاب عثمان بن حنيف بعد سماعهم ما تقدم فرقتين: فقالت فرقة: ((صدقت والله وبرت وجاءت والله بالمعروف)). وقال الآخرون: ((كذبتم والله ما نعرف ما تقولون)). فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا.

أقعت هذه الخطب الانقسام في جماعة عثمان نفسه، ولما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا من المربرد في موضع الدباغين. وبقي أصحاب عثمان على حالهم يتدافعون حتى تحاجزوا ومال بعضهم إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان. وأتى عثمان فيمن معه حتى إذا كانوا على فم السكة سكة المسجد عن الدباغين استقبلوا الناس فأخذ عليهم بقمها.

كان الأمر يقف عند هذا، فإن أصحاب عائشة ما أرادوا حينئذ قتالاً، ولكن جماعة في أصحاب عثمان - ولعل أكثرهم ممن اشترك في دم الخليفة الشهيد - تعجلوا الحوادث وأرادوا بدء القتال، وكان حكيم بن جبلة على الخيل وهو أول من أقبل يُنشب القتال، وأشرع أصحاب عائشة رضي الله عنها رماحهم، وأمسكوا ليمسك أصحاب عثمان، فلم ينته حكيم ولم يُثن، وقاتلهم، وأصحاب عائشة كاقون، إلا ما دفعوا عن أنفسهم، وحكيم يُذمر<sup>(١)</sup> خيله ويركبهم بها ويقول: ((إنها قریش، ليردينها جنبها والطيش)). واقتتلوا على فم السكة. وأشرف أهل الدور - والموقعة بجوارهم والمربرد يومئذ سوق داخله في البلد حولها البيوت - ممن كان له في واحد من الفريقين هوى، فرموا الآخرين بالحجارة. وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها طويلاً وثار إليهم الناس حتى حجز الليل بينهم<sup>(١)</sup>.

هذا حادث من حوادث كثيرة وقعت في المربرد واستمرت حتى انتهت حرب الجمل باندحار أصحاب عائشة. ذكرته ليقف القارئ على صورة من هذه المأساة الفادحة التي كانت وما بعدها سبباً في فرقة المسلمين وحدوث طوائف ونحل يلعن بعضها بعضاً ويحمل بعضها على بعض، تتناكر وتتقاذف وترى كل منها أن غير المسلم أقرب إليها من أهل الطائفة الثانية، وكثيراً ما استعان بعضها على بعض بالأجنبي عدوهما معاً، بل كثيراً ما عمل الدخيل على توسيع الشقة بينهما وقوى بعضاً على بعض وأمد الفريقين من وراء وراء، بالسلاح والمال ليفنيا جميعاً.

وتمضي عشرات السنين ويصلى العراق بسطوة الحجاج وإرهابه، وتشتد الوطأة فلا يكون المتنفس إلا في المربرد، حيث يخطب الناس الزعيم الثائر عبد الرحمن بن الأشعث قائلاً:

(١) التذمر: الحث والخصم.  
(١) ارجع في تفاصيل هذه الموقعة ومعرفة أسبابها ومسببها الحقيقيين إلى كتابي (عائشة والسياسة) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧م.

((أيها الناس! إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة تضرب به يميناً وشمالاً فلا تلبث أن تموت)). فتقوى بهذا الكلام نفوس الثائرين إلا رجلاً من بني قشير لا يعجبه كلام ابن الأشعث فيقول:

((قبّح الله هذا، يأمر أصحابه بقلّة الاحتراس من عدوهم ويعدّهم الغرور<sup>(١)</sup>)) فيكون أشد على الحجاج من ابن الأشعث إذ أراد التي هي أحزم.

كان في المربرد إذن أدب وتجارة وحرب<sup>(٢)</sup> وسياسة كما كان في عكاظ. وأستطيع أن أقسم الكلام على المربرد أقساماً ثلاثة كان شأنه في كل منها مختلفاً. أما الأول فعلى عهد الراشدين إذ كان يقتصر أمره على التجارة غالباً، وإن لم يعدم يوماً أن كان ساحة حرب ومسرح مأس. وقد عرفنا مما ذكر الطبري أن به موضعاً للباغين. فالمربرد إذن سوق البصرة أيام الراشدين، وأغلب ما يتاجر فيه التمر وما إليه والإبل والسلاح والغنائم مما كان يقسم على المحاربين، فيبيعه هؤلاء في المربرد.

ثم يأتي العهد الثاني أيام الأمويين وقد اتسعت السوق وكثر قاصدوها من الأطراف وازدهت بالشعراء والأدباء والعلماء ووفود القبائل، مما لم يكن في العهد الأول، لانشغال الناس آنئذٍ بالجهاد والفتوح، وعدم فراغ لهذه الألوان من الأدب التي لا تغزر وتتهياً إلا بعد استتباب حالة الدولة، ولم نعهد حركة أدبية نشأت إبان الفتوح حين تتأسس الدول.

وازدان هذا العهد بأفحل رجّاز وشعراء أخرجهم العهد الأموي وأخص بالذكر جريراً والفرزدق والأخطل والبعيث، وراعي الإبل وذا الرمة، ومن الرجّاز روية وأباه العجاج وأبا النجم العجلي وهذا الفريق.

أما في العهد الثالث أي بين آخر العصر الأموي والقرن الثاني للهجرة، فقد نضجت حركة المربرد الأدبية والعلمية نضجاً يتسق هو وما وصلت إليه الدولة من حسن الحال وسعة الأفق ومرافق الحضارة وبسطة العلم وسعة السلطان. وكان من أبطال المربرد أكابر النحاة ورواة الشعر والأدب والشعراء، والذي كان جديداً في هذا العهد ولم يكن قبل، الناحية العلمية، وأعني بها ما كان يصنعه أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وقبيلهما من غشيان لفصحاء<sup>(٣)</sup> الأعراب وصبر على لوثتهم وجفائهم،

(١) الكامل للمبرد ١٥٩/١.

(٢) ثم كان مسرحاً لفتن قبلية يذكر إحداها الفرزدق مفتخراً:

عشية سال المربران كلاهما  
عجاجة موت بالسيوف الصوارم

والمربرد واحد لا اثنان وإنما أراد الفرزدق: المربرد وما يليه مما جرى مجراه والعرب تفعل هذا في الشيبين جريا في باب مجرى واحد، الكامل للمبرد ص ٨٢ طبعة ليدن.

(٣) كان المربرد مدرسة عملية تعلم الفصاحة ويهرع إليه طلابها من كل وجه ونبغ منهم عدد غير قليل، والنظام والجاحظ من مشهوريه فقد ذكر المؤرخون أن الثاني تلقف الفصاحة شفاهاً بالمربرد. وأهل البصرة في الجملة من أفصح أهل الأمصار، بل إن لجاحظ ليذهب أبعد من ذلك فيزعم أنهم أفصح أهل الأمصار عامة، ولسنا نستطيع أن ننسب هذا منه إلى عصبية لبلده. جاء في كتابه البيان والتبيين (٣٣/١ السندوبي):

[قال أهل مكة لمحمد بن منذر الشاعر: ((ليست لكم معاشرة أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة)). فقال ابن منذر: ((أما ألفاظنا فأحكي الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم:

أنتم تسمون القدر: برمة، وتجمعون البرمة على برام، ونحن نقول: قدر ونجمعها على قدور، وقال الله عز وجل: {وَجَفَانَ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} [سبأ: ١٣/٣٤].

وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت عليه، وتجمعون هذا الاسم على علالي ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف، وقال الله تبارك وتعالى: {عُرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَبْنِيَةٌ} [الزمر: ٢٠/٣٩] وقال: {وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ: ٣٧/٣٤].



وتلقف لما ينطقون به وإثبات له في الصحف، ويروونه ليبنى عليه الأساس في وضع القواعد العربية.

قال صاحب ضحى الإسلام (٨٠/٢) وفي قوله إجمال ما قدمت:

كان المربد في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين مركزاً سياسياً وأدبياً، نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب بدمه وتؤلب الناس على عليّ، وكان المربد مركزاً للمهاجاة بين جرير والأخطل والفرزدق، وأنتج ذلك نوعاً من أقوى الشعر الهجائي كالذي نقرؤه في النقائض، وكان لكل من هؤلاء الشعراء حلقة ينشد فيها شعره، وحوله الناس يسمعون. جاء في الأغاني ((وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد في البصرة)).

واستمر المربد في العصر العباسي، ولكنه كان يؤدي غرضاً آخر غير الذي كان يؤديه في العهد الأموي، ذلك أن العصبية القبلية ضعفت في العصر العباسي بمهاجمة الفرس للعرب، وأحس العرب بما هم فيه جميعاً من خطر من حيث هم أمة لا فرق بين عدنائهم وقحطانيهم، ولكنهم لم يستطيعوا المقاومة، فقوي نفوذ الفرس وغلبوا العرب على أمرهم، وبدأ الناس في المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هي أقرب إلى حياة الفرس منها إلى حياة العرب، وانصرف الخلفاء والأمراء عن مثل النزاع الذي كان يتنازعه جرير والفرزدق والأخطل، وظهرت العلوم تزاماً مع الأدب والشعر، وفشا اللحن بين الموالي الذي دخلوا في الإسلام، وأفسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم، فتحول المربد يؤدي غرضاً يتفق (هو) وهذه الحياة الجديدة.

أصبح المربد غرضاً يقصده الشعراء لا ليتهاجوا، ولكن ليأخذوا عن أعراب المربد الملكة الشعرية يحتذونهم ويسيروا على منوالهم، فيخرج إلى المربد بشار وأبو نواس وأمثالهما، ويخرج إلى المربد اللغويون يأخذون عن أهله ويدونون ما يسمعون. روى القالي في الأمالي عن الأصمعي قال: ((جئت إلى أبي عمرو ابن العلاء فقال لي: من أين أقبلت يا أصمعي؟)) قلت: ((جئت من المربد))، قال: ((هات ما معك)) فقرأ عليه ما كتبت في ألواحي، فمر به ستة أحرف لم يعرفها، فخرج يعدو في الدرجة وقال: ((شمّرت في الغريب)) أي غلبتني.

والنحويون يخرجون إلى المربد يسمعون من أهله ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم، فقد اشتد الخلف بين مدرسة البصرة ومدرسة البصرة هو المربد<sup>(١)</sup>، وفي تراجم النحاة نجد كثيراً منهم كان يذهب إلى المربد يأخذ عن أهله. ويخرج الأدباء إلى المربد يأخذون الأدب، من جملة بليغة وشعر رصين وأمثال وحكم، مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهم، كما فعل الجاحظ: إن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش، وأخذ الكلام عن النظام، وتلقف الفصاحة من الأعراب شفاهاً بالمربد)) أهـ.

وأنتم تسمون الطلع: الكافور والإغريض، ونحن نسميه الطلع وقال الله عز وجل: {وَتَخَلَّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} [الشعراء: ١٤٨/٢٦] فعد عشر كلمات ولم أحفظ أنا منها إلا هذا].

(١) قلت: أقام الكوفيون (سوق كُناسة) بالكوفة لتقوم لهم بما يقوم المربد للبصريين فلم يفلحوا ولم تذكر سوقهم قط ولا قصدها مثل من يقصد البصرة من فصحاء العرب وخطبائهم وشعرائهم ورجازهم، بل كان إلى إفساد اللغة أقرب، انظر كتابي (في أصول النحو) ص ١٩٠ (طبعة ثانية).

وكما كانت عكاظ يؤمها كل من أراد أن يفتخر أو يعلن أمراً تفرد به أو يشيع في الناس مآثرة أو خبراً، كان المربد كذلك منشرة للمحامد والمساوي، مسرة الصديق وغيظ العدو، فكل من أراد أن يكبت خصماً أو يحقر قبيلة أو يشهر محمداً طلب لها المربد يجعلها فيه، لتكون أشيع وأسير وأبلغ في الإرضاء والإغاظة. وقد كان المربد مسرحاً لدعوات سياسية ودينية واستغاثات وشكوى ورثاء وفخر كما كانت عكاظ. وأحفل ما كان المربد، في النصف الثاني لعهد الأمويين والثالث الأول لعهد العباسيين، فلأشعر في عرض مناظر تكمل الصورة التي وصفت ليكون القارئ ملماً بجميع ما يعرض ويجري في المربد على اختلاف المناحي والغايات، وقد تقدمت صورة على عهد الراشدين وهي حرب الجمل. ولاريب في أن المربد لم يستفحل أمره وتتعدد مقاصده إلا فيما بعد، في الزمن الذي ذكرت لك من أيام بني أمية وبني العباس.

\* \* \*

### ١- عوذ بقبر

عبد مكاتب لبني منقر، ضاقت حاله ولم يقدر على حيلة يجمع بها المال لسيدته حتى يعتقه، فلما عيَّ بالأمر أتى قبر غالب أبي الفرزدق، فضرب قبة عليه علامة الاستعاذة والاستغاثة، فقدم الناس فأخبروا الفرزدق أنهم رأوا بناء على قبر أبيه. قصد المكاتب المربد وتقصى الحلقات حلقة حلقة، حتى وقف على حلقة الفرزدق حيث يجلس فقال:

بقبر ابن ليلي غالبٍ غدت بعدما      خشيت الردى أو أن أردّ على قسر  
فخاطبني قبر ابن ليلي وقال لي:      فكاكك أن تلقى الفرزدق بالمصر  
فقال له الفرزدق: ((صدق أبي، أئخ أنخ))، ثم طاف على الناس حتى جمع له كتابته، وفضلاً فضل للمكاتب، فانصرف وقد أنجح مسعاه.

### ٢- مجنون في حب

كان بالبصرة مجنون قاعد على ظهر الطريق بالمربد، فكلما مر به ركب قال:  
ألا أيها الركب اليمانون عرجوا      علينا فقد أمسى هوانا يمانيا  
نساثلكم هل سال نعمان بعدكم      وحبّ إلينا بطن نعمان واديا  
فسألت عنه، فقيل: هذا رجل من البصرة، كانت له ابنة عم يحبها فتزوجها رجل من أهل الطائف فنقلها، فاستوله عليها<sup>(١)</sup>.

### ٣- إنهاء مال

كان زياد قد نهى أن يُنهب أحد مال نفسه، وكان الفرزدق أنهب ماله بالمربد. وذلك أن أباه بعث معه إبلاً ليبيعه فباعها وأخذ ثمانها. فعقد عليه مُطرف خزّ كان عليه،

(١) الأملالي ١٢٦/٢. والوله: ذهاب العقل من حزن، والحيرة والخوف.

فقال قائل: ((لشدّ ما عقدت على دراهمك هذه، أما والله لو كان غالب، ما فعل هذا الفعل!)).

فحلها الفرزدق ثم أنهبها وقال: ((من أخذ شيئاً فهو له)).

وبلغ ذلك زياداً فبالغ في طلبه فهرب، فلم يزل زياد في طلبه، قد بلغ منه كل مبلغ ليعاقبه على ما صنع، وقد نهى زياد في ذلك ألا يفعله أحد.

وكان زياد إذا قال شيئاً وفي به. فلم يزل في هربه ذلك يطوف في القبائل والبلاد حتى مات زياد<sup>(١)</sup>.

#### ٤- غلام يخجل الفرزدق

كان الفرزدق ينشد شعره بالمربد والناس مجتمعون حوله إذ مر به الكُميت وهو غلام فوقف، فقال له الفرزدق: ((ليسرك أني أبوك؟)) فقال الغلام: ((أما أبي فلا أريد به بديلاً، ولكن يسرني لو كنت أُمي ليزوق أبي عُسَيْلتك!)) فقال الفرزدق: ((اكتمها على عمك يابن أخي فما مرّ بي مثلها!))<sup>(٢)</sup>.

#### ٥- تهديم دور الهجائين

كان للبصرة وال متنسك يروى عنه الفقه، اسمه الحارث بن عبد الله المخزومي ولقبه القُبَاع<sup>(٣)</sup> بلغه ما يكون في المربد من الشر بين جرير والفرزدق وبين حبيهما بسببهما، ولما رأى أنهم غير منتهيين عن ذلك، أراد أن يخطو الخطوة الحاسمة بحزم، فأمر بالدار التي ينزلها جرير في المربد والدار التي ينزلها الفرزدق في المقبرة فهدمتا.

وكان القُبَاع قد أراد هدم دار الفرزدق قبل هذه المرة أيضاً في شيء بلغه، ثم إنه كُلم فيه وهرب الفرزدق.

ويظهر أن هذا الجزاء كان شديداً قد بلغ من نفسي الشعاعين مبلغاً، حتى إن الفرزدق بعدها خنع وتملق فقال:

وأحارثُ داري مرتين هدمتها	وكنت ابن أخت لا تُخاف غوائله
وأنت امرؤ: بطحاء مكة لم يزل	بها منكم معطي الجزيل وفاعله
فقلنا له: لا تشمتنّ عدونا	ولا تنس من أصحابنا من نواصله
فقبلك ما أعيبت كاسر عينه	زياداً فلم تقدر عليّ حباله
فأقسمت لا آتية سبعين حجة	ولو نشرت عين القُبَاع وكاهله
وقال جرير في ذلك:	
أحارثُ خذ من شئت منها ومنهم	ودعنا نفسُ مجدأ تعد فواصله

(١) النفاض ص ٦٠٧.

(٢) المستجاد من فعلات الأحواد ص ٢٤٦. العسلية ماء الرجل، أو حلاوة الجماع.

(٣) القُبَاع: المكيال الضخم. ولقب الحارث بن عبد الله والي البصرة بالقُبَاع لأنه اتخذ ذلك المكيال لهم، أو لأنهم أتوه بمكيال لهم حين وليهم فقال: ((إن مكياكم هذا لقباع)) القاموس.

فما في كتاب الله تهديم دورنا

بتهديم ماخور خبيث مداخله

### ٥- هجاء إبليس

كان الفرزدق قد أكثر من هجاء (باهلة) حتى عيّت هذه القبيلة بأمرها وكان مما قال فيهم:

أباهل لو أن الأنام تنافروا  
لغاز لكم سهماً لئيم عليهم  
وقال أيضاً:

ألا كيف البقاء لباهلي  
ألست إذا نسبت لباهلي  
وهل يستطيع أبكم باهلي  
فلا يأت المساجد باهلي  
إلخ..

هو بين الفرزدق والجحيم  
بالأم من تركض في المشيم<sup>(١)</sup>  
زحام الهاديات من القروم<sup>(٢)</sup>  
وكيف صلاة مرجوس رجيم..

إلا أن الله أراد أن يرحمهم، فساق الفرزدق يوماً إلى المربد، فلقي رجلاً يقال له حمام من موالي باهلة، ومعه نحي من سمن يبيعه.

فسامه الفرزدق إياه فقال له: ((أدفعه إليك وتهب لي أعراض قومي!)) فقبل، وقال يهب له أعراض قومه ويهجو إبليس:

ألا بشراً من كان لا يملك استه  
يخافون مني أن يصكك أنوفهم  
لعمرى لنعم النحي كان لقومه  
أطعتك يا إبليس سبعين حجة  
فررت إلى ربي وأيقنت أنني  
ألا طالما قد بت يوضع ناقتي  
يظل يميني على الرحل واركأ<sup>(٣)</sup>  
وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي  
سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني  
وإن ابن إبليس وإبليس ألبنا

ومن قومُه بالليل غير نيام  
وأقفاء هم إحدى بنات صمام<sup>(١)</sup>  
عشية عبّ البيع نحي حمام<sup>(٢)</sup>  
فلما انتهى شيبني وتم تامي  
ملاق لأيام المنون حمامي  
أبو الجن إبليس بغير خطام  
يكون ورائي مرة وأمامي...  
رضاه ولا يقتادني بزمام  
إليه جروحاً فيك ذات كلام<sup>(٤)</sup>  
لهم بعذاب الناس كل غلام<sup>(٥)</sup>

(١) المشيم: محل الولد في الرحم.

(٢) الهادي: المتقدم، والهواذي من الإبل وعيل يطلع منها. والقروم: الفحول.

(٣) الصمام الداهية الشديدة. يقال صمي صمام أي زيدي يا داهية.

(٤) النحي: الزق، وقيل: ما كان للسمن خاصة. والعب: الكرع وتتابع الشرب.

(٥) الوارك: المعتمد على وركه، والورك: ما فوق الفخذ.

(٦) الكلام: الجروح.

هما تفلأ في في من فمويهما

على النابح العاوي أشد رجام<sup>(٦)</sup>

## ٦- جرير يهجو قبيلته

بنو العم قبيلة ليست من صميم العرب ((نزلوا ببني تميم في أيام عمر بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم، فقال الناس: ((أنتم وإن لم تكونوا من العرب، إخواننا وأهلنا وأنتم الأنصار والإخوان وبنو العم)). فلُقبوا بذلك وصاروا في جملة العرب. إلا أن الاسم الذي سُموا به يحمل في تضاعيفه سمة قوم لصقاء، فكان فيه بعض الغضبّ منهم وكانوا يُضربون مثلاً في رقة النسب وضعف الوشيجة حتى قال كعب بن معدان يهجو بني ناجية ويُعرّض بنسبهم في قريش:

وجدنا آل سامة في قريش كمثل ((العم)) بين بني تميم

حضرت هذه القبيلة المربد، وقد تواقف للهجاء جرير والفرزدق، يرد هذا على ذلك ووراء كل قبيلته وحزبه، فهاج الشر واقتتل القبيلتان: بنو يربوع قوم جرير، وبنو مجاشع قوم الفرزدق، فأمدت بنو العم بني مجاشع وجأؤوهم وفي أيديهم الخشب فطردوا بني يربوع)) فقال جرير: ((من هؤلاء؟)) قالوا: ((بنو العم)). فقال جرير يهجوهم ويعرّض بالفرزدق وأنصاره الوضيعين هؤلاء:

ما الفرزدق من عز يلوذ به إلا بني العم في أيديهم الخشب  
سيروا بني العم فالأهواز داركم ونهر تيرى ولم تعرفكم العرب<sup>(١)</sup>

## ٧- والفرزدق لعبة

جرير والفرزدق ملأ المربد بأشعارهما ونقائضهما وظلاً حديث أهلها ما عاشا. لا يألو أحدهما جهداً في خلق ما يعير صاحبه به، فهما أبدأً دائبان في أن يجدا من كل شيء موضوعاً للهجاء، ألف منهما ذلك أهل المربد عامة. وكانت لكل حلقة يملأ فيها ما ضيغته فخرأً بقبيله وهجاءً لقبيل خصمه، وكانت عبقريتهما البعيدة الغور تفتق لهما من الشعر ألواناً تشغل بها السامعين من البدو والحضر.

هذا جرير، وقف بالمربد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاماً وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عبّاد بن حصين الحبطي. فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشي وسواراً وقام في مقبرة بني حصن ينشد بجرير، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما. فقال الفرزدق وقد وجد في لباس جرير السلاح والدرع، مادةً لهجائه:

وإن كليياً إذا أتتني بعبدها كمن غره حتى رأى الموت باطله  
رجوا أن يردوا عن جرير بدرعه نوافذ ما أرمي وما أنا قائله  
عجبت لراعي الضأن في حطمية وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله  
وهل تلبس الحبلى السلاح وبطنها إذا انتطقت عبء عليها تعادله

(٥) لبن القوم: سقايم اللبن، وألبن القوم: كثر عندهم اللبن، ومن المجاز: لبنة بالعصا والحجر: ضربه.

(٦) الرجام: الحجارة.

(١) الأغاني ٢٥٧/٣ (دار الكتب) الأهواز: سبع كور بين البصرة وفارس، لكل كورة منها اسم ويجمعها الأهواز. ونهر تيرى من نواحي الأهواز.

أفاح وألقى الدرع عنه ولم أكن  
تركنا جريراً وهو في السوق حابس  
فقالوا له رُدَّ الحمار فإنه  
وأنت حريص أن يكون مجاشع  
وما ألبسوه الدرع حتى تزيّلت  
ولما بلغ جريراً أن الفرزدق في ثياب وشي اهتبلها فرصة فقال:  
ليست سلاحي والفرزدق لعبة  
فعرف كيف يصوّب السهم ويحكم الضربة ويفوز بإضحاك الناس من خصمه  
الفرزدق: اللعبة.

### ٨- ضحية بين فحلين

هاجى جرير ثمانين شاعراً، وكان عمر بن لجأ أحدهم، وكان جرير قد هجاه  
بقوله:

يا تيمُّ تيمَّ عديّ لا أبا لكم  
أحين صرتُ سماماً يا بني لجأ  
لا يَفْذِفْكُمْ في سوءة عمر  
وخاطرت بي عن أحسابها مضر<sup>(١)</sup>  
فبينما جرير واقف بالمربد وقد ركبه الناس وعمر بن لجأ مواقفه يتهياً للردّ عليه  
ببيتيه، هدأت الضجة فقال عمر هذين البيتين وكان قد رفده بهما الفرزدق:  
لقد كذبتَ وشر القول أكذبه  
ألبست فروة خوَّار على لؤم  
ما خاطرت بك عن أحسابها مضر  
لا يسبق الحلبات اللؤم والخور  
سمعهما جرير ففكر ثم فطن للأمر فقال: ((قبحاً لك يا بن لجأ، أهدأ شعرك؟ كذبت  
والله ولؤمت، هذا شعر حنظلي، هذا شعر العزيز (يعني الفرزدق))) فأبلس عمر وما  
ردّ جواباً.

وكان في الحلقة غنيم بن أبي الرقراق فطار حتى أتى الفرزدق فضحك له وأخبره  
الخبر، فاستلقى الفرزدق يضحك حتى فحص الأرض برجليه، وقال في ساعته يريد  
عمر بن لجأ، هذا الذي دخل بين فحلين فسقط مطرحاً بين أقدامهما:

وما أنت إن قرُّ ما تميم تساميا  
فلو كنت مولى الظلم أو في ثيابه  
أخا التيم إلا كالوشيفة في الغرم<sup>(١)</sup>  
ظلمت ولكن لا يدي لك في الظلم

(١) النقااض صفحة ٦٢٣. الحطمية: الدرع. أفاح: تفاح وفتح فخذيه وفسا، وعطية: أبو جرير. والجحافل للخيل  
والبقال والحمير: بمنزلة الشفة.

(٢) الكرج: المهر. (معرّب).

(٣) السمام: جمع سم. وخاطر: راهن. والحسب: مفاخر الآباء.

(٤) الوشيفة: قطعة عظيم تكون زيادة في العظم الصميم، وهم وشيفة في قومهم: حشو فيهم، والدعي لا يدخلونه عادة  
في الغرم.

ويرجع الخبر بذلك إلى جرير فتنبسط أساريه ويعلوه البشر إذ سمع هذين البيتين،  
ورأى لأول مرة كلمة إنصاف من ذلك الذي ملأ عليه الأرض هجاءً وشرّاً فيقول:  
(ما أنصفني في شعر قط قبل هذا)). يعني قوله (إن قر ما تميم تسامياً).

## ٩- الحكم في تنافر شاعرين

[لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قتل بنو سليم وهم من قيس، مقتلة  
من بني فهر وبني كنانة.

فلما وجه معاوية في خلافته بسر بن أرطاة الفهري لقتل شيعة علي، نهضت وجوه  
قيس إلى معاوية وقالوا:

((نسألك بالله والرحم ألا تجعل لبسر على قيس سلطاناً فيقتل قيساً بمن قتلت بنو  
سليم من بني فهر وبني كنانة يوم فتح مكة)) فقال معاوية: ((يا بسر ليس لك سلطان  
على قيس)).

سار بسر حتى أتى الطائف فقالت له ثقيف: ((مالك علينا سلطان، نحن من قيس))  
فسار حتى أتى همدان وهم في جبل لهم يقال له شبام، فتحصنت فيه همدان ثم نادوا:  
((يا بسر نحن همدان وهذا شبام)). فلم يلتفت إليهم، حتى إذا اغتروا ونزلوا إلى  
قراهم أغار عليهم فقتل وسبى نساءهم فكن أول مسلمات سبين في الإسلام. ومر بحي  
من بني سعد نزول بين ظهري بني جعدة بالفالج (موضع لبني جعدة بنجد) فأغار بسر  
على الحي السعديين فقتل منهم وأسر فقال أوس بن مغراء في ذلك:

مشرين ترعون النجيل وقد غدت بأوصال قتلاكم كلاب مزاحم<sup>(١)</sup>

فقال النابغة الجعدي يجيبه:

متى أكلت لحومكم كلابي أكلت يديك من حرب تهام

وهاج الشر بين الشاعرين لما كان بين القبيلتين من دخول وعداوة، ولم يكن أوس  
مثل النابغة ولا قريباً منه في الشعر. فقال النابغة: ((إني وإياه لنبتدر بيتاً أينا سبق إليه  
غلب صاحبه)) فلما بلغه قول أوس:

لعمرك ما تبلى سراويل عامر من اللؤم ما دامت عليها جلودها

فقال النابغة: ((هذا البيت الذي كنا نبتدر إليه)) فغلب أوس عليه].

كان مفهوماً أن يناضل كل شاعر عن حيّه ويدافع عنه ما يلصقه خصمه به،  
فتأرث الهجاء بين النابغة وأوس، واستطال أوس بنسبه إلى معد، ثم كانت الحكومة  
بين الشاعرين في المربد: سوق العرب في الإسلام. وهذه رواية الأغاني في القضاء  
بينهما:

اجتمع النابغة الجعدي وأوس بن مغراء في المربد، فتنافرا وتهاجيا، وحضرهما  
العجاج والأخطل وكعب بن جعيل، فقال أوس:

لما رأَت جعدة منا وردا ولو نعماً في البلاد رُبدا<sup>(٢)</sup>

(١) المشر: الباسط ثوبه في الشمس، والنجيل: جنس من الحمض.

كاهلها وركنها الأشدا

إن لنا عليكم معدا  
فقال العجاج:

كل امرئ يعدو بما استعدا

وقال الأخطل يعين أوس بن مغراء ويحكم له:

وإني لقاظ بين جعدة عامر  
أبو جعدة الذئب الخبيث طعامه  
وقال كعب بن جعيل:

من أم قصداً ولم يعدل إلى أود<sup>(١)</sup>  
ولا أجور ولا أبغي على أحد  
كما (تنال) بنو عبس بني أسد<sup>(١)</sup>  
إني لقاظ قضاء سوف يتبعه  
فصلاً من القول تأتم القضاة به  
(نالت) بنو عامر سعداً وشاعرها

وهكذا باء النابغة على فحولته بشر ما يبوء امرؤ إلى أهله، وفاز أوس بحكومة هؤلاء القضاة غير العادلين.

#### ١٠ - نقد سخف

تكوّف جماعة بمريد البصرة على الشاعر ذي الرمة، وهو قائم وعليه برد قيمته  
مئتا دينار. فاجتمعوا إليه وهو ينشد ودموعه تجري على لحيته حزناً وأسفاً على عهد  
صاحبته خرقاء:

ما بال عينك منها الدمع ينسكب.. إلخ

\* \* \*

بينا ذو الرمة بالمربد والناس يجتمعون إليه، إذا هو يخياط يقف ويقول: ((يا  
غيلان)) (اسم ذي الرمة):

أأنت الذي تستنطق الدار واقفاً من الجهل: ((هل كانت بكنّ حلول!))؟

فقام ذو الرمة وفكر زماناً ثم عاد فقعده في المربد ينشد فإذا بالخياط قد وقف عليه،  
وكان ذو الرمة قد قال في خرقاء صاحبته هذين البيتين المشهورين:

أيا ظبية الوعساء بين جُلاجل وبين التقا أنت أم أمّ سالم

هي الشبه، لولا مدرياها وأذنها سواء وإلا مشقّة في القوائم<sup>(١)</sup>

فقال الخياط يعرض بهذين البيتين ويسخر من تشبيهه هذا:

(١) الورد: الجيش. والربد: جمع ربداء وهي النعامة المختلطة السواد.

(١) أم: قصد، الأود: العوج والميل.

(١) الأغاني ١٣١/٤ وفيها كلمة قبيحة مكان (نالت)، (تنال).

(١) الوعساء: رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول. والنقا من الرمل: القطعة تنقاد محدودة. المشقة: التفريح في قوائم ذات الحافر. المدري: القرن، والمشط.



أنت الذي شبهت عنزاً بقفرة  
 لها ذنب فوق استها أم سالم  
 وقرنان إما يلزقانك يتركا  
 بجنبك يا غيلان مثل المواسم  
 جعلت لها قرنين فوق شواتها<sup>(٢)</sup>  
 ورايك منها مشقة في القوائم  
 فخلج ذو الرمة وبهت، وقام فذهب. ولم ينشد بعدها في المربد حتى مات  
 الخياط<sup>(٢)</sup>.

### ١١ - إعدام قبيلة

كان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها،  
 وكان الراعي قد ضخم أمره، وكان من شعراء الناس، فدخل في المنافرة بين جرير  
 والفرزدق وقضى على الأول للثاني وكان فيما قاله:  
 يا صاحبي دنا المسير فسيرا  
 غلب الفرزدق في الهجاء جريرا  
 وقال:  
 رأيت الجحش جحش بني كليب  
 تيمم حوض دجلة ثم هابا  
 (يعني جريراً).

فلما أكثر الراعي من ذلك قال جرير لرجال من قومه: ((هلا تعجبون لهذا الرجل  
 الذي يقضي للفرزدق عليّ وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم)).

### (١)

ثم خرج جرير ذات يوم يمشي ولم يركب دابته لئلا يعلم به أحد، فتعرض للراعي  
 يريد أن يلقاه من حيال حيث كان يمر إذا انصرف من مجلس بالمربد، فمر الراعي  
 على بغلته وابنه جندل يسير وراءه على مهر له أحوى، وإنسان يمشي معه يسأله عن  
 بعض الأمر. فلما استقبل جرير الراعي قال له: ((مرحباً بك يا أبا جندل))، وضرب  
 بشماله على معرفة بغلته، ثم قال يا أبا جندل: ((إنك شيخ مضر وشاعرها وقد بلغني  
 أنك تفضل علي الفرزدق تفضيلاً قبيحاً وهو ابن عمي دونك، فإن كان لا بد من  
 تفضيل فأنا أحق به لمدحي قومك وذكرني إياهم. ويكفيك من ذاك إذا ذكرنا أن نقول:  
 كلاهما شاعر كريم ولا تحتمل مني ولا منه لائمة)). فبينما جرير كذلك أقبل ابن  
 الراعي جندل، حتى ضرب عجز دابة جرير حتى كاد يقطع إصبع رجله وقال لأبيه:  
 ((لا أراك واقفاً على كلب من بني كليب كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً)).  
 وضرب البغلة ضربة فرمحت جريراً رمحة وقعت منها قلنسوته، قال جرير:  
 ((فوالله لو عرج على الراعي لقلت سفيه غوي (يعني جندلاً ابنه) ولكن لا والله ما  
 عاج، فأخذت قلنسوتي فمسحتها ثم أعدتها على رأسي)).

فانصرف جرير غضبان حتى إذا صلى العشاء بمنزله في عليّة له قال: ((ارفعوا  
 لي باطيّة من نبيذ وأسرجوا لي)). ففعلوا فجعل يههم، فسمعت صوته عجوز في

(٢) الشوى: قحف الرأس.  
 (٢) الأغاني ١١٤/١٦.

الدار، فاطلعت في الدرج حتى نظرت إليه فإذا هو: يحبو في الفراش عرياناً، لما هو فيه، فأنحدرت فقالت: ((ضيفكم مجنون، رأيت منه كذا وكذا)).. فقالوا لها: ((أذهبي لطبتك، نحن أعلم به وبما يمارس)). فما زال كذلك حتى كان السحر، ثم إذا هو يكبر: قد قالها ثمانين بيتاً في ثمير، فلما ختمها بقوله:

فغضّ الطرف إنك من نمير  
فلا كعباً بلغت ولا كلابا  
كبر ثم قال: ((أخزيته ورب الكعبة)).

## (٢)

ثم أصبح، حتى إذا عرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد، وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا بدهن فاذهن، وكفّ رأسه، وكان حسن الشعر ثم قال: ((يا غلام أسرج لي)) فأسرج له حصاناً. ثم قصد مجلسهم، حتى إذا كان موقع السلام قال: ((يا غلام)) ولم يسلم:

((قل لعبيد: أبعثك نسوتك تكسبهن المال بالعراق؟ أما والذي نفس جرير بيده لترجعن إلى أهلك بمير يسوؤهن ولا يسرهن، أما أنا فقد بعثني أهلي لأقعد على قارعة هذا المربد، فلا يسبهم أحد إلا سببته. وإن علي نذراً: إن جعلت في عيني غمضاً حتى أخزيك)) ثم اندفع جرير في قصيدته:

أقليّ اللوم عاذل والعتابا  
وقولي إن أصبت لقد أصابا  
فأنشدها فنكس الفرزدق وراعي الإبل، وأزمّ القوم، حتى إذا بلغ قوله:  
بها برص بجانب إسكتيها..

وضع الفرزدق يده على فيه، وغطى عنقه لئلا يفطن جرير فيخزيه في مجلسه ذلك، ففطن لها جرير فآتم البيت وهكذا وكان الفرزدق لقنه أياه:

بها برص بجانب إسكتيها  
كعنفقة الفرزدق حين شاباً<sup>(١)</sup>

ولعله في الأصل على غير ذلك، فانصرف الفرزدق وهو يقول: ((اللهم أخزه، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا، ولكن طمعت بالسلامة فغطيت وجهي فما أغناني ذلك شيئاً)).

واسترسل جرير في الإنشاد حتى بلغ قوله مخاطباً الراعي:

فغضّ الطرف إنك من ثمير  
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فأسقط في يد الراعي وبني نمير عامة. وقال الفرزدق: ((غضّه والله فلا يجيبه ولا يفلح بعدها أبداً))<sup>(٢)</sup>.

وسرعان ما تناقل هذا البيت أهل المربد، وانفضّ المجلس عليه. وسار الراعي فوجد البيت سبقه إلى أهله وقومه فاستحيا ورحل.

(١) الإسكة: جانب فرج المرأة، وهما إسكتان. والعنفقة: شعرات بين الشفة السفلى والذقن.  
(٢) الأغاني ٤٧/٧.

وهكذا انطفت قبيلة نمير آخر جمرات العرب في المربد، أمام هذا المحفل الحاشد، على يد جرير الشاعر.

## ١٢- رد عدوان

قدم معن بن أوس المزني (البصرة) فقعد ينشد في المربد، فوقف عليه الفرزدق وأراد العبث به فقال: ((يا معن، من الذي يقول:

لعمرك ما مزينة رهط معن بأجفان تطاق ولا سنام<sup>(٣)</sup>))

فقال معن: ((أتعرف يا فرزدق من الذي يقول:

لعمرك ما تميم أهل فلج بأرداف الملوك ولا كرام<sup>(١)</sup>))

فراه الفرزدق صلباً فتنصل وقال له: ((حسبك إنما جربتك)). فأجابه معن بلهجة الحازم: ((قد جربت وأنت أعلم)). فانصرف وتركه.

## ١٣- سلاطة

كان المربد إلى ذلك يفسح مجالاً لمتعصبة الشعوبية وأراندلهم، فينالون من الحسب الزاكي والأصل الكريم ويتطاولون، وكانوا يدسون سموهم في أفكار الموالي والعبيد قال الأصفهاني:

((وقف رجل من بني زيد شريف، لا أحب أن أسميه، على بشار فقال له: ((يا بشار، قد أفسدت علينا موالينا، تدعوهم إلى الانتقاء منا وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء، وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل)) فقال له بشار:

((والله لأصلي أكرم من الذهب، ولفرعي أزكى من عمل الأبرار، وما في الأرض كلب يودّ أن نسبك له بنسبه. ولو شئت أن أجعل جواب كلامك شعراً لفعلت، ولكن موعدك غداً بالمربد)) فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم أن بشاراً يحضر معه المربد ليفاخره، فخرج من الغد يريد المربد فإذا رجل ينشد:

شهدت على الزيدي أن نساءه

.....

((وأفحش بشار في تنمة البيت) فارتاع الشريف وسأل عنن قال هذا البيت فقيل له: ((هذا لبشار فيك)) فرجع إلى منزله من فوره ولم يدخل المربد حتى مات.

فانظر في بضاعة المربد هذه، واعجب كيف ينقبض فيه الأخيار ويتسلط الأشرار!

## ١٤- معركة الرجّاز

نترك حلبة الشعراء إلى حلبة أخرى أطرف وأظرف، لأن أصحابها ذوو أصول بدوية مقيمون في الحضر. تلك هي حلبة الرجّاز أبي النجم العجلي ورؤية وأبيه، فننظر كيف يتنافس هؤلاء، حتى إذا سكنت الريح بينهم أتت قبائلهم فأثارتها وكدرت

(٣) من معاني الجفن: الشجر الطيب الريح.  
(١) الردف: الرديف وكل ما تبع شيئاً فهو ردفه.

ما بينهم حتى يعود الشر جذعة<sup>(١)</sup> كما كان بدأ، ولعل المنظر الذي سنعرض بعد قليل أروع منظر شهده المربرد.

((قال فتیان من عجل لأبي النجم: هذا رؤبة بالمربرد يجلس فيسمع الناس شعره، وينشد الناس ويجمع إليه فتیان من بني تميم، فما يمنعك من ذلك؟)) فقال: ((أوتحبون هذا؟)) قالوا: ((نعم)) قال فانتوني بعس<sup>(٢)</sup> من نبيذ فأتوه به فشرب ثم نهض وقال:

إذا اصطبحتُ أربعاً عرفتني  
ثم تجشمتُ الذي جشمتني

وأقبل إلى المجلس بالمربرد فلما رآه رؤبة أعظمه وقام له عن مكانه وقال: ((هذا رجّاز العرب)) وسأله أن ينشدهم فأنشدهم أرجوزته التي أولها:

الحمد لله الوهوب المجزل

وكان إذا أنشد أزيد ووحش<sup>(١)</sup> بثيابه وكان من أحسن الناس إنشاداً، فلما فرغ منها قال رؤبة: هذه أم الرجز.

إلا أن هذا الصفاء بين الرجازين واعترف رؤبة وإقراره بفضل أبي النجم ورضا هذا عن رؤبة لم يدم طويلاً، فسرعان ما أهاج الشر بينهما غواهُ الرجز، فما لبثا أن فسد ما بينهما واشتدت المنافسة إلى الغاية. وأنت إذا أردت أن تستمتع وتتسلى وتستفيد، فأثر خصومة أو منافسة، أو هج شراً بين أدبيين أو شاعرين أو عالمين، تجد متعة وطرافة تنعم بهما من حيث سقي الرجلان. هذا ما صنع قوم أبي النجم لما رأوا العجاج (أبا رؤية وقريع وأبي النجم) خرج محتقلاً عليه جبة خز وعمامة خز، على ناقة له قد أجاد رحلها حتى وقف بالمربرد والناس يجتمعون فأنشدهم قوله: ((قد جبر الدين الإله فجبر)).

فذكر فيها ربعة قوم أبي النجم وهجاهم. فانطلق رجل من الناس من بكر بن وائل يشتد عدواً إلى أبي النجم في بيته، فقال له يستحثه وهو يلهث: ((أنت جالس وهذا العجاج يهجونا بالمربرد، قد اجتمع عليه الناس؟!)) فتحرك أبو النجم وقال: ((صف لي حاله وزيه الذي هو فيه)) فوصف له، فقال: ((ابغني جملاً طحاناً قد أكثر عليه من الهناء<sup>(٢)</sup>) فجاء إليه بجمال كله قروح وقطران، فأخذ أبو النجم سراويل له فجعل إحدى رجله فيها واتزر بالأخرى وركب الجمل ودفع خطامه إلى من يقوده، فانطلق حتى أتى المربرد وقد لحقه ما لا يحصى لما رأوا من الهيئة الغريبة، حتى دنا من العجاج في حلقتة فقال لقائد جملة: اخلع خطامه، فخلعه وأخذ أبو النجم ينشد أرجوزته:

((تذكر القلب وجهلاً ما ذكر))

والعجاج على ناقته يسمع، ونفسه تحدّثه بشر يصيبه. وجعل جمل أبي النجم يدنو من ناقة العجاج يتشمّمها، والعجاج يتباعد عنه لئلا يفسد ثيابه الخزّ ورحله الثمين الثقيل، بالقطران. وما زال الجمل يتقرب من الناقة والعجاج يتقهقر حتى وصل أبو النجم في إنشاده إلى قوله:

(١) أصل الجذع: ولد الشاة في السنة الثانية والأنتى جذعة، وطفنت حرب بين قوم فقال أحدهم: إن شنتم أعدناها جذعة: يريد من أول.

(٢) العس بالضم: القدح الكبير.

(٣) أي رمى بها.

(٤) هنا الإبل: طلاها بالهناء وهو القطران بضوئه منها مواضع الجروح.

((شيطانه أنثى وشيطاني ذكر))<sup>(١)</sup>

فثارت عاصفة من الضحك والاستحسان من كل صوب وضج بها المربرد، وتعلق الناس هذا البيت وهرب العجاج عنه.

### ١٥ - صحابي بكتاب نبوي

وهذا رجل من ضرب آخر قديم، أفلت منذ قرن، ليكون في المربرد كما تكون العاديات في المعارض أو دور الآثار والمصانع:

روى الأصمعي عن يزيد بن عبد الله قال: ((بينما نحن بهذا المربرد جلوس، إذ أتى علينا أعرابي أشعث الرأس فوقف علينا فقلنا: ((والله لكأنّ هذا الرجل ليس من أهل البلد)). قال الأعرابي: ((أجل والله)). وإذا معه قطعة من جراب أو أديم فقال: ((هذا كتاب كتبه لي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)). فأخذناه فقرأناه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني زهير (حي من عكل):

إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وفارقتم المشركين وأعطيتم الخمس من الغنائم وسهم النبي والصفى فأنتم آمنون بأمن الله وأمان رسوله، لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم)).

فقال القوم وقد تكاثروا حوله: ((حدّثنا أصلحك الله بما سمعت من رسول الله)) قال: ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((صوم شهر الصبر، وصوم ثلاثة من كل شهر، يذهبن وحرّ الصدر)).

فقال له القوم: ((أنت سمعت هذا من رسول الله؟)) فأثاره شكهم هذا وأغضبه فقال: ((أراكم تخافون أن أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا حدثتكم حديثاً)). ثم أهوى إلى الصحيفة وانصاع<sup>(١)</sup> مدبراً.

قال المحدث: فقيل لي لما تولى: هذا النمر بن تولب العكلي<sup>(٢)</sup> الشاعر!

### ١٦ - من محن السياسة

(١) الأغاني ٧٤/٩.

(١) انصاع: انقتل راجعاً مسرعاً.

(٢) كان النمر يسمى الكيس لحسن شعره. وهو جاهلي أدرك الإسلام وهو القائل لرسول الله ﷺ:

إننا أتيناك وقد طال السفر  
نطعمها الشحم إذا قل الشجر  
عاش إلى أن خرف وأهتر وكان هجيره أن يقول: ((أصبحوا الركب، وأغبقوا الركب)) كعادته التي كان عليها. ومن شعره قوله:

وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

وإلى الذي يعطى الرغائب فارغب

لا تغضبن على امرئ في ماله

وغذا تصبك خصاصة فارح الغنى

وقوله:

فإلا أتبعها تتبعتني

وأعلم أن ستدركني المنايا  
أهتر: خرف. وهجيراه: دأبه وعادته. انظر طبقات الشعراء لابن سلام.

أترك معركة الرّجّاز تلك، وأترك أبا النجم في زهو ظفره ونشوة انتصاره وقد سرّه أن يوّلي العجاج مدحوراً مقهوراً، وأن يسري خبر ما صنع واخترع في أسواق البصرة كلها سريان الكهرباء، وأجوز مشهد النمر بن تولب الأعرابي الغريب الزي، وأقف بالقارئ على مشهد آخر يبعث العبرة، ويهيج من النفس مكانم الثورة فيها والمقت للسياسة وما تجرّه من ويلات:

أوقع الخليفة أبو جعفر المنصور بالخراسانية إذ قتل يعسوبها أبا مسلم، وخلص من عمه الذي ناوأه، وبقي عليه أن يستأصل شأفة العلويين الذين لهم في النفوس المكانة البعيدة والتجّلة والاحترام، فشدد عليهم وقيدهم وحبس منهم وقتل.

ونحن الذين رأينا بالمربد، صورة من كل ما يجري فيه حينئذ من دين وأدب، ومعرضاً لعادات اجتماعية وأساليب تجارية، سنرى فيه أيضاً صدىً لما يتردد في أمصار الإسلام إذ ذاك من شدة على العلويين وتضييق وأخذ بالخنق.

في مربد البصرة سليمان بن علي من رؤوس بني العباس الذي أوقعوا بالعلويين، وحوله جماعة من أشراف الناس. فإنه لجالس مجلسه، وإذا بكبير العلويين إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب: شيخ عليه أمارات الحزن والمهابة والوقار معاً، وإلى جنبه المفضل الضبي، ويمشي مع الشيخ صبيان من ولده قد ضمّهم إليه.

لمح إبراهيم مكان سليمان بن علي فوقف على رأسه وأمامه أطفاله، وقال بصوت متهدج تخنقه العبرة وأشار إلى سليمان:

((هؤلاء منا ونحن منهم، إلا أنهم فعلوا بنا وصنعوا.. (وذكر كلاماً يعتدّ عليهم فيه بالإساءة..)) قال هذا فتحرّكت الرحمة في نفوس السامعين جميعاً لما آل إليه أمر بني علي، وحدّثتهم أنفسهم بشيء على بني العباس وقسوتهم، على أبناء عمومتهم، ثم توجه الرجل لوجهه وتمثّل بهذه الأبيات:

مهلاً بني عمنا ظلامتنا	إنّ بنا سورة من القلق
لمثلكم تحمل السيوف ولا	تغمز أحسابنا من الرّفق
إني لأنمي إذا انتميت إلى	عزّ عزيز ومعشر صدق
بيض سباط كأنّ أعينهم	تكحل يوم الهياج بالعلق <sup>(١)</sup>

فقال له المفصّل وهو يتبعه: ما أفحل هذه الأبيات فلمن هي؟ قال: ((لضرار بن الخطاب الفهري قالها يوم الخندق وتمثّل بها علي بن أبي طالب يوم صفين والحسين بن علي يوم قتل، وزيد بن علي)).

ثم لحق القوم فلم يمض قليل حتى أتاه نعي أخيه محمد قتله رجال أبي جعفر، فتمثّل إبراهيم:

نبئت أن بني ربيعة أجمعوا	أمراً خلالهم لتقتل خالدًا
إن يقتلوني لا تصبّ أرماحهم	ثأري ويسعى القوم سعياً جاهداً

<sup>(١)</sup> سورة الغضب: وثوبه وحدته، والغمز: العيب. السباط: الحسان القد والاستواء. والعلق: الدم.

أرمي الطريق وإن صددت بضیعة وأنزل البطل الكمي الجاحدا

فساله المفضل لمن هذه الأبيات؟ فقال: للأحوص بن جعفر بن كلاب تمثل بها يوم شعب جبلة. ثم لم يلبثا أن أقبلت عساكر أبي جعفر واقتتلت مع أصحاب إبراهيم هذا. وقتل من الفريقين من قتل وكاد يكون الظفر لإبراهيم<sup>(٢)</sup>.

### ١٧- حل سلمي

قتل بعض بني تميم مسعود بن عمرو العتكي فنهض أخوه زياد بن عمرو لثأره، فحشد الحشود في المربرد وجعل في الميمنة بني بكر بن وائل وفي الميسرة بني عبد القيس وبقي هو في القلب.

بلغ ذلك الأحنف بن قيس سيد بني تميم فقال: ((هذا غلام حدث شأنه الشهرة، وليس يبالي أين قذف بنفسه)) ثم ندب أصحابه فجاءه حارثة بن بدر الغداني، وقد اجتمعت بنو تميم فجعلوا سعداً والرباب في القلب ورئيسهم عبس بن طلق الطعان المعروف بأخي كهمس فجعل في القلب بحذاء الأزدي، وجعل حارثة بن بدر في بني حنظلة بحذاء بكر بن وائل، وجعلت عمرو بن تميم بحذاء عبد القيس، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف:

سيكفيك عبس أخو كهمس      مقارعة الأزدي بالمربرد.. الخ

وكان المجتمعون من تميم وباديتها وحلفائها من الأساورة والزط والسباجة وغيرهم زهاء سبعين ألفاً، وفي ذلك يقول جرير:

سائل ذوي يمن ورهط محرق      والأزدي إذ ندبوا لنا مسعودا

فاتأهم سبعون ألف مدجج      متسربلين يلامقاً<sup>(١)</sup> وحديدا

فلما توافقوا بعث إليهم الأحنف:

((يا معشر الأزدي وربيعة من أهل البصرة! أنتم والله أحب إلينا من تميم الكوفة وأنتم جيراننا في الدار ويدنا على العدو، وأنتم بدأتمونا بالأمس ووطنتم حريمنا

(٢) الأغاني ١٠٩/١٧، وتتمة رواية المفضل هذه: [فلما رأى البياض يقل والسواد يكثر قال لي: ((يا مفضل حركني بشيء يهون علي بعض ما أرى)) فأنشده:

أجدت يسير إنما أنت حالم      ألا ايها الناهي فزارة بعدما  
ويمنع منه النوم إذ أنت نائم      أبي كل حر أن يبيت بوتره  
على الجرد في أفواههن الشكائم      أقول لفتينان العشي تروحو  
ومن يحترم لا تتبعه اللوائم      قفوا وقفه: من يحي لم يخز بعدها  
لتسلم - فيما بعد ذلك سالم؟      وهل أنت - إن باعدت نفسك منهم

فقال لي: ((أعد)) فتنبهت وندمت، فقلت: ((أو غير ذلك؟)) فقال: ((لا، أعدها)) فأعدتها، فنتال على سرجه، وتمطى في ركابه حتى خلته قد قطعها، ثم حمل فطعن رجلاً وطعنه آخر، فقلت: ((أتبأشر الحرب بنفسك والعسكر منوط بك؟)) فقال: ((إليك عني يا أخا بني ضبة، كأن عويفاً أخا بني فزارة نظر في يومنا هذا حيث يقول:

ألمت خناس وإمامها      يمانية من بني مالك  
تطاول في المجد أعمامها      وإن لنا أصل جرثومة  
ترد الحوادث أيامها      يرد الكتيبة مفلولة  
بها أفتها وبها ذامها      ثم حمل حملة جاءه فيها سهم عائر، فشغله عني وكان آخر العهد به[أهـ]

ويحترم: يمت شاباً. والأفن: ضعف العقل. والذام: الذم.  
(١) دروعاً لامعات.

وحرقتم علينا فدفعنا عن أنفسنا، ولا حاجة لنا في الشر ما أصبنا في الخير مسلماً، فتيّموا بنا طريقة قاصدة)).

فوجه إليه زياد بن عمرو:

((تخير خلة من ثلاث: إن شئت فانزل أنت وقومك على حكمنا، وإن شئت فخلّ لنا عن البصرة وارحل أنت وقومك إلى حيث شئتم، وإلا فدوا قتلانا واهدروا دماءكم، وليود مسعود أخي دية المُشعرة)) أي: عشر ديات، كما يودي أبناء الملوك في الجاهلية.

فبعث إليه الأحنف: ((سنختار فانصرفوا في يومكم)).

فهز القوم رياتهم وانصرفوا. فلما كان الغد بعث إليهم:

((إنكم خيرتمونا خلافاً ليس فيها خيار: أما النزول على حكمكم فكيف يكون والكلم يقطر دماً؟! وأما ترك ديارنا فهو أخو القتل، قال الله عز وجل: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} [النساء: ٦٦/٤] ولكن الثالثة إنما هي حمل على المال فنحن نبطل دماءنا وندي قتلناكم، وإنما مسعود رجل من المسلمين، وقد أذهب الله أمر الجاهلية)).

فاجتمع القوم على أن يقفوا أمر مسعود، ويغمد السيف، ويودي سائر القتلى من الأزد وربيعة. فتضمن ذلك الأحنف ودفع إياس بن قتادة المجاشعي رهينة حتى يؤدي هذا المال، فرضي به القوم.

فخر الفرزدق بهذا وعرض بقوم جرير فقال:

ومنا الذي أعطى يديه رهينة	لغاري معدّ يوم ضرب الجماجم
عشية سال المربدان كلاهما	عجاجة موت بالسيوف الصوارم
هنالك لو تبغي كليياً رأيتها	أذل من القردان تحت المناسم <sup>(١)</sup>

## ١٨ - عَرَضُ الْأُمَمِ

إذا كانت المعارض اليوم تزخر بالناس في مختلف الأمم فإن المربد اقتصر على العرب والفرس فقط. وكان مضى على هذين الجنسيتين أكثر من قرن وهما يتمازجان دماً وطبائع وعادات، حتى تعلم كثير من الفرس النازلين في بقاع أغلب أهلها عرب، اللغة العربية وثقافتها وأحسنوا التكلم بها نظماً ونثراً. ولم يخل المربد من هذه الطبقة

(١) الكامل للمبرد ٨١/١-٨٣ الغاران: القبيلتان العظيمتان، وأراد بالمربدتين المربد وما حوله. وتنمة الخير طريفة حقاً بما فيها من نيل ومروءة خالصين، ويرويهما بطل السلام نفسه الأحنف قال: ((فكثرت علي الديات فلم أجدها في حاضرة تميم، فخرجت نحو (بيرين) فسألت عن المقصود هناك فأرشدت إلى قبة، فإذا شيخ جالس بفنائها مؤتزر بشملة محتب بحبل، فسلمت عليه وانتسبت له، فقال: ((ما فعل رسول الله ﷺ؟)) فقلت: ((توفي صلوات الله عليه)) قال: ((فما فعل عمر بن الخطاب الذي كان يحفظ العرب ويحوطها)). فقلت له: ((مات رحمه الله تعالى)). قال: ((فأي خير في حاضرتمك بعدهما؟)). فذكرت له الديات التي لزمنا للأزد وربيعة فقال لي: ((أقم)) فإذا راع قد أراح ألف بعير، فقال لي ((خذها))، ثم أراح عليه آخر مثلها فقال: ((خذها)) فقلت: ((لا أحتاج إليها)). فانصرفت بالألف عنه، ووالله ما أدري من هو؟ إلى الساعة!!



المولدة الجديدة، فقد كانت تغشاء وتضيف إلى ما به من ألوان، لوناً حديثاً لا عهد للناس بمثله.

وقد روي أن أديب العرب وفارس: عبد الله بن المقفع، دعا جماعة بالمربد ناحية وطرح عليهم هذا السؤال: ((أي الأمم أعقل؟)) فكانت الأجوبة مختلفة، وعرض المجيبون أحوال من يعرفون من الأمم؛ فلا علينا وقد شهدنا مشاهد النضال في المربد من حروب وهجاء، أن نشهد مجلساً علمياً هادئاً يضم نخبة من ذوي العقول الراجحة والآراء الحصيفة:

قال شبيب بن شيبه أحد بلغاء العرب وجليس الملوك:

كنا وقوفاً بالمربد، وكان المربد مألّف الأشراف، إذ أقبل ابن المقفع فتشبتنا به وبدأناه بالسلام، فرد علينا السلام ثم قال: ((لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل، فإن الذي تطلبونه لم تفتلوه، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه)).

فقبلنا وملنا، ولما استقر بنا المكان قال لنا:

((أي الأمم أعقل؟!)).

فنظر بعضنا إلى بعض! فقلنا لعله أراد أصله من فارس فقلنا: ((فارس)).

فقال: ((ليسوا بذلك، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم)).

قلنا: ((فالروم)).

قال: ((أصحاب صنعة..)).

قلنا: ((فالصين)).

قال: ((أصحاب طرفة)).

قلنا: ((فالهند)).

قال: ((أصحاب فلسفة)).

قلنا: ((فالسودان)).

قال: ((شر خلق الله..)).

قلنا: ((فالترك)).

قال: ((كلاب مختلصة)).

قلنا: ((فالخزر)).

قال: ((بقر سائمة)).

قلنا: ((فقل)).

قال: ((العرب)).. فضحكنا...

فقال: ((أما إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذ فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت، أصحاب إبل وغنم وسكان شعر وأدم. وجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسن ما شاء فيحسن، ويقبح ما شاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم ورفعتهم همهم. وأعلنتهم قلوبهم وألسنتهم. فلما يزل حياء الله فيهم، وحبائهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتحت دينه وخلافته بهم إلى الحشر، الخير فيهم ولهم. قال سبحانه: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨/٧].

فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خُصم، ودفع الحق باللسان أکبت للجان)).

### ١٩- إعلان مجلجل

وإليك بعد أن استمتعت بعلم ابن المقفع وأدبه، صراعاً يخيل إليك إذ تقرؤه أنه كان في الأولمبياد، لأحد أبطال يونان، أو أنه جرى على غرار ما يجري في بلاد الإسبان، على يد مصارعي الثيران، بطله فارس عربي شجاع شاعر شديد البأس والبطش، على خلاف ما تعهد في الشعراء. هو هلال بن الأسعر أحد الجبارين العمالقة الضخام، كانه من قوم عاد. كان هلال هذا أعظم الناس غناء في حرب، يرد مع الإبل فيأكل كل ما وجد عند أهله ثم يرجع لا يذوق فيما بين ذلك طعاماً ولا شرباً، عَمَّرَ طويلاً ومات بعد بلایا عظام مرت على رأسه.

((كان يوماً في إبل له، وذلك عند الظهر في يوم شديد وقع الشمس، محتدم الهاجرة، وقد عمد إلى عصاه فطرح عليها كساءه ثم أدخله رأسه تحت كسائه من الشمس، فبينما هو كذلك إذ مر به رجلان: أحدهما من بني نهشل والثاني من بني فُؤَيْم، كانا أشد تميميين في ذلك الزمان بطشاً، يقال لأحدهما الهبّاج، وقد أقبل من البحرين ومعهما أنواع<sup>(١)</sup> من تمر هجر، وكان هلال بناحية الصعاب، فلما انتهيا إلى الإبل، ولا يعرفان هلالاً بوجهه ولا يعرفان أن الإبل له، ناديا: ((يا راعي أعندك شراب تسقينا؟)) وهما يظنانه عبداً لبعضهم، فناداهما هلال ورأسه تحت كسائه: ((عليكما الناقة التي صفتها كذا في موضع كذا فأنيخاها فإن عليها وطبين من لبن، فاشربا منهما ما بدا لكما)). فقال أحدهما: ((ويحك، انهض يا غلام فأت بذلك اللبن)). فقال لهما: ((إن تك لكما حاجة فستأتيانها فتجدان الوطبين فتشربان)) فقال أحدهما: ((إنك يا بن اللخناء لغلظ الكلام، قم فاسقنا)). ثم دنا من هلال وهو على تلك الحال. فقال لهما هلال: ((أراكما والله ستلقيان هواناً وصغاراً)) فسمعا ذلك منه فدنا أحدهما فأهوى له ضرباً بالسوط على عجزه وهو مضطجع، فتناول هلال يده فاجتذبه إليه ورماه تحت فخذة ثم ضغطه ضغطة، فنادى فاجتذبه فرمى به تحت فخذة الأخرى. ثم أخذ برقابهما فجعل يصكّ برؤوسهما بعضاً ببعض، لا يستطيعان أن يمتنعا منه. فقال أحدهما: ((كن هلالاً ولا نبالي ما صنعت)). فقال لهما: ((أنا والله هلال، ولا الله لا تفلتان مني حتى تعطيانني عهداً وميثاقاً لا تخيسان به: لتأتينان المربرد إذا قدمتما

(١) النوط: الجلة الصغيرة فيها تمر والجمع أنواع.

البصرة ثم لتناديان بأعلى أصواتكما بما كان مني ومنكما)). فعاهداه وأعطياه نوطاً من التمر الذي معهما. وقدما البصرة فأتيا المربرد فناديا بما كان منه ومنهما. وكان إعلان طنّان دوّى في فضاء المربرد.

وهكذا جمع المربرد بطولة القوة والصراع والجبروت البدني، إلى جانب بطولة الشعر والأدب والخطابة، فكان معرضاً تام الأداة وافي الفروع. وتمّ لأسواق العرب به خاتمة المزايا والكمال، وأصبح في وسع من شاء الاستمتاع بأكثر عادات العرب وأخلاقهم ودينهم وسياستهم وحربهم وأدبهم وسباقهم وصراعهم، أن يفوز بأمنيته من أقصى طريق، إذا استذكر ما كانت عليه أسواقهم في الجاهلية والإسلام.

### استدراك<sup>(١)</sup>

قرأ فريق من أهل الفضل، مقدمة الكتاب عقب طبعها. فرأوا من الحق الواجب علينا، وقد عرضنا لذكر ((معرض دمشق وسوقها)) وأثنينا على ما فيه من كل نفيس معجب، أن نثبت ما يلي:

أساءت إدارة هذا المعرض إلى الأمة وكرامتها كل الإساءة: في إباحتها القمار والخمر، وفي غضها الطرف عن مفاصد كثيرة نشأت عن اختلاط الرجال بالنساء، وفي إحيائها الليلي الساهرة تقيم فيهن الحفلات الراقصة، يتصدرها أشخاص رسميون، بينما كان العرب في فلسطين يخوضون الدماء ويسلط على رؤوسهم شواط وقذائف وحمم، وهم يكافحون ويجالدون ويصابرون، عدوين الدين، الإنكليز واليهود، ويتعرضون لنار جيشين قويين، فليتنا إذ لم نقم بحق نجدة إخواننا، راعينا المروءة والذوق على الأقل، فنزهننا معرضنا عن المظاهر المزرية.

ولئن كان المعرض قد مثل الشام بمصنوعاته ونفائسه والتي كانت بحق مفخرة من أعظم مفاخر هذه الأمة المجيدة، إن إدارته لم تكن - فيما أباحت - تمثل البلاد بشيء، فقد شذت عن كل إدارات المعارض التي سبقتها، إذ خصصت هذه أياماً للنساء وأياماً للرجال، ولم تندفع في سبيل التقليد السخيف اندفاع المعرض الأخير، فكانت بذلك أصدق خبراً عن البلاد التي أقامتها.

ولكل أمة تقاليد كريمة وأخلاق وشعور، لا تقوم لها قائمة ولا يحترم لها مكانة، إلا إذا تمسكت بها تمسك الغريق بحبال النجاة، وأيما امرئ خرج على شيء منها فقد خرج على أمته وبلاده.

نقول هذا ونحن لا ينقضي عجبنا من أن تصدر تلك الكبائر عن معرض دمشق، بينما مديره الذي أطلق يده في إدارته وموظفيه، رجل معروف بمتانة الخلق وصحة المبدأ، والصلابة في تطبيقه.

ولكن يظهر أن الشأن ليس - دائماً - في إحسان اختيار الرأس.

إن الناس كانوا إذا قرؤوا في الصحف أخبار فلسطين وما يدوي في أجوائها من رصاص وبارود.. قطع عليهم قراءتهم أصوات الأسهم النارية تطلق في جو

(١) هذا استدراك صدر في الطبعة الأولى لمناسبة خاصة، يصف شعور الشاميين إزاء بعض ما كان جرى في معرضهم العام سنة ١٩٣٦م أثبتناه هنا للتاريخ فقط.

المعرض ابتهاجاً بغير شيء، فكان الألم يرتسم علائمه على وجوه أكثر الشاميين. وكان على الصحف التي تمثل الرأي العام، وعلى الطبقات المثقفة وأهل الحل والعقد أن ينكروا ما يثلّم كرامة البلد ويمس مروءته، لكنه لم يرتفع في استنكار ذلك - مع الأسف - صوت، إلا صوت بعض الجمعيات الدينية، التي استحيت لدمشق بلد الفضيلة أن تؤذى في سمعتها.

هذه كلمة نقولها للحق وللتاريخ وقد مضى على انفضاض المعرض ثمانية أشهر<sup>(١)</sup>.

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٦م!.